

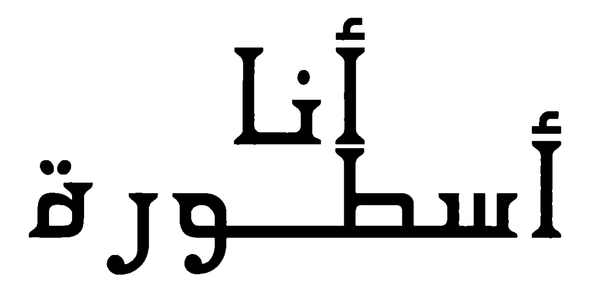
أنا أسطورة

ترجمة: د. شريف صبري



المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

I Am Legend



RICHARD MATHESON

ترجمة

د. شريف صبري





أنا أسطورة

د. شريف صبري

الطبعة الأولى: يناير
1440هـ - 2019م

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
دار الكتب المصرية
صبري ، شريف
أنا أسطورة
شريف صبري - القاهرة: سما للنشر والتوزيع، 2019
304 ص؛ 13.7 × 19.5 سم
أنا أسطورة
تدمك 5-253-781-977-978
1 - القصص العربية.
أ. العنوان 813
رقم الإيداع: 25913/ 2018
تدمك 5-253-781-977-978

سما للنشر والتوزيع

دار سما للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
15 ش يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة
تليفون: 24517300 202+ - 01271919100 2+
emil: samanasher@yahoo.com
publishing@sama-publishing.com

التوزيع
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع
80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
جمهورية مصر العربية
تلفاكس: 24518068 202+ - 01099998240 2+
emil:aldawleah_group1@yahoo.com

التنفيذ الفني



ali@daraj-eg.com

I Am Legend

أنا أسطورة

إلى الرجل الأخير

الذي سيبقى حيًا على وجه الأرض

تحياتي..

أما بعد:

لا تغضب مني حين أخبرك أنني حقًّا أحقد عليك وبشدة، فأنت ستكون هناك وحيدًا بعد أن يرحل الجميع وبعد أن يصبح العالم خاليًا من الخائنين والمنافقين والكاذبين والسياسيين، والنساء، فلا تحدثني عن قسوة الوحدة ولكن حدثني عن روعة أن تكون أنت؛ أنت.

وأن تكتشف بهدوءٍ وسكينة تفاصيل نفسك، وأن تصنع حياتك الخاصة بالطريقة التي تفضلها، فهنيئًا لك، واذكرني بالخير.

وشكرًا

إهداء

إلى أبنائنا الأعزاء

إلى الجيل الذي يرفضنا بقوةٍ بالرغم من كل ما نبذله من أجلهم

إلى من ينظرون إلينا ويرغبون سـرًّا في أعماقهم بأن نختفي من على وجه الأرض

أنـا حقًّا لا أعرف هل سـتكونون أنتم (روبـرت نيفيل) الذي وجد نفسـه آخر شـخصٍ حيٍّ في العالم بعـد أن نموت عن بكـرة أبينا أم أنكم سـتتحولون إلى حفنةٍ من مصاصي الدماء الذين سـيرثون الكون ويصنعون على أنقاضنا عالمًا جديدًا آخر؟

هل ستكونون امتدادًا لنا أم نسخة مشوهة منا؟

أبناؤنا الأعزاء، كم أخشى عليكم.

وأنا على يقينٍ من أنه لا أحد منكم سـيقرأ سـطرًا واحدًا ربما على الأقل في هذا القرن.

د. شريف صبري

مقدمة

رواية (أنا أسطورة)

كتبها (ريتشـــارد ماثيسون) عام 1954 وتدور أحداثها في المستقبل الـــذي يأتي بعد هذا التاريخ بأكثر من عشـــرين عامًا، أي في ســـبعينات القرن الماضي.

وكان لهـــذه الرواية بالـــذات أثر كبير فـــي تطويـــر أدب (الزومبي ومصاصي الدماء) وترســـيخ فكرة نهاية العالم، وتعتبر هذه الرواية هي أولى الروايات التي أثارت تلك المواضيع في العصر الحديث، وقد بذل الكاتب جهدًا كبيرًا في تحديد شـــكل الأساطير القديمة ومحاولة ربطها بمفاهيم علمية وطبية معروفة، ولم يكن هدفه الأساسي هو الخوض في التفاصيل المرعبة المخيفة بقدر ما حاول الحديث بعمقٍ عن تأثير الحياة وحيدًا على الأرض بعد أن يمـــوت الجميع ويذهب العالم الحالي كما نعرفه إلى الفناء.

وتحولت هـــذه الرواية إلـــى أعمـــالٍ تلفزيونية وســـينمائية عديدة ومسرحيات إذاعية وقصص قصيرة مصورة.

وقد تم اقتباسها في أربعة أفلام:

آخر رجلٍ على الأرض 1964

أنا أسطورة

رجل أوميجا 1971

أنا أسطورة 2007

أنا أوميجا 2007

ولكن الأفـلام الأربعة لم يلتـزم أي واحدٍ منهـم بالنص الأصلي للروايـة، وحادوا جميعًا فـي اتجاهاتٍ أخرى بعيدة عـن التي أرادها (ريتشارد ماثيسون).

والآن بعد خمسةٍ وستين عامًا تقريبًا، حاولت قدر المستطاع أن أزيل الغبار عن هذه التحفـة الفنية وأقوم بترجمتها إلـى اللغة العربية للمرة الأولى، وبقدر ما كان الأمر شاقًّا ومرهقًا بقدر ما استمتعت بكل حرفٍ في تلك الرحلة العجيبة التي جعلتني أتخيل نفسي كثيرًا في مكان البطل.

آخر رجلٍ يبقى حيًّا على وجه الأرض بعد رحيل الجميع.

الجزء الأول

يناير 1976

الفصل الأول

في تلك الأيام الغائمة، كثيرًا ما كان (روبرت نيفيل) يفقد قدرته على التنبؤ بموعد غروب الشـــمس، وفي بعض الأحيان لم يكن يتمكن من العودة إلى بيته في الوقت المناســـب قبل أن يتواجدوا هم في الطرقات، وكان عليه أن يستخدم طرقًا أفضل ليستدل بها على الوقت الذي سوف ترحل فيه الشمس لأنه ســيكون نفس الوقت الذي سوف يظهرون فيه، وقـــد اعتاد أن يســـتخدم ما تقدمه له الطبيعة ليعـــرف قرب وقت حلول الليل، فالنظر إلى الســـماء ظل هو وســيلته المفضلة، ولكن في الأيام الملبدة بالغيوم لـــم تكن لتنجح أبدًا تلك الطريقة، ولهذا الســـبب كان يختـــار حينها قضاء النهار في التجول بالمنطقة المحيطة بمنزله بدلًا من الابتعاد كثيرًا، وبدأ يشـــعر بالملل الشـــديد وهو يتجول حول منزله في ذلك الوقت من بعد ظهيرة اليوم والذي كان النهار فيه رماديًّا، ثم أشعل ســيجارة ووضعها في زاوية فمه وتركها تتدلى غيـــر مكترث بالدخان الكثيف المتصاعد منها فوق كتفه، ثم أخذ يتفحص النوافذ جميعها بدقةٍ شديدة ليتأكد من أن ألواحها مثبتة جيدًا، فبعد كل هجومٍ عنيف يتعرض له المكان غالبًا ما تكون تلك الألواح إما مكسورة بالكامل أو مشقوقة، وكان عليه حينها أن يصلح الشق بعنايةٍ أو أن يستبدل اللوح بأكمله ولكم

أنا أسطورة

كره هذه المهمة دائمًا، وهذه المرة بعد أن تفقد جميع النوافذ، لم يجد سوى لوح واحد فقط قد انكسر، فقال محدثًا نفسه:

- لوح واحد فقط؛ أليس هذا رائعًا؟

أكمل نصف دورة حول المنزل حتى وصل إلى الفناء الخلفي، فأخذ أولًا يتفقد المبنى الزجاجي المخصص للنباتات التي يزرعها بنفسه، ثم بعد ذلك تفقد خزان المياه، ففي بعض الأحيان تكون قاعدة الخزان متضررة وربما تكون مكسورة، وكثيرًا ما تلحق الأضرار بالمكان الذي أعده ليقوم بتجميع مياه الأمطار فيه، بل وفي العديد من المرات يكون السياج المحيط بالحديقة الخلفية مهشمًا، وبلا شك في هذه الحالة يتعين عليه إصلاح الأجزاء المتضررة أو استبدالها إن كانت تالفة تمامًا، ولحسن حظه وجد كل شيءٍ على ما يرام، فلم تكن هناك أية أضرار لا بمبنى النباتات الزجاجي ولا بخزان المياه وجامع الأمطار.

قرر أن يدخل إلى البيت كي يحضر مطرقة وبعض المسامير، وأخذ يسير بخطواتٍ متعبة حتى وصل إلى الباب الأمامي، فدفعه برفق، وما أن أصبح بالداخل حتى نظر في المرآة المحطمة التي ثبتها خلف الباب والتي كانت مليئة بالشقوق المتقاطعة، فرأى عليها انعكاس صورته المشوهة، ففي الأيام القليلة الماضية كانت تسقط قطع مسننة من الزجاج ذي الطلاء الفضي من الخلف، فتمتم سرًّا:

- فلتسقط أو تذهب إلى الجحيم.

لقد كانت هذه هي آخر مرآة لعينة لديه، ولم يكن الأمر يستحق كل هذا العناء، فسوف يعلق الثوم مكانها، فالثوم أيضًا يجدي نفعًا وبشدة.

مر ببطءٍ عبر غرفة المعيشة ذات الإضاءة الخافتة والغارقة في الصمت، ثم توجه يسارًا عبر الرواق الضيق، ويسارًا مرة أخرى إلى غرفة نومه التي كانت فيما مضى مصممة بأناقة وديكوراتها مليئة بالدفء والفرح، لكنها الآن أصبحت مؤثثة بطريقةٍ عمليةٍ تمامًا.

فسرير (نيفيل) ومكتبه لا يشغلان سوى حيزٍ صغير من الغرفة، وأما الجزء المواجه لهما فقد حوله إلى ما يشبه المتجر بينما توجد طاولة خشبية طويلة تحتل حائطًا بأكمله، وعليها العديد من الآلات التي يستخدمها باستمرار كمنشارٍ معدنيٍّ ثقيل، ومخرطة أخشاب، وعجلة صنفرة، وتلك الآلة التي تحتوي على طرفين معدنيين قويين كي يتم تثبيت الأشياء بينهما، وعلى الحائط أعلى تلك الطاولة هناك بعض الأرفف العريضة، المبعثر فوقها العديد من الأغراض التي يحتاج إليها (روبرت نيفيل) عادةً.

تناول المطرقة من على الطاولة، ثم أخذ يبحث عن بعض المسامير المعدنية داخل أحد الصناديق المليء بالأشياء المتفرقة حتى وجدها، وبعد ذلك توجه إلى الخارج مرة أخرى بنفس الخطوات الثقيلة وأخذ يثبت اللوح الخشبي المكسور بعنايةٍ في طرفي النافذة ويتأكد أكثر من مرة أنه قد أنجز الأمر على خير ما يكون، وما أن فرغ حتى ألقى بالمسامير

المتبقية والتي لم يستعملها بعيدًا بين مجموعةٍ من الأنقاض بجوار باب المنزل.

ولفتــرةٍ من الوقت لم يحســبها ظل واقفًا بهدوءٍ فــي حديقة منزله الأمامية وهو ينظر إلى الأعلى تارة وإلى الأسفل تارة أخرى على امتداد شارع (سيمارون) الغارق في الصمت القاتل.

إنه طويل القامة ذا جســدٍ رياضي، يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا، ينحدر من أصولٍ ألمانية إنجليزية، ولا تبدو ملامحه مميزة باستثناء فمه البارز قليــلًا، وعيناه الزرقــاوان ذات البريق الجــذاب واللتان أخذتا تتجــولان في أنقاض المنــازل المتفحمة المجــاورة لمنزله والتي قام بإحراقها هو بنفسه كي يمنعهم من القفز عبرها إلى سطح منزله.

أمضــى عدة دقائق على هذا الوضع قبل أن يأخذ نفسًــا عميقًا ببطءٍ وتأنٍ، وكأنه يســتمتع برائحة الهواء، ثم استدار عائدًا إلى داخل المنزل، وأول شــيءٍ فعله هو أن ألقــى بالمطرقة على الأريكــة التي في غرفة المعيشــة، وعلى الفور أشعل ســيجارة وأعد لنفسه مشروب منتصف النهار الذي يفضله.

ثم تحرك بصعوبةٍ وهو يرغم نفسه على ذلك كي يتعامل مع القمامة المتراكمة منذ خمســة أيام تقريبًا في المغسلة، فهو يعلم أن عليه إحراق الصحون الورقية، وغسل الأواني والملاعق والسكاكين، وكذلك إزالة الأتربة مــن على الأثاث، وأن ينظف المغســلة وحوض الاســتحمام والمرحاض، وأخيرًا تبديل ملاءة الســرير وأكياس الوسادات، لكنه لم

يشعر بأي رغبةٍ في أن يقوم بكل هذا، فهو رجل وحيد، وكل تلك الأشياء لا تمثل له أية أهمية.

❊ ❊ ❊

لقد اقتــرب الوقت من حلول الظهيرة، ولا يزال (روبرت نيفيل) في الصوبــة الخاصة بالزراعة يقــوم بجمع الكثير مــن رؤوس الثوم التي نضجت ويضعها في ســلةٍ ضخمة؛ في البدايــة كان مجرد أن تصل إلى أنفه رائحــة الثوم كفيلًا بأن يصيبه بالإعياء الشــديد، فتبــدأ معدته في التقلص بقوةٍ واستمرار مما يجعله فريســة للشعور بالغثيان، لكن الآن أصبحت الرائحة متغلغلة في منزله بالكامل، وفي ملابســه، بل حتى أنه بدأ يشعر بها داخل أحشــائه وخلايا جسده، ومن كثرة تعوده عليها فهو حاليًا بالكاد يلاحظها أو يميز وجودها.

ما أن حصل على كميةٍ كافيةٍ من رؤوس الثوم حتى عاد ســريعًا إلى منزله وألقى بهم جميعًا في المغسلة، وبينما هو يضغط على الزر بجوار الباب ليضيء المصباح الكهربائي حتى وجده يصدر وميضًا متقطعًا مع صوت أزيزٍ استمر لعدة ثوانٍ قبل أن يعود المصباح إلى توهجه الطبيعي ويضيء المكان، فأصدر من بين شــفتيه المضمومتين صفيرًا يدل على الامتعاض وعدم الرضا، وهمس لنفسه:

- لقد فعلها المولد مرة أخرى.

وأصبــح يتعين عليه أن يتفقــده ويتأكد من فعالية جميع الأســلاك والوصــلات ويصلح ما هو قابــل للإصلاح أو ســيكون لزامًا عليه أن

يحصل على مولدٍ آخر جديد، فركل الكرسي الذي أمام المغسلة بغضبٍ قبل أن يجلس عليه بجسده المنهك تمامًا، ثم تناول سكينًا، وأخذ يفصل بها رؤوس الثوم عن أعواده، وبعد ذلك قام بشق كل رأسٍ من المنتصف إلى قسمين ليسهل عليه ذلك فصل كل فصٍّ على حدة مما جعل الهواء من حوله معبأً برائحة الثوم العطرية النفاذة والمميزة، فأدار رأسه ناحية جهاز التكييف وملأ صدره بدفقةٍ من الهواء المنعش والخالي حتى الآن من أية روائح خانقة.

ثم أحضر آلة حديدية مدببة من على أحد الأرفف وأخذ يثقب بها الفصوص ثم يمرر من الثقوب خيطًا سميكًا ليصنع ما يشبه القلادة، واستمر يفعل ذلك حتى حصل على خمسٍ وعشرين قلادة من فصوص الثوم.

في البداية كان يعلق تلك القلائد على حواف كل نافذة مما يجعلهم يبتعدون إلى حدٍّ ما، ثم بعد ذلك بفترة لم تعد تلك الحيلة مجدية فقد أصبحوا يلقون النوافذ بالحجارة مما جعله مضطرًا لأن يغطيها برقائق القصدير الرفيعة، ولكن حتى هذا الأمر فشل أيضًا أمام تصاعد حجم الحجارة الملقاة، فلم يعد أمامه سوى أن يغلق جميع النوافذ بالألواح الخشبية المثبتة بإحكام شديدٍ ومهارة، وقد جعل هذا الحل البيت آمنًا حقًّا لكن في غاية الكآبة وكأنه قبر معتم، لكن على أي حالٍ هكذا أفضل بكثير من تساقط الحجارة التي كانوا يقذفونه بها كالمطر، وبالطبع تحسن الوضع عندما قام بتركيب ثلاث وحدات تكييف داخل المنزل،

إنــه رجل يطوع كل ما حوله من أجل التأقلم مع الحياة الجديدة التي هو مجبر عليها.

بعد أن انتهى من إعداد قلائد الثــوم، ذهب إلى الخارج وأزال تلك القديمة والمعلقة منذ ثلاثة أيام، فهي قد فقدت رائحتها العطرية النفاذة، وأخذ يثبت المجموعات الطازجة في كل نافذة، إنه العمل الذي يقوم به مرتين في الأســبوع، حتى توصل إلى شيءٍ آخر أفضل وجعل منه خط دفاعه الأول.

خط دفاع!

لماذا؟

وضد من؟

❊ ❊ ❊

أمضــى طوال الظهيرة فــي صنع الأوتــاد، وكان يخرطهم من قطعٍ خشــبيةٍ ضخمة بواســطة منشــارٍ مخصص لذلك، ثم يقوم بشحذهم وصنفرتهــم كي يخــرج كل وتدٍ بشــكلٍ معين ذي طرفٍ حــادٍّ مدببٍ كالخنجر وبطولٍ لا يتعدى التســع بوصات، وهذا العمل بالنسبة له في غاية الملل، فهو ســخيف وذو وتيرةٍ واحدة، ويملأ المكان برائحة غبار الخشــب الثقيلة والتي تخترق مسام جسده وتســير داخل عروقه حتى تستقر في رئتيه وتجعله يسعل بشدة.



حتى الآن لم ينتهِ مما يخطط له، فبغض النظر عن الكمية التي سيقوم بصناعتها، فهي سوف تنتهي سريعًا وسيتعين عليه أن يصنع المزيد، وهذا يتطلب الكثير من الأخشاب.

- هل يوجد في هذا العمل أي متعة؟

هكذا سأل نفسه وهو حانق.

لقد كان الأمر بالفعل محبطًا جدًّا ومرهقًا وفي غاية الملل، لذا تعين عليه أن يبحث عن حلٍّ ثالث غير قلائد الثوم والأوتاد الخشبية المدببة، ولكن من أين له بهذا الحل وهم لا يسمحون له أبدًا ولو بالقليل من الوقت الذي يستعيد فيه صفاء ذهنه ويفكر بعمقٍ وروية، وبينما هو مستمر في التقطيع والخرط والصنفرة كانت موسيقى السيمفونية الثالثة لـ (بيتهوفن) تصدح في الغرفة عبر مكبرات الصوت التي علقها في زوايا المنزل.

إنه فخور جدًّا بكونه تعلم من أمه عشق هذا النوع الراقي من الموسيقى الكلاسيكية الرائعة، فهي دائمًا ما تنجح في ملء الساعات المملة والمزعجة والخانقة بشعورٍ جيد وإحساسٍ رائع.

حدق في الساعة المعلقة على الجدار المواجه له، فوجدها قد أصبحت الرابعة بينما هو لا يزال مستمرًا في العمل بجدية، وقد ضم شفتيه برفقٍ تاركًا السيجارة تتدلى من زاوية فمه كما هي عادته، ومع كل قطعة خشبٍ يقوم بقطعها وصنفرتها يتصاعد المزيد من الغبار الذي

يشبه الطحين حتى يصل إلى سقف الغرفة، ثم يهبط رويدًا رويدًا إلى الأرض.

الرابعة والربع.

الرابعة والنصف.

الخامسة إلا ربع.

في خلال الساعة القادمة سيحل الظلام ويختفي الضوء وحينها سيظهر هؤلاء الأوغاد الأقذار حول المنزل في كل مكان.

ترك العمل، وكان لا بد أن يفعل من كثرة ما يشعر به من تعبٍ وإرهاق، توجه إلى الفريزر الضخم ليختار ما سيتناوله على العشاء، وظل لبعض الوقت يحدق في أكوام الطعام المجمد بعينين يملأهما الملل والتعب

فبدأ بأكياس اللحوم ثم الخضروات المثلجة، ومنها إلى الخبز والمعجنات والفواكه، وأخيرًا كانت هناك علب الآيس كريم، اختار شريحتين من لحم الضأن، وعلبة فاصولياء، وقنينة صغيرة من عصير البرتقال المركز، أخرج تلك الأغراض ثم أغلق باب الفريزر بمرفقه، توجه إلى كومة هرمية غير منتظمة من المعلبات تكاد أن تصل إلى السقف وأخذ علبة عصير طماطم طازجة، ثم أخيرًا غادر الغرفة التي كانت فيما قبل تخص (كاثي) والآن هي مخصصة كي يملأ معدته.

تحرك ببطءٍ عابرًا غرفة المعيشة وهو يتأمل اللوحة الجدارية الكبيرة والتي تغطـي الحائط الخلفـي للغرفة بأكمله ويظهـر بها حافة جرف مرتفع وأمامه مياه المحيط الشفافة ذات اللون الأزرق المتناهي الصفاء والأمـواج الهادئة التي تلامس الصخور السـوداء بحنـان، وفي أعلى اللوحة تظهر السماء صافية وخلابة لا غيوم بها، وعدد من طيور النورس الناصعة البياض تسـبح فوق الرياح باسطة جناحيها، وفي طرف اللوحة عند الصخور توجد شجرة عملاقة تكاد أغصانها أن تلامس السماء.

سار (نيفيل) إلى المطبخ وألقى بما يحمله من أغراضٍ على الطاولة، ثم نظر إلى الساعة فوجدها السادسة إلا ثلث، لقد أزف الوقت وسيحين موعد حضورهم قريبًا، صب القليل من الماء في المقلاة ووضعها على لهب الموقد، ثم أذاب شـريحتي اللحم من الثلج على آلة الشواء، وما أن بدأ الماء يغلـي حتى وضع فيه حبات الفاصوليـاء، وغطى المقلاة بحرص، فكر أنه ربما كان الفرن الكهربائي قد سـبب حملًا زائدًا على المولد مما أدى إلى تلف بعض أجزائه!

جلـس على الطاولة بعد أن وضع أمامه بعض قطع الخبز، وكوبًا من عصير الطماطم الطـازج، وأخذ يراقب بتوترٍ عقـرب الثواني ذا اللون الأحمـر وهو يتجول ببـطءٍ في حركةٍ دائرية عبر سـاعة الحائط، وقال لنفسه بصوتٍ منخفض:

- قريبًا سيصل عدد كبير من هؤلاء الأوغاد.



وبعد أن أنهى عصير الطماطم، توجه إلى باب المنزل الأمامي وخرج إلى الرواق ومنه إلى الحديقة، ثم أخذ يسير بخطواتٍ مرتابة في الممشى الجانبي، ووجد أن السماء على وشك أن تظلم بين لحظةٍ وأخرى، فشعر بقشـــعريرةٍ باردة تسري في جسده، ووجه نظره ناحية شارع (سيمارون) تاركًا النســـيم البارد يحرك خصلات شعره الأشقر الناعم، وفكر في أن الخطر الحقيقي يكمن في الأيام الغائمـــة، فحينها لن تعرف بالتحديد، هل غابت الشـــمس أم أنها ما زالت في كبد السماء؟ أي أنك لن تعرف أبـــدًا الموعد الدقيق لوصولهم، وعلى أي حال فتلك الأيام أفضل حالًا بكثير مـــن الأيام الأخرى اللعينـــة التي تهب فيها العواصـــف الترابية، وتنعدم خلالها الرؤية تمامًا من أول النهار وحتى آخره.

هز كتفيه بعد اكتراث، ثم عاد إلـــى منزله عبر الحديقة وأغلق الباب بإحكامٍ بالأقفال الحديدية، ثـــم حرك قضيبًا من الفولاذ يوجد بالخلف ليزيد من مقاومته لأي محاولةٍ للدخول عنوة، وتوجه إلى المطبخ ثم قام بتقليب شـــريحتي اللحم على الوجه الآخر بحرص، وأطفأ نار الموقد بعد أن نضجت الفاصولياء، وبينما هو يســـكب الطعام في صحنه، نظر فجأة إلى الساعة فوجدها السادسة وخمسٍ وعشرين دقيقة، وكان (بين كورتمان) يصرخ:

- هيا تعالى إلى الخارج يا (نيفيل).

تنهد (روبرت نيفيل) وهو يجلس على كرســـيه قبل أن يبدأ في تناول طعامه.



إنه الآن في غرفة المعيشــة يحاول القراءة، وقد أعد لنفســه مشروبًا بــاردًا مع الصودا التــي يفضلها، وأخذ يقرأ في كتــابٍ طبيٍّ ضخم عن (الفسيولوجيا) وهو علم وظائف الأعضاء عند الإنسان بينما الموسيقى الكلاســيكية تصدح من حوله عبر مكبر الصــوت، وفكر في أن صوت الموســيقى ليس عاليًا بالدرجة المطلوبة، فهو لا يزال يســتطيع سماع أصواتهم العالية بالخارج، نعم إنه يسمع أصوات خطواتهم وزمجرتهم وتذمرهم وصرخاتهم، وكذلــك قتالهم فيما بين بعضهم البعض ونباح عــددٍ من الكلاب، وبيــن الحين والآخر كانت إحــدى النوافذ تصاب بصخرةٍ أو بقطعــة قرميدٍ كبيرة مقذوفة بقوة، فهــم جميعًا هنا من أجل نفس السبب، من أجله هو، هو فقط.

أغلق (روبرت نيفيل) عينيه، وزم شــفتيه، ثم أسرع ليشعل سيجارة ويملأ صــدره ورئتيه بدخانهــا الكثيف، وتمنى لو أنــه يمتلك الوقت الكافي كي يجعل منزله عازلًا للصوت، فمن الرائع جدًّا ألا يستمع إلى أصواتهم المقززة والتي لم يســتطع حتى الآن أن يعتد عليها بالرغم من مرور خمســة شهور كاملة ولا يزال يشعر بتوترٍ وعصبية ما أن تصل إلى مســامعه وكأنه في اليوم الأول، كما أنه لم يعد مهتمًّا أبدًا بالنظر إليهم، ففي البدايات قام بصنع ثقبٍ متوسط الحجم في النافذة الأمامية ليراقبهم مــن خلاله ولكن في إحــدى الليالي لاحظت امــرأة وجوده، فأخذت تصيح بشــدة، وتضرب النافذة لتصل إليه مما أشعره بالخوف والرعب الشديدين، وبعدها أخذت تنزع بعض ملابسها لتغريه عن بعدٍ كي يخرج

من المنزل، ألقى الكتاب عنه، وأخذ يحدق في السجادة بنظراتٍ حزينة وهو يســتمع إلى نوعه المفضل من الموسيقى العالية الصوت، نعم إنه يســتطيع أن يضع سدادات في أذنيه كي لا تصل إليه أصواتهم المحطمة للأعصاب، لكن هذا الأمر لن يجعله يتمكن من الاستمتاع بالموسيقى كما يحب بالإضافة إلى أنه لا يريد أن يشــعر بأنهم أجبروه على الحياة داخل صدفة محكمة الغلق.

أغمض عينيه مــن جديد، وأخذ يفكر في نفــس المرأة التي أرادت إخراجه من المنزل، فبدت له كدمية حقيرة مرعبة، وشــعر بقشعريرةٍ في أطرافه وقرر أن يعود للقراءة وأن يســتمع إلى الموســيقى، ويطرد تلك المرأة من تفكيره بقوة، إنها نفس الأمور التي تتكرر باســتمرار كل ليلة دون توقف.

في أعماق جسده كان يشــعر بحرارة، فزم شفتيه من الألم الذي لن يمكنه مواجهته والذي تزايد شــيئًا فشيئًا حتى لم يعد يستطيع الجلوس أكثر من ذلك، وأخــذ يلكم الحائط بقبضته حتى هــدأ قليلًا بعد دقيقةٍ وشــعر ببعض التحسن، وجعله هذا يفكر في أنه ربما يقوم بتشغيل أحد الأفلام على جهاز العــرض، أو يأكل بعض الحلــوى، أو ربما يتناول الكثير من الشراب، أو حتى يرفع من صوت الموسيقى إلى أقصى درجة حتى وإن تســبب ذلك في ضررٍ لأذنيه، فعليه أن يفعل أي شيءٍ ليحسن من شعوره السيئ بالضيق والألم.

إنه يجد عضلات بطنه تتقلص دون سببٍ واضح وتلتف حول بعضها البعض، فأمسك بكتابه من جديد، وحاول العودة إلى القراءة وكان ينطق كل كلمةٍ ببطءٍ وبصوتٍ مسموع، لكن بعد دقيقة احتضن الكتاب وأخذ يتأمــل المكتبة الضخمة التــي أمامه، وفكر في أن جميــع المعلومات التي تحويهـــا تلك الكتب لا يمكنها أن تطفئ النـــار التي بداخله، وكل الكلمـــات التي قيلت في القرن الماضي بأكملـــه لا تمتلك القدرة على إنهاء حالة الحنين الصامـــت الخانق الذي يعتريه في هذه اللحظة، تلك الحقيقة أشعرته بالغثيان، إنها إهانة كبيرة للبشرية، ولكنها الطبيعة هي ما ســـاقت الأمور إلى هذا الحد الميؤوس منه والذي تم فرضه عليه بالقوة وعليه أن يتعايش معه.

- ألست تملك عقلًا؟

هكذا سأل نفسه، ثم أجاب:

- نعم بالطبع.

- حسنًا عليك أن تستخدمه.

ســـلم أذنيه للموسيقى العالية وأجبر نفســـه على قراءة صفحة كاملة دون توقف، وكان يقرأ عن خلايا الدم والغشاء المحيط بها وعن المواد الليمفاوية التي تتكون من فضلات الجسم، وتسير عبر أنابيب تصل إلى الغدد الليمفاوية، وعن الخلايا المسببة للالتهاب في الأنسجة:

- "كي تفرغ الجســـم من الدم عليك بمنطقة الكتف اليسرى ما بين القفص الصـــدري والعنق، فهنـــاك الأوردة الكبيرة التي تشـــكل جزءًا أساسيًّا من الجهاز الدوري في الجسم."

أغلق الكتاب بصوتٍ مكتوم، وتساءل بغضب:

- لماذا لا يتركني هؤلاء وشأني؟

هل يظنون أن بإمكانهم أن ينالوا مني؟

إنهم في غاية الغباء إن فكروا بتلك الطريقة.

ولماذا لا ينفكوا يأتون ليلة بعد ليلة على الدوام وعلى مدار خمســـة شهور؟

لِمَ لم يشعروا باليأس، ويذهبوا ليكرروا المحاولة في مكانٍ آخر؟

قام وأعد لنفسه كأسًا أخرى من الشراب، وبينما هو عائد إلى كرسيه ســـمع صوت حجرٍ يرتطم بإحدى النوافذ محدثًـــا دويًّا عاليًا ثم صوت حركة بين الشجيرات التي حول منزله، ولكن كان الأعلى من هذا وذاك هو صوت (بين كورتمان) وهو يصرخ:

- هيا اخرج يا (نيفيل).

تناول (نيفيل) جرعة كبيرة من الشراب ذي الطعم المر وهو يتمتم:

- يومًا ما سوف أنال من هذا الوغد.

يومًا ما سوف أدق وتدًا في منتصف صدره الملعون، وسأقوم بصناعة وتدٍ خاص له هو بالتحديد وسيكون طويلًا وحادًّا وسأزينه بشريطٍ مفضض.

في الغد سيتعين عليه أن يعزل البيت كي يصبح مانعًا لدخول الصوت، فهو لن يستطيع أن يقضي كل ليلةٍ في التفكير بتلك النسوة، وربما لو أنه لم يسمع أصواتهن لما فكر فيهن من الأساس.

ضم قبضته بقوةٍ وغضب، وقطب جبينه وهو يقول:

- نعم في الغد يجب أن أفعل ذلك.

في الغد.

في الغد.

توقفت الموسيقى فجأة، فتوجه إلى جهاز التسجيل وجمع الأسطوانات التي بجواره وأعادها إلى أغلفتها.

الأصوات في الخارج بدأت تخفت إلى حدٍّ ما، فأحضر أسطوانة جديدة ووضعها داخل جهاز تشغيل الأسطوانات وجعلها تعمل ورفع الصوت إلى حده الأقصى، فصدحت الموسيقى الصاخبة في المنزل من جديد.

كانت أغنية (عام الطاعون) لـ (روجر لي) واستطاع أن يميز في الموسيقى صوت الكمان وهو يصدح بحزنٍ كامرأةٍ تنتحب، وصوت الجيتار وكأنه دقات قلب شخصٍ يحتضر ببطء، وصوت (الفلوت) وهو يخرج ألحانًا واهنة تثير الشجن ببراعة، فشعر بجسده يتشنج، وأسرع

إلى جهاز التسجيل، ثم انتزع منه الأسطوانة بحركةٍ عنيفة، وأخذ يضرب بها ركبته اليمنى بقوةٍ عدة مرات حتى كسرها إلى قطعٍ صغيرة، لقد كان يتمنى أن يفعل ذلك منذ فترة كلما ســاقه الحظ ليستمع إلى تلك الأغنية بالذات.

توجه إلى المطبخ المطفأ الأنوار، وألقى بقطع الأســطوانة في سلة القمامة، وظل واقفًا في الظلام لفتــرة وعيناه تلمعان من الغضب، وقد ضم شــفتيه وأخذ يضغط عليهما بأســنانه وهو يضع كفيه على جانبي رأسه، ويقول بصوتٍ مرتفع:

- دعوني وشأني أيها الأوغاد.

وظــل يكرر هذه الجملــة كثيرًا وهو على نفــس الوضع وفي نفس المــكان، دون فائدة، فلا يمكنك نهائيًّا أن تنتصــر عليهم في الليل، فلا جدوى من المحاولــة أبدًا، فهذا الوقت بالتحديــد هو وقتهم الخاص الذي يكتسبون من خلاله قوتهم العظيمة التي لا تقهر.

إنــه يتصرف بغباءٍ محكم بســبب الملل، فهل عليه أن يشــاهد أحد الأفلام مثلًا؟

لا، إنــه لا يمتلك الرغبة في ذلك، لــذا توجه إلى غرفة نومه ووضع سدادات بلاستيكية في أذنيه كي يعزل نفسه عن العالم المحيط به، وعلى أي حــالٍ كانت هذه هي النهاية المتوقعــة، فهذا ما يؤول إليه الحال كل ليلة، وكان قراره النهائي بعــدم الانزلاق إلى دوامات التفكير المفرغة، وفي منتصف غرفة النوم قام بنزع ملابســه وارتدى بنطال منامةٍ رمادي

اللون وتوجه إلى الحمام وهو عاري الصدر، فتلك هي عادته منذ زمن، بالتحديد عندما كان مشاركًا في حرب (بنما).. وقف (نيفيل) أمام المرآة وأخذ يتأمل انعكاس صورته عليها وكان صدره مليئًا بالشعر الأشقر الداكن الذي ينحصر مكونًا خطًّا في المنتصف كلما هبط إلى أسفل البطن، وما بين كتفيه من الأمام كان هناك وشم أزرق اللون لصليبٍ كبير حصل عليه أيضًا في (بنما) حيث ذهب لوشم نفسه في إحدى الليالي حيث كان قد أفرط في تناول الشراب حتى ذهب عقله:

- يا إلهي، كم كنت أحمقًا في تلك الفترة.

هكذا همس محدثًا نفسه، ثم فكر بعد ذلك أنه ربما يكون ذلك الوشم هو ما أنقذ حياته حتى هذه اللحظة! وبدأ في تفريش أسنانه جيدًا ولمدة تعدت الخمس دقائق، بعدها قام بتنظيف الفراغات بينها بخيط حرير مُعد خصوصًا لذلك، فهو يولي أسنانه بالذات عناية خاصة كي لا تتحول إلى مصدر ألمٍ وتعاسةٍ بالنسبة له، فهو الآن طبيب نفسه الوحيد، فمهما كانت التصرفات الجامحة التي يقوم بها إلا أنه لم يرغب أبدًا في التهاون من ناحية الاهتمام بصحته، وهذا كان ما يفكر به في هذه اللحظة، لذا سكن فجأة وطرح على نفسه سؤالًا ساخرًا:

- إن كنت تخاف على حياتك بمثل هذه الطريقة، فلماذا لا تتوقف عن تناول تلك الكميات الهائلة من الخمر؟

لماذا لا تغلق جميع أبواب الجحيم المشرعة على مصاريعها؟

وغـــادر الحمام دون أن يحصل على إجابةٍ لســؤاله، ثم أخذ يتجول ســريعًا عبر أروقة المنزل ليغلق جميع الأضواء وبينما هو يفعل وقعت عيناه على اللوحــة الجدارية العملاقة وحاول أن يقنع نفســه بقوة أنها حقيقية وأنه يقف بالفعل أمام المحيط بمياهه الخلابة.

ولكن كيف ســينجح في ذلك مع الشــروخ التي بها؟ والألوان التي أصبحت باهتــة، والعواء المســتمر في الخارج، والزمجــرة المقززة، والصرخات المخيفة، وأصوات التناحر والقتال؟

فهز رأسه بيأسٍ وعاد إلى غرفة النوم، وما أن أصبح الفاصل بينه وبين ســريره أقل من متر حتى أطلق من شفتيه صفيرًا حادًّا يدل على الاستياء الشديد، فالمكان أمامه معبأ بأكمله بالغبار ونشارة الخشب الناتجة عن أعمال الخراطة والصنفرة التي كان يقوم بها في وقتٍ ســابق من اليوم، ثم بعد لحظات الإحباط تلك قام بنفض الســرير وتنظيفه سريعًا، وفكر بأن عليه أن يضع فاصلًا بيــن المكان الذي يعمل به والمكان الذي ينام فيه، هناك الكثير من الأشــياء التي يتعين عليه أن يقوم بها بمفرده، وهذه هي المشــكلة الحقيقية، ثــم أغلق الأضواء في الغرفة، وتســلل داخل سريره وكور جسده تحت الغطاء وهو لا يزال يضع سدادات الأذن التي جعلت الصمت يبتلعه بأكملــه حد الغرق، وقبل أن يغلق عينيه نظر إلى عقارب ســاعته التي تضيء في الظلام، فوجد أنها قد أصبحت العاشرة وخمس دقائق بالضبط، فهو ســيخلد إلى النوم مبكرًا كي يحصل على بدايةٍ مبكرة في الصباح، ووجد نفســه يتقلب في الســرير قبل أن يتمدد

تمامًا ويأخذ شـــهيقًا عميقًا ويطلب من الله أن يأتيه النوم ســـريعًا دون عناء، فالصمـــت بمفرده لم يكن كافيًا في وجود تلك الخيالات اللعينة، فصور الرجال ذوي الوجوه البيضاء القاسية والخالية من الحياة والذين يطوفون بلا يأسٍ حول منزله لا تفارق ذهنه لثانيةٍ واحدة، صورهم وهو يزمجرون بحثًا عن أي وســيلةٍ لاقتحام المنزل، وصورهم وهم متكئون على أوراكهم كما تفعل الكلاب، وصور عيونهم المشـــتعلة كجمراتٍ من الجحيم، وصور أسنانهم التي تصطك ببعضها البعض دون توقف، كل تلك الصور تمد أيديهـــا لتخنقه بلا رحمة، وفجأة قذف بواحدةٍ من الوسادتين اللتين تحت رأسه إلى طرف الغرفة وهو يصرخ:

- متى يأتي النهار؟

يا إلهي، كل ما أرغب فيه الآن هو أن يأتي النهار سريعًا؟

وجاهد كي يغرق في النوم، نجح بالفعل بعد طول عناء، وأخذ يحلم بـــ(فيرجينيا) وكان يبكي أثناء نومه، ويقبض على ملاءة الســـرير بقوةٍ بأصابعه التي أصبحت وكأنها مخالب كلبٍ مسعور.

الفصل الثاني

في تمام الخامسة والنصف صباحًا أصدر جهاز التنبيه صوته ليستيقظ (روبرت نيفيل) الذي مــد يده المخدرة كي يطفئ الصوت المزعج، ثم اعتدل قليلًا في سريره وأشعل سيجارة ليبدأ بها يومه الذي تمتم واصفًا إياه:

- يا له من نهارٍ كئيب!

وبعد عدة أنفاسٍ متتالية من ســيجارته، غادر السرير بل وغرفة النوم كلها إلى الرواق الواصل إلى غرفة المعيشــة المظلمــة، وأزاح الغطاء عن ثقب المراقبة الذي في الباب، فوجد أن الشــمس تبدأ في الشروق وتضــيء المكان بصعوبة في الخــارج، ولمح تماثيــل متحجرة تقف بثباتٍ كجنودٍ أمام قائدهم في كتيبةٍ قتالية، كما شاهد أيضًا البعض منهم يبتعدون مســرعين وهم يزمجرون بغضبٍ ويرغون ويزبدون فيما بينهم وبين بعضهم البعض، إنها ليلة أخرى مرت بســلام، عاد إلى غرفة نومه وأشــعل ضوءها ثم بدل ملابسه وهو يستمع إلى صوت (بين كورتمان) يصرخ به:

- هيا اخرج يا (نيفيل).

واختفى الصوت مـع اختفائهم جميعًا، إنهـم يكونون أضعف في النهار ولكن في الليل هم في غاية القوة، تلك القوة الغاشـمة التي كثيرًا ما يسـتخدمونها فيما بينهم، فتكون النتيجة جثثهم التي تتحول إلى تلك التماثيـل الحجرية، فهم يفتقـرون إلى روح التعـاون، وطريقة الحياة الجماعيـة المترابطة، فشـهواتهم ورغباتهم هي الشـيء الوحيد الذي يحركهم.

بعد أن انتهى من تبديل ملابسـه أمسـك بورقةٍ وقلم، وأخذ يسجل قائمة بالأشياء التي يجب أن يفعلها في هذا النهار:

* إصلاح المخرطة.

* الحصول على كميةٍ مناسبةٍ من المياه.

* تفحص المولد الكهربائي.

* عمل عددٍ من الأوتاد الخشبية.

وأخيرًا الروتين اليومي المعتاد، ذهب ليعد لنفسه فطورًا سريعًا عبارة عن كوب من عصير البرتقال الطازج، وقطعتين من خبز (التوسـت) مع الجبـن فقط لا غير، ثم تناول بعد ذلك كوبين من القهوة وأنهى كل هذا في وقتٍ لا يذكر، فالأكل بسـرعةٍ عادة كثيـرًا ما تمنى أن يغيرها ولكن دون جدوى، حمل الطبق والكوب المصنوعين من البلاستيك، وألقى

بهما في سلة القمامة، توجه إلى الحمام ليفرش أسنانه جيدًا، وقال ساخرًا في محاولةٍ منه لإرضاء نفسه:

- على الأقل أنا أمتلك عادة واحدة جيدة في هذه الحياة.

* * *

وأول ما فعله عندما أصبح خارج المنزل هو أن نظر إلى السماء بتمعن، فوجدها زرقاء صافية وخالية من الغيوم، وهذا يعني أنه سيتمكن من الخروج في هذا النهار:

- حسنًا، هذا أمر جيد.

إنه يحدث نفسه بين والحين والآخر وكأن شخصًا ما بجواره.

بينما هو في الممشى المؤدي إلى المنزل لمح بقايا من الزجاج بالقرب من الباب، إنها تخص المرأة التي لا بد وأنها كُسرت بعد أحداث الأمس، أغضبه ذلك كثيرًا، فهناك أمر جديد تم إضافته إلى قائمة ما سيفعله به اليوم، فعليه تنظيف ذلك الزجاج واستبدال المرآة بواحدةٍ أخرى جديدة بعد أن يحضرها من أي مكان، فهو لم يعد يمتلك أي واحدة.

كانت إحدى الجثث ممددة على جانب الممشى، والثانية ملقاة بين شجيرات الحديقة وقد اختفى نصف جسدها تحت لون الزرع الأخضر، والجثتان لامرأتين، فأثار ذلك استغرابه، وتساءل:

- لماذا دائمًا النساء هن من يُقتلن؟

وتوجه إلى حيث المرأب وأخرج سـيارته وتفقدها جيدًا، ثم حركها إلى الخارج، وغادرها وهو يرتدي قفازًا سميكًا، ثم سار ناحية الجثة التي في الممر وعبر من فوقها متخطيًا الجسـد المتحجر إلى الجثة الأخرى وجرها وهو يشعر باشـمئزازٍ شـديد ثم وضعها في كيسٍ من القماش المقوى وكذلك فعل بالجثة الأخرى، وكان لون جلد الجثتين يشبه لون قشور السمك الميت، فلم يكن في أعماقهما قطرة دماءٍ واحدة، ثم حشر مع الجثتين بعض الحجارة الثقيلة، وألقى بالكيس الضخم في صندوق السـيارة، وأغلق باب المرأب بإحكامٍ ثم نزع القفازين وعاد إلى داخل المنزل ليغسـل يديه ويطهرهما بسائلٍ معقم، وأخيرًا ذهب إلى المطبخ ليعد الغداء الذي سيأخذه معه، وكان عبارة عن شطيرتين وبعض الكعك وإناءٍ حراريٍّ ممتلئٍ عن آخره بالقهوة الساخنة.

ومـن المطبخ إلى غرفـة النوم حيث أخذ الحقيبـة الجلدية المليئة بالأوتاد وعلقها بطريقةٍ مستعرضة خلف ظهره، ثم ثبت جراب مسدسه في خصره وكذلك مطرقة حديدية متوسـطة الحجـم ثم غادر المنزل، وتأكد من أن الباب قد أوصد بطريقةٍ محكمة.

لن يكلف نفسـه عناء البحث عن (بيـن كورتمان) في هذا الصباح، فهناك الكثير من الأشياء الأخرى التي ينبغي عليه القيام بها، ولثوانٍ فكر في إمكانية عزل جدران المنزل كي لا تنقل الأصوات وكيف سـيمكنه القيام بها وأنها ستستهلك الكثير من الوقت والمجهود، لذا من الأفضل تأجيلها إلى أحد الأيام الغائمة حيث لن تكون هناك شـمس سـاطعة،

فحينها سـيتعين عليه في جميع الأحوال البقاء بالمنزل، دخل سـيارته وقبل أن ينطلق تفقد قائمة الأمور التي سـيقوم بهـا اليوم، وبعدها بدأ القيادة مسـرعًا في الشـارع المقابل لبيته متوجهًا إلى جادة (كومبتون) وانعطف يمينًا ثم أخذ الطريق الشـرقي، وعلى الجانبين كانت البيوت تقف بصمت وكذلك السـيارات بلا حركة وكأنها مقيدة أو ميتة، وبينما (روبرت نيفيل) يقود بطريقته السـريعة المتهورة ألقى نظرة خاطفة على مؤشر مقياس الوقود، فوجده تحت علامة المنتصف بقليل، وهذا يعني أن عليه التوجه إلى محطة وقود (ويسترن أفينيو) ليملأها، فهو لا يستخدم الوقود الذي يخبئه في المرأب إلا فـي الحالات الطارئة فقط، لم يطل الوقـت حتى وصل إلى المحطة، ومن هناك أخرج برميلًا معبأً بالوقود، وصب منه في خزان سيارته حتى امتلأ عن آخره بل وفاض وتساقط منه على الإسفلت المتشقق، وأخذ يتفحص مستوى زيت الموتور، وزيت المكابح، وماء البطارية المقطر، والهواء بداخل الإطارات، وكانت كل تلك الأشـياء على ما يرام كما هي العادة، فهو يجيد الاعتناء بسـيارته كثيرًا، فإن أصابها عطل ما أو حلت بها مشكلة، فهذا يعني أنه لن يتمكن أبدًا من العودة إلى البيت قبل حلول الظلام، أي أنه سـيفقد حياته على الفور وبمنتهى السهولة والبساطة.

- هل يجب أن أقلق إن حدث هذا الأمر؟

أليست تلك هي النهاية التي أعرفها جيدًا وأنتظرها في أي لحظة؟

كالعادة أخذ يحدث نفسه.

أكمل طريقه تاركًا محطة الوقود خلفه، وأخذ يقود وســط الشوارع المكســوة بالصمت والســكون، والخالية تمامًا من أي شيءٍ على قيد الحياة حتى بدأت تظهر أبراج جادة (كومبتون) العالية حتى هُم لم يكن لهم وجود، ولكنه يعرف بالتحديد أماكن تواجدهم في هذه اللحظة.

أصبح الآن على مقربةٍ من ألســنة اللهب، فأوقف سيارته في المكان الذي دائمًا ما يوقفهــا به، وقبل أن يغادرها ارتدى قفازيه الســميكين، ووضع قناع الغاز الذي يخفي رأســه بالكامل ووجهه، وأخذ يحدق في الحريق المشتعل عبر زجاج القناع.

كانت النيران تتصاعد من حفرةٍ ضخمة منذ شــهر يونيو عام 1975، وقفز بتهورٍ من الســيارة، فهــو يريد أن ينتهي من هــذا العمل البغيض بأقصى سرعة لذا سحب الكيس الضخم الذي يحتوي على بقايا الجثتين وجره باشمئزازٍ إلى طرف الحفرة، وألقاه في النار المستعرة بينما تراجع خطوتين إلى الخلف، وأخذ يتأمل الأجســاد وهي تتدحرج على حافة الجرف حتى وصلت إلى القاع واستقرت بين الرماد المحترق، والتفت عائدًا إلى السيارة وهو يشــعر باختناقٍ وكأن يدًا من حديد تكتم أنفاسه بقوة، فنزع القفازين والقناع، وألقى بهم في الخلف ثم أخذ نفسًا عميقًا من أنفه وفمه وملأ به صدره، انطلق مســرعًا بالسيارة، ثم التقط قارورة مــن صندوقٍ بجواره وأخــذ يتناول جرعات كبيرة من الشــراب الذي كان يشــعر بحرارته وهو يبتلعه، وأشعل بعد ذلك سيجارة، فهذا الجزء

بالذات من العمل يجعله يشـــعر بأنه ليس بخير أبدًا، وكم يكره القيام به ويكره أنه مجبر على فعله كل يوم لشهورٍ متواصلة.

في مكانٍ ما بالأسفل توجد (كاثي).

* * *

خطوته التالية ستكون إلى (إنجلوود) ليحصل على زجاجات المياه مـــن أحد المتاجر الكبيرة، وها هو يصل إلـــى هناك، وما أن وضع أولى خطواته داخل المكان حتى قابلته رائحة الطعام الفاسد والمتعفن وملأت أنفه حتى أنه ســـعل بقوة، فأسرع ليدفع أمامه عربة تسوق معدنية مخترقًا الصمت ورائحة العفن البشعة، وقد أخذ يضغط على أسنانه وهو يتنفس من فمه وليس من أنفه تفاديًا لتلك الرائحة الخانقة، لم يطل بحثه كثيرًا، فزجاجات المياه توجد في القسم الخلفي من المتجر، وهناك أيضًا عثر على بابٍ له درج معلق يقود إلى الأعلى، وبعد أن ملأ عربة التسوق بما يريد، قرر أن يصعد إلى الأعلى، فهناك على أغلب الظن ســـيجد سكن صاحب المتجـــر، صعد بالفعل، ووجد اثنين منهمـــا؛ الأولى في غرفة المعيشة وكانت سيدة في الثلاثين من عمرها تجلس على الأريكة وهي ترتدي فســـتانًا أحمر اللون، وصدرها يتحرك ببطءٍ شـــديد إلى الأعلى ثم إلى الأســـفل وعيناها مغلقتان ويداها متشـــابكتان عند أسفل بطنها، فتحسس (روبرت نيفيل) حقيبة الأوتاد والمطرقة على الفور.

إنه شعور صعب عندما يضطر إلى أن يفعل ذلك وهم على قيد الحياة خاصة مع النســـاء، وبدأ ذلك التفكير اللعين اللاعقلاني يعبث في رأسه

ويجعله يشعر برجفةٍ تسري في أوصاله، إنه جنون مطبق ولا يوجد له أي تفســيرٍ منطقي أو سببٍ مقبول لكن عليه أن يفعله، وبالفعل غرس الوتد حتى آخره في قلبها، فصدرت عنها حشرجة خشنة مكتومة تشبه صهيل الخيول المريضة، وأســرع إلى غرفة النوم حيث كانت الســيدة الثانية ممددة على السرير، ففعل نفس الشيء وهو يتساءل بألم:

- لماذا كلهن يشبهن (كاثي) دائمًا؟

لماذا؟

وغادر المكان وصوت أجش يشــبه صوت خريــر المياه يصل إلى أذنيه، وعاد ليسأل نفسه:

- ماذا يمكنني أن أفعل غير هذا؟

فإن لم أقتل أكبر عددٍ منهم، سيقتلونني هم بلا شك.

وانطلق بسيارته في نفس الشوارع محاولًا أن يزيح عن ذاكرته ما قام به للتو عبر التفكير في سر تأثير الأوتاد الخشبية عليهم! فلا شيء يقتلهم إلا غــرس تلك الأوتاد بالــذات في صدورهــم وبالتحديد في القلب، وعبس وهو يحاول أن يجد تحليــلًا منطقيًّا لهذا الأمر حتى تعجب من نفسه كثيرًا، فبالرغم من عدم حصوله على أية معلومات تشريحية إلا أنه في كل مرة كان يصيب منتصف القلب بالتحديد وبدون أي نســبة خطأ، وأشــعره ذلك بالغثيان من جديد، لكنه استمر في القيادة ولا شيء يشق الصمت الرهيب إلا صوت موتور الســيارة التــي صمدت معه بجدارة طوال خمسة شهور:

- إنه أمر عجيب بحق.

قالها وهو عاقد حاجبيه بعد أن سلم بأن عليه إن أراد الحياة أن يستمر فـي القيام بما يفعله يومًـا بعد يوم دون طرح أية أسـئلة أو البحث عن إجاباتٍ منطقية لها، لكنه أسرع ليهز رأسه نافيًا، ثم قال بصوتٍ مرتفع:

- لا، بالطبـع يجب أن أفكر بطريقةٍ عقلانية، ويجب أن أسـتمر في طرح الأسئلة، كما يجب أن أجمعها كلها قبل أن أبحث لها عن إجاباتٍ حقيقية، فالأشياء يجب أن تنجز بالطريقة العلمية الصحيحة، نعم يجب أن أفعل كل ذلك.

إنه لـن يتبع طريقة والده السـطحية، فهو يكرهه ويحتقر أسـلوب تفكيره، فقد عاش ينكر وجود مصاصي الدمـاء وفي النهاية مات على يد أحدهم.

وبعـد القليل من الوقت وصل إلى محطتـه التالية، وبالفعل حصل علـى مخرطة جديدة ووضعهـا في صندوق السـيارة الخلفي، ثم عاد ليفتش المتاجر، فوجد خمسـة منهم يختبئون بين الظلال المظلمة بينما شـاهد أحدهم ينام في ثلاجة العرض الخاصة بالمشروبات الغازية مما أشعره برغبةٍ في الضحك، فهذا المكان مناسب جدًّا للنوم.

***

قرابة الساعة الثانية من بعد الظهر أوقف سيارته لتناول الغداء، ووجد كل شيءٍ له طعم الثوم المقزز ورائحته النفاذة، وجعله هذا يتساءل للمرة الألف عن سبب تأثير الثوم عليهم:

- هل رائحته المميزة هي السبب؟

ولكن لماذا؟

وكل تلك الأشـــياء الغريبة التي تؤثر عليهم كيف يمكن تفســـيرها! فهم لا يتجولون إلا ليلًا، ويتجنبون رائحة الثوم، ولا يموتون إلا بغرس الأوتاد الخشبية بالتحديد في صدورهم، وشائعات خوفهم من الصلبان، وعدم اقترابهم من المرايا، فكذلك تقول الأساطير بأنهم لا يظهرون في المرايـا لكنه يعلم عـن تجربة أن هذا الأمر بالـذات غير صحيح، وأما حقيقة تحولهم إلى خفافيش، فهي خرافة سـخيفة جدًّا أو قدرتهم على أن يصبحوا ذئابًا، هذه أيضًا فكرة مضحكة وليسـت حقيقية إلا أنه رأى بعينيـه كلابًا قد تحولت إلى مصاصي دمـاء وليس العكس، فهو يراهم ويسمع عواءهم ونباحهم أمام منزله كل ليلة.

- فلتنســى كل هذا، فأنت لست مسـتعدًّا بعد وربما سيحين الوقت لاحقًا، وأما الآن فعليك أن تقلق بشأن أشياءٍ كثيرة أخرى.

هكذا حدث نفسه وهو يأخذ نفسًا عميقًا.

وبعد أن أنهى طعامه أخذ يتنقل من منزلٍ إلى منزلٍ آخر، ويقوم بقتل كل من يراه منهم على قيد الحياة في حالة ثبات حتى فرغت جميع أوتاده الخشبية السبعة وأربعين.

الفصل الثالث

- "قوة مصاصي الدماء تكمن في أنه لا أحد سيؤمن بوجودهم."

شكرًا دكتور (فان هيلسينج).

هكذا قال (روبرت نيفيل) وهو يضع جانبًا نسـخة من كتاب الرجل (دراكـولا) ثم وقف يحدق في المكتبة الخاصـة به بمزاجٍ متقلب وهو يسـتمع إلى مقطوعة كونشرتو البيانو لـ (برامز) وفي يده اليمنى كأس من الشـراب البارد المر، وبين شـفتيه سيجارة مشـتعلة، إنها حقيقة، فالكتـاب مليء بخليطٍ من الخرافات والأسـاطير والصـور الخيالية، ولكن تلك الجملة بالذات كانـت صحيحة، فلا أحد يؤمن بهم وكيف لشخصٍ ما أن يقاتل شيئًا لا يؤمن به؟

فالوضع كان عبارة عن هياكل سـوداء تظهـر ليلًا وتأتي زحفًا وهي تتصادم وتتناحر، هياكل دون إطارٍ خارجيٍّ محدد، وكأنهم أشـباه بشر يتصفون بالسذاجة الشديدة والعنف المفرط.

مصاصو الدماء جنـس عتيق يتحدثون عنه في كتب الأدب والخيال منذ زمنٍ طويل، مرات بطريقةٍ سخيفة ومرة أخرى بجدية، فهم أسطورة لم يتمكن أحد من إثباتها وظلت تنتقل من جيلٍ إلى جيل، ومن قرنٍ إلى القرن الذي يليه.

- والآن هم حقيقة وواقع لا يمكن إنكاره.

هكذا حدث (نيفيل) نفسه وهو يرتشف القليل من مشروبه المفضل وبينما السائل البارد يعبر إلى أعماقه ليشعره بالدفء، أغمض عينيه وأكمل:

- حقيقة لم يرها أحد من قبل، فما أن أوشك العلم أن يرصد الأسطورة وهي تصبح واقعًا حتى ابتلعته الأسطورة وابتلعت معه عالمًا بأكمله.

لم يقم اليوم بصنع أي أوتادٍ خشبية، ولم يذهب لتفحص المولد، ولم ينظف بقايا الزجاج المحطم، ولم يتناول العشاء فهو فاقد للشهية وهذا ليس بالأمر الغريب عليه، ففي أغلب الأوقات لا يجد بداخله شهية للأكل.

اليوم لم يقم بأيٍّ من الأشياء التي دائمًا ما يفعلها عندما يعود إلى منزله بل ظل يفكر طوال الوقت حتى أنه كان على يقينٍ أخيرًا بأنه حصل على وجبةٍ دسمة من المشاعر والأحاسيس، لم يحصل عليها منذ شهورٍ ماضية.

بدأ يشعر بدوارٍ شديد، فأغمض عينيه لبعض الوقت، ثم فجأة قذف الكتاب الذي في يده بقوةٍ وعنف، وصرخ:

- كل هذا تلفيق، كله هراء ومجموعة من السخافات الكئيبة.

ثم أخذ يسعل بقوةٍ، وبدون مقدمات تحول سعاله إلى ضحكاتٍ مكتومة، وهنا وصل إليه صوت (بين كورتمان) وهو يصرخ:

- هيا تعال إلى الخارج.

فأجابه:

- حســنًا يا (بين).. سوف أخرج إليك ما أن أحصل على بذلة سهرة أنيقة.

ثم أخذ جسده يرتجف بغضبٍ وهو يصيح:

- نعم، لمَ لا؟

لمَ لا أذهب إلى الخارج؟!

أعتقد أن هذه هي الطريقة الوحيدة كي أتحرر منهم، بأن أكون مثلهم وواحد منهم.

شــعر بالذهول من بســاطة الحل، فتحرك بصعوبةٍ وبخطواتٍ غير منتظمة ليحصل على المزيد من الشراب، وأخذ يتمتم طوال الطريق:

- نعم، لمَ لا؟!

لماذا أخوض كل هذا الصراع المنهك في حين أن الخلاص من كل هذا العذاب على بعد عدة خطواتٍ مني؟

فكر بتمهلٍ بأن مســار حياته الباهت والممل يشبه كثيرًا الطريقة التي يعيشــون بها، فلمَ لا ينضم إليهم؟! فربما تحولهم الحياة جميعًا يومًا ما إلى نوعٍ جديد من المخلوقات كما فعلت مرة من قبل.

ثم اســتهجن كل تلك الأفكار المجنونة، وصب لنفســه المزيد من المشــروب واتجه بأفكاره إلى ناحيةٍ أخرى، فهو قــد ضاق ذرعًا بكل تلك التحصينات واحتياطات الأمن التي تشــعره بأنه قد أصبح ســجينًا بداخلها، فهو محــاط بقلائد الثوم من كل مكان، وتوجد شــبكة عالية

حـــول منزله مـــن الخلف، ويقوم بإحـــراق الجثث باســـتمرار، وجمع الصخور التي يحضرونها معهم ليقذفـــوه بها وأخذها بعيدًا عن المنزل يوميًّا في الصباح، والتجول في النهار لغرس الأوتاد الخشبية في قلوب الأحياء منهم، وبالرغم من كل ذلك فإن أعدادهم لا تتناقص أبدًا.

ثم وجه إلى نفسه سؤالًا لم يجد له جوابًا:

- لماذا لا يمكنني العثور على شخصٍ بشريٍّ مثلي؟

ألقى بجسده على الكرسي والتصق به كحشرة بقٍّ عنيدة فوق سجادةٍ وثيرة، ثم عاد للحديث قائلًا بسخرية:

- ما الذي يمكن لرجلٍ محاط بكتيبةٍ من مصاصي الدماء العطشـــى لعدم الإبقاء على ذرة (هيموجلوبين) واحدة داخل أوردته، أن يفعل غير تناول كميةٍ كبيرة من الشراب كي يغيب عن هذا الواقع المؤلم؟

ثم أصبحت نبراته أكثر حدة، واكتســـبت ملامح وجهه كمًّا هائلًا من الكراهية وهو يكمل:

- أيها الأوغاد، تبًّـــا لكم، فلتذهب أمهاتكم إلى الجحيم واحدة بعد أخرى، وعندما يحدث ذلك فربما سأستسلم حينها.

كان يتحـــدث وهو يضغـــط لا إراديًّا بقوةٍ شـــديدة بأصابع يده على الكوب الذي يمســـك به، فلم يشعر إلا وهو ينكســـر إلى قطعٍ زجاجية مســـننة دخل بعضها في قبضتـــه، فنظر ببرودٍ وكأنه جســـد خالٍ من أي شـــعورٍ إلى بقية القطع المتناثـــرة على الأرض وإلى تلـــك التي ظلت مغروســـة حتى منتصفها في أصابعه، وشـــاهد دماءه المخففة بالشراب

وهي تتقاطر من باطن يده، ففكر على الفور أنهم ربما سيعجبهم للغاية هذا المذاق المميز.

نهض محاولًا أن يحافظ على توازنه إلا أنه أخذ يسير وهو يتمايل والغضب يظهر بوضوحٍ على ملامح وجهه حتى وصل إلى باب منزله، ففتحه ولوح لهم في الخارج بيده الغارقة في الدماء، فاستمع بوضوحٍ إلى زمجرتهم وعوائهم العالي، وشعر بقشعريرةٍ ورجفةٍ جعلته يغلق الباب سريعًا ويغمض عينيه، ويتمتم محدثًا نفسه:

- تحلى بالحكمة يا صديقي، وهيا اذهب لتضمد يدك اللعينة.

وبالفعل بدأ يسير بخطواتٍ متعثرة إلى الحمام، غسل يده جيدًا مزيلًا بقايا الزجاج من عليها، ثم رش على الجرح العميق أحد أنواع المطهر، فشعر وكأن كفه تشتعل وجعله ذلك يتأوه بصوتٍ واضح، وأخيرًا أخذ يلف رسغه ويده بأحد أربطة (الشاش) الطبي وكان صدره يتحرك إلى الأعلى وإلى الأسفل مع حركة أنفاسه القوية بينما العرق يتصبب من جبينه بغزارة، فقال بنبراتٍ واهنة:

- أنا أحتاج إلى سيجارة الآن.

وعاد إلى غرفة المعيشة حيث استبدل أسطوانة (برامز) بواحدةٍ أخرى، ثم أشعل سيجارته وهو يستمع إلى الموسيقى مراقبًا دوائر الدخان الأزرق التي تتصاعد من طرف سيجارته، والتي يتسع قطرها كلما ارتفعت أكثر، ثم سأل نفسه:

- وماذا سيحدث إن نفدت مني تلك الأشياء القاتلة؟

لــم يكن هناك فرصة حقيقية لحدوث هذا، فهو يمتلك الآلاف منهم في خزانة (كاثي) بالتحديد في ثلاجة حفظ اللحوم، وكان كلامه ينصب على السجائر.

أخذ (نيفيل) يحدق في اللوحة الجدارية بينما مقطوعة (عصر القلق) تملأ الغرفة من حوله وتخترق أذنيه، فردد بصمت:

- "عصر القلق!"

هل ظن أحد من قبل أنه عرف المعنى الحقيقي للقلق؟

يجب أن تقابلوا الجثث في كل مكانٍ وفي كل وقت، وترون أطفالكم وهو يتحولون إلــى مصاصي دمــاءٍ أمام أعينكم، وتصبــح أرواحكم محاصرة عندما يحل المساء كي تعرفوا معنى القلق.

وصب لنفسه كأسًا جديدة من الشــراب، فشعر بألمٍ لا يحتمل وهو يمسك الزجاجة بيده المصابة، فأسرع بوضعها على الطاولة وأمسك بها بيده الأخرى، وبدأ يرتشــف ببطءٍ جرعات من الخمر قاصدًا أن يتخلى عن آخر ما تبقى له من وعيٍ ورصانة، وقال:

- فليذهب الاتزان إلى الجحيــم، وتبًّا لزوايا التفكير الواضحة، فما أروع أن تكون متبلد الشعور وتفقد بوصلتك التي تقودك إلى الصواب.

شــعر أن الغرفــة تدور به وهو يجلس على كرســيه فــي منتصفها، وتحولت رؤيته إلى ما يشــبه الضباب، وأصبح يشعر أنه محاط بالغيوم، وأخذ يحرك رأسه مع نغمات الموسيقى، ثم نهض بصعوبةٍ وهو يكمل قائلًا:

- إنهم في الخارج الآن يطوفــون ويصرخون وينتظرون، يا لهم من مســاكين! بالفعل هم مســاكين يقضون الليل في التجول خلسة حول منزلي، وقد أصيبوا بلعنةٍ جعلتهم يشعرون بظمأٍ دائمٍ للدماء.

ثم أخذ يلوح بيده المصابة وهو يقول:

- يا أصدقائي، أنــا أمامكم الليلة لأناقش قضيــة مصاصي الدماء، فهــم دائمًا مضطهدون، نعم هذا هو مفتاح القضية، إنه الأســاس الذي بُني عليه كل شيء، الاضطهاد بسبب الخوف مما جعلنا نحتقرهم وننظر إليهم بدونيةٍ لأننا نخشى مواجهة قوتهم.

ثم صب لنفسه الكثير من الشراب هذه المرة، واستطرد:

- قديمًا في العصور الوسطى، كان لأي مصاص دماء قدرات خارقة وقوة هائلة جعلتنا نخاف منهم دون تفكيــرٍ منطقي، ونمت في أعماقنا أســطورة اللعنة التي أصابتهم فازداد كره المجتمع لهم بلا ســبب، ولم نســأل أنفسنا يومًا، هل رغباتهم المروعة تختلف كثيرًا عن رغباتنا نحن أو رغبات أي حيوان؟

هل رغباتهم شائنة بنفس درجة رغبات الأب والأم اللذين يستنزفان روح طفلهما الصغير؟

نعم مصاص الدماء قد يثير الفزع بمنظره البشــع، ولكن هل هو أكثر بشــاعة من أبٍ يمنح المجتمع طفلًا مريضًا عصبيًّا ليصبح يومًا ما أحد السياسيين أو الحكام؟

هل هو أسوأ من شـــركة تستثمر الأموال الطائلة في صناعة الأسلحة والقنابل التي يتقاتل بها البشر مع بعضهم البعض؟

هل هو قذر كناشــرٍ يصب التفاهات في رؤوس الشعوب كي تصبح أكثر سذاجة وغباء؟

هل هو في نفس بشـــاعة من يحولون الحبوب والفواكه إلى شرابٍ يغيب العقول ويسبب السكر؟

ثم ضحك عند هذه الجملة، وقال بسخرية:

- عفوًا، وأعتذر بشدة.

فها هي كأس الخمر في يدي، وها أنا ذا غائب عن الوعي.

عفوًا لا أظن أبدًا أن مصاص الدماء بمثل هذا الســـوء، فكل ما يفعله هـــو أنه يتغذى على الدم، فلمـــاذا إذًا هذا التحيز القاســـي ضد نزعتهم الغريبة؟

لماذا لا يعيش كل مصاص دماء في المكان الذي يختاره بنفسه؟

ولماذا عليه دائمًا أن يبحث عن مخبأٍ سريٍّ يختفي فيه بعيدًا حيث لا يمكن لأحدٍ العثور عليه؟

لماذا نتمنى لهم الموت والزوال والتدمير؟

لماذا حوَّلنا هذا الكائن الساذج إلى حيوانٍ متوحش؟

فهـــو لم يحصل علـــى أي دعمٍ، ولا على أي قدرٍ مـــن التعليم، ولم يكن له أبدًا حق التصويت في الانتخابات، فلا عجب في أنه مجبر على التصرف بتلك الطريقة ليلًا كي يحافظ على وجوده.

ثم عبس بغضبٍ وهو يتساءل:

- هل كنت ستوافق على أن تتزوج شقيقتك واحدًا منهم؟

استهجن الفكرة وقال مخاطبًا نفسه كأنها شخص آخر:

- لقد تمكنت مني يا صديقي.

وفي تلك اللحظة توقفت الموسيقى وأخذت إبرة جهاز التسجيل تدور على وجه الأسطوانة مصدرة صوتًا مزعجًا بينما ظل جالسًا في مكانه وقشعريرة باردة تسري في ساقيه، وفكر أن أسوأ ما في تناول الكثير من الشراب كل ليلة هو أن الشخص يفقد الشعور بمتعة السكر تدريجيًّا، فقبل أن تحصل على السعادة التي تنشدها تجد نفسك قد فقدت الوعي، وكانت الغرفة تدور به بينما صوت في الخارج يخترق طبلتي أذنيه:

- تعال إلى الخارج يا (نيفيل).

فزفر الهواء بقوةٍ من صدره، لقد كان صوت الكثير من النساء أمام منزله يقومن بالنداء عليه وقد فتحن أزرار قمصانهن ليخبرنه بأن أجسادهن تحتاج إلى لمساته، ولكن في المقابل أيضًا فإن شفاههن تحتاج إلى الكثير من دمائه.

تجاهل الأصوات، وأخذ يتأمل يده وهو يحركها فوق ساقه وكأنها يد رجلٍ آخر وقد جعله الألم يشعر بالاختناق من الهواء المكتوم بالمنزل ومن رائحة الثوم بالتحديد، فتلك الرائحة دون مبالغة أصبحت في كل مكان؛ في ملابسه، وفي الأثاث، وفي طعامه، وفي الشراب الذي يتناوله الآن، وحاول أن يمازح نفسه قائلًا:

- هل جربت الثوم بالصودا من قبل؟

وشعر بسخافة ما قاله، فنهض وهو يتمايل موجهًا سؤالًا آخر:

- ما الذي سأفعله الآن؟

هل سأعود إلى نفس الروتين السخيف؛ القراءة أو الأكل أو محاولة النوم، التفكير في عزل المنزل أو مراقبة تلك الكائنات العطشى للدماء في الخارج، ومشاهدة النساء وهن يغوينني ويطلبن مني الخروج إليهن؟

حسنًا أيها الحمقى، أنا قادم.

وتوجه بخطواتٍ مرتعشة وعقلٍ غيبته الخمر إلى باب المنزل وأزاح العارضة الحديدية التي يضعها خلفه، وأصبح في الخارج بالفعل، لكنه أسرع بالعودة ما أن استمع إلى عوائهم وصرخاتهم وهم يتجهون نحوه، فأحكم إغلاق الباب ووضع العارضة في مكانها، ثم أخذ يوجه لكماتٍ قوية إلى الحائط المجاور للمدخل حتى أنه جرح يده ولوثت دماؤه الدهان، وحينها تجمد في مكانه، لا حول له ولا قوة وجسده يرتجف بشدة، وأسنانه تصطك من الخوف.

وبعد فترةٍ ليست بالقصيرة من التفكير، تمكن من السيطرة على انفعاله، وتوجه إلى غرفة النوم، وانسل في السرير ببطءٍ، ووضع الوسادة على رأسه ليكتم بها أنينه الذي عبر به عن مدى الشعور بالألم الذي يحتل كل منطقةٍ في جسده.

وأخذ يتمتم:

- يا إلهي؛ إلى متى؟

إلى متى؟

الفصل الرابع

لم يصدر أي صوتٍ من جهاز التنبيه كي يســتيقظ عليه في الصباح، فهو بالأصل لم يقم بضبطه على وقتٍ محدد بعد أن غرق في النوم فجأة وبلا مقدمات، وظل طوال الليل ســاكن الجسد دون حراك وكأنه قطعة من الحديد الملقــاة بإهمالٍ على أحد جانبي الطريق، وعندما فتح عينيه أخيرًا، كانت الساعة في تمام العاشرة صباحًا تقريبًا.

فتحرك بصعوبةٍ حتى جلس على حافة الســرير وهو يتمتم بكلماتٍ غاضبة غير مفهومة، وعلى الفور شعر بنبضاتٍ شديدة في أعماق رأسه وكأن عقله يجاهد كي يتحرر من محبسه داخل عظام جمجمته، وكل هذا بسبب كميات الشراب الكبيرة التي تجرعها بالأمس، وأجبر نفسه على الذهاب إلى الحمام وهو يتأوه من شــدة الصداع، أخذ يسير بخطواتٍ متعثرة، فهو لم يســتعد كامل اتزانه بعد، وعلى الفور وضع رأسه تحت المياه المتدفقة وهو يقاوم الشــعور بأنه ليس علــى ما يرام، وفي المرآة شــاهد وجهه هزيلًا ولحيته نامية بإهمالٍ وملامحه متعبة كملامح رجلٍ في أواخر الأربعينات من عمره.

- أين التأثير السحري الذي كنت أمتلكه؟

هكذا تساءل بسخرية، قبل أن يغادر بخطواتٍ بطيئة إلى غرفة المعيشة ليفتح باب المنزل الأمامي، وحينها صدرت منه صرخة مكتومة بطريقةٍ عفوية لم يتعمدها:

- اللعنة؛ ما هذا؟

فقد كانت هناك امرأة متكومة تحتضر وينتفض جسدها في منتصف الطريق المقابل لحديقة المنزل، فجعله هذا المشهد يستشيط غضبًا وزاد من النبضات التي تضغط على رأسه، فأخذ نفسًا عميقًا، وقال:

- نعم أنا مريض.

لاحظ على الفور أن السماء رمادية ولها طابع كئيب وكأنها في حالة حداد، فتمتم:

- عظيم؛ نهار آخر سأقضيه في جحر الفئران هذا.

ثم صفق الباب خلفه بقوة مما جعله يشعر بألمٍ حادٍّ في رأسه من شدة الصوت، فأصدر أنينًا خافتًا، ولم يمر سوى جزء من الثانية حتى وصل إلى مسمعه صوت عددٍ من المرايا التي كان يعلقها في الخارج وهي تسقط على الممر الإسمنتي وتتحطم إلى شظايا متناثرة من أثر غلقه لباب المنزل بمثل تلك الطريقة الحمقاء، فمط شفتيه بلا مبالاة، وتوجه إلى المطبخ، وأعد لنفسه كوبًا من القهوة السوداء الخالية من السكر وأتبعه بكوبٍ آخر مما جعل معدته تتأذى، واستمر في قطع الممر من المطبخ إلى غرفة المعيشة عدة مرات وهو يشعر بالملل حتى قال لنفسه بحنق:



- لا بديل سوى المزيد من الشراب.

وبالفعـــل صب لنفســـه بعض الخمر التـــي كان مذاقهـــا ثقيلًا ومرًّا ولاذعًا، كأنه زيت محرك ســـيارات تم استخراجه من موتور معطوب، فأزاح الكوب بعنفٍ ليســـقط من على الطاولة مفرغًا الســـائل الأصفر الذي بداخله على السجادة، فأخذ يزفر غاضبًا والأنفاس تخرج من أنفه وكأنها طلقات نارية.

أعاد ظهره إلى الخلف واســـترخى في جلسته على الأريكة الوثيرة، وفكر في أعماقه:

- لا فائـــدة، حقًّا لا فائدة، فهؤلاء الأوغاد الســـود قـــد تمكنوا من هزيمتي.

وعاد ليتملكه شـــعور باليأس والقلق وعدم الراحـــة، فقد كان يرى أن منزلـــه يضيق عليه تدريجيًّا بينما هو يتمـــدد ويزداد في الحجم نتيجة الأحاسيس السيئة التي تكبر في أعماقه مما سوف يؤدي في نهاية الأمر أن يخنقـــه المكان فينفجر كقنبلةٍ مضغوطة ويحطـــم النوافذ والجدران والأبواب، فأسرع إلى الخارج ليفر من الجنون الذي يتلاعب به، ووقف على الأعشـــاب، وأخذ يتنفس بعمقٍ وقوةٍ ليمـــلأ صدره بهواء الصباح المبلـــل بقطرات الندى، وحول نظره عن منزله الذي بدأ يكرهه، وما أن شـــاهد المنازل الأخرى التي تحيط به حتى اكتشف أنه يكرههم جميعًا أيضًا، ويكره الرصيف المحيـــط بالطريق، كما يكره الممرات الجانبية،

والحدائق بين البيوت، إنه في حقيقة الأمر أصبح يكره كل شيءٍ هنا في شارع (سيمارون).

أصبحت المشــكلة تتصاعد في أعماقه رغمًا عنــه، وعليه أن يغادر إلى الخارج لبعض الوقت، لا يعنيه إن كان الطقس لا يساعد، ولا تعنيه الســماء الغائمة، كما لا يعنيه أن ما ســيفعله خطير جــدًّا، فأغلق منزله وتوجه إلى المرأب ورفع بابه الســميك الــذي يتحرك على مفصلات قوية وأخرج السيارة وانطلق بها دون أن يغلق باب المرأب خلفه، وقال لنفسه:

- فليبــق كما هو، فأنا لن أتأخر كثيرًا فقط ســأذهب في جولةٍ حول الأحياء المجاورة.

وضغط بقوةٍ على (دواســة) البنزين ليزيد من سرعة سيارته متوجهًا ناحية جادة (كومبتون) دون أن يعرف إلى أين يجب أن يذهب.

كان يسير على سرعة أربعين ميلًا في الساعة، فزادها فجأة إلى خمسةٍ وستين، وما أن غادر الحي حتى ضغط أكثر بقدمه على (دواسة) البنزين، فشعر بالسيارة وكأنها تقفز على الطريق وأصبحت سرعته تسعين ميلًا في الساعة، وهو يقود بمنتهى التهور بعد أن تحجرت قدمه على (الدواسة) وأمســكت يداه بعجلة القيادة بتشــبثٍ وكأنهما منحوتتان من الثلج في حين كان وجهه خاليًا مــن أي ملامح وكأنه وجه تمثالٍ لا حياة فيه، كم يتمنى أن يغادر إلى الأبد هذا المكان الفارغ من الحياة والغارق في بحرٍ

من السكون المثير للجنون، ثم أوقف سيارته فجأة، وغادرها وهو يفكر بتلك الحياة الرتيبة المملة التي تعين عليه أن يعيشها.

فكر بذلك وهو يسير ناحية الحديقة التي تصل إلى المقبرة، ووجد العشب ناميًا وطويلًا ولكنه أخذ يتحطم تحت تأثير خطواته السريعة والثقيلة ولم يكن هناك أي شيءٍ يشق الصمت المحيط بالمكان سوى وقع تلك الخطوات التي بدت على نسقٍ غريبٍ متزامنة مع صوت تغريدٍ حزين لمجموعةٍ من الطيور، وفكر بصمت:

- في يومٍ ما عندما كنت أستمع إلى تلك الطيور وهي تغرد، كنت أرى أن السبب هو ما يرونه من روعة العالم، ولكن الآن هل يئنون من الحزن والتعب والوهن.

لقد قاد سيارته بجنونٍ، لا يعرف كم من الوقت فعل هذا بل ودون أن يعرف إلى أين هو متجه، فعقله وجسده أخفا عنه الأمر ولم يعِ السر إلا عندما وجد نفسه في هذا المكان، فضغط بعنفٍ على مكابح السيارة حتى توقفت فجأة، فكل ما كان يعرفه هو أنه مريض ومنهك ولم يظن أبدًا أنه قادم لزيارة (فيرجينيا) وها هو الآن يسير على الأعشاب النامية ويحطمها حتى وصل إلى البوابة الحديدية الكبيرة والمكسوة بأكملها بطبقةٍ سميكة من الصدأ.

منذ متى لم يأتِ إلى هنا؟

يبدو أنه قد مضى أكثر من شهرٍ كامل على آخر مرة زار فيها المكان، فتمنى لو أنه أحضر معه بعض الزهور، ولكنه لم يكن على درايةٍ بوجهته

ولا بالمكان الذي سيذهب إليه فهو لم يعرف أنه هنا إلا عندما وجد البوابة أمامه، وبدأت ملامحه تكتسي بالحزن العميق وهو يتساءل بأسف:

- لماذا لم تكن (كاثي) هي الأخرى هنا؟

لماذا قام بالاستماع إلى تعليمات الأغبياء الحمقى الذين كانوا يحكمون وقت انتشار الوباء؟

لو أنها فقط كانت هنا ترقد بجوار أمها بدلًا من وجودها في تلك الحفرة المشتعلة.

لكنه توقف فجأة، وصاح آمرًا نفسه:

- لا تبدأ مجددًا، أرجوك لا تفعل هذا.

وأكمل سيره ناحية السرداب بخطواتٍ بطيئة قبل أن يتوقف مرة أخرى وهو ينظر بتعجبٍ إلى الباب الحديدي الصغير فقد كان مفتوحًا، وصاح بغضب:

- لا؛ يا إلهي لا.

ثم أسرع يركض بكل قوته إلى الداخل وهو يكمل قائلًا:

- أقسم لو أنهم تسللوا إلى المكان، فسأحرق هذه المدينة، أقسم أنني سأحرق المدينة عن بكرة أبيها لو أنهم مسوا طرفًا منها.

وعبر الباب وهو يزيحه بقوةٍ ليرتطم بالرخام المبطن للحائط بشدة مصدرًا صوتًا عاليًا ظل صداه يتردد من حوله، وأخذ يتفقد المكان

بحرصٍ حتى وصلت عيناه إلى التابوت، فأخذ نفسًا عميقًا ثم أخرجه وأخرج معه كل التوتر الذي شعر به، فقد كان التابوت مستقرًّا في مكانه والغطاء السميك فوقه لم يمسه أحد، وبينما هو يتقدم ناحيته لمح رجلًا ينام في إحدى زوايا السرداب متكورًا على نفسه على الرخام البارد دون غطاء، فتملكته نوبة غضبٍ عارمة أفقدته السيطرة على نفسه، فأسرع (روبرت نيفيل) ناحية ذلك الرجل النائم وجذبه بعنفٍ من معطفه وهو يحكم قبضته عليه وأخذ يسحبه على الأرض حتى وصلا إلى الخارج واستمر يجره على العشب بقسوةٍ وقد تكور على نفسه أكثر ووجهه الأبيض الباهت إلى الأعلى حيث السماء الغائمة، ثم عاد مسرعًا وهو يلهث وقلبه ينبض بقوة، أغمض عينيه واستند بكفيه على غطاء التابوت الرخامي، وتمتم بحنان:

- ها أنا ذا، لقد عُدت، هل ما زلتِ تذكرينني؟

وأزاح بعض الورود الجافة التي كان قد أحضرها في مراتٍ سابقة وكذلك بعض أوراق الشجر التي دخلت عبر الباب المفتوح، وجلس أمام التابوت وأسند جبهته عليه وهو في حالةٍ من الشتات والصمت والحزن، وفكر في أعماقه:

- آه لو أنه يمكنني الموت الآن بسلامٍ وهدوءٍ وراحةٍ دون صراخٍ وعويلٍ ورعشاتٍ قوية، لو أنني معها في هذه اللحظة، لو أنني على يقينٍ من أن الموت يجعلني أكون بصحبتها حيث هي!

طأطأ برأسه، وضم قبضته بغضب، ونزلت من عينيه دمعتين حزينتين كريستاليتين مليئتين باليأس، وتمتم:

- خذيني معكِ حيث أنتِ يا (فيرجينيا).

لم يتمكن من حساب الوقت الذي قضاه وهو جالس بجوار شاهد القبر، فلم يكن كل الحزن الذي بداخله ولا جميع ما يشعر به من أسى وندم كافيًا كي يجعل ذلك الجلاد القاسي يتوقف عن ضربه بسوط اليأس والحنين، وأخيرًا قرر أن يقوم، وفكر بأنه ظاهريًّا لا يزال على قيد الحياة لكنه ميت من الداخل، فقلبه نعم ينبض لكن بلا إحساس وعروقه تمتلئ بالدم المتدفق بلا دفءٍ في حين أن عظامه وعضلاته وأنسجته تقوم بوظائفها إنما دون هدفٍ محدد، وظل يحدق في التابوت لبعض الوقت قبل أن يستدير وهو يطلق تنهيدة مؤلمة، وغادر وقد أغلق الباب الحديدي الصغير خلفه بإحكامٍ كي يتركها تنام بهدوءٍ دون أن يقلقها أحد، وكان قد نسي أمر الرجل الذي وجده بالداخل حتى أنه لم ينتبه لوجوده فتعثر به وقام بسببه، ثم ركله بقدمه وأكمل طريقه إلى السيارة، لكن فجأة توقف واستدار عائدًا، وتساءل باستغراب:

- ما هذا؟

ونظر بشكٍّ إلى الرجل الذي كان ميتًا..

- نعم إنه بالفعل ميت، ولكن كيف هذا؟

فالتغييرات التي على وجهـه تبدو حديثة وكأنه مات للتو وليس منذ أيام كما كان يعتقد وهو يسـحبه إلى الخارج، وبـدأ عقله يفكر بحيرةٍ وارتياب، فشيءٌ ما تسبب في قتل مصاص الدماء هذا الآن.

- شيءٌ ما وحشيٌّ قتله بقسوةٍ وفعالية، ولكن ما هو هذا الشيء؟

فصدره لم يكن مطعونًا بأي وتدٍ خشـبيٍّ، ولم تكن هناك آثار لرائحة الثوم، فيبدو وكأنه مات هكذا بتأثيرٍ خارجي، ثم رفع رأسـه إلى الأعلى وقال باستغراب:

- هل يمكن أن تكون أشعة الشمس هي ما قتلته؟

نعم هي بالتأكيد.

وشـعر بمنتهى الغباء بل وقالها لنفسه صراحة، فطيلة خمسة شهور طويلـة لعينة لا يظهـرون إلا ليلًا بينما يختبئون فـي النهار حتى أنه لم يصـادف أي واحدٍ منهم في الخارج تحت ضوء الشـمس ولو صدفة، وبعد كل هذا لم يتمكن من أن يجد الرابط بين ذلك السـلوك وبين تأثير أشعة الشمس القاتل عليهم:

- حقًّا، يا لك من رجلٍ غبيٍّ يا (نيفيل)!

أغلـق عينيه وضرب رأسـه بيده وهو متفاجئ مـن غبائه المحكم، فكيف لم يفكر بهذا الأمر؟

أشـعة الشـمس وما بها من موجاتٍ تحت الحمـراء وأخرى فوق البنفسجية هي ما تقتلهم، ولكن لماذا؟

ولماذا لم يفكر يومًا ما أن يدرس تأثير أشعة الشمس على البشر؟

وبدأ يتطرق إلى سؤالٍ آخر:

- هذا الرجل واحد من مصاصـــي الدماء أو الموتى الأحياء أو الـــ (زومبي) أو أيًّا ما كان الاســـم الذي يطلق عليهم، فهل لأشعة الشمس نفس التأثير القاتل عليهم جميعًا أم أنه حالة خاصة؟

وشـــعر لأول مرة منذ أســـابيع عديدة بالإثارة والحماس مما جعله يركض بسرعةٍ إلى السيارة، وأغلق بابها خلفه وسأل نفسه قبل أن ينطلق:

- هل عليه أن يأخذ معه جثة هذا الـــ (زومبي) إلى البيت ليدرسها؟

ولكن هل ستجذب هذه الجثة المزيد منهم إليه؟

لا أظـــن ذلك، فهم لم يدخلوا إلى الســـرداب حيث يوجد التابوت، ولكن مصاص الدماء هذا ميت الآن، أي أن دماءه لا قيمة لها.

عليه أن يعرف، ما هو تأثير أشعة الشمس على هؤلاء الأوغاد؟

هل يُعقل أنها تؤثر على الدم؟

ولكن بقية الأشياء التي تقتلهم لا يوجد لها علاقة واضحة بدورتهم الدمويـــة، رائحة الثوم مثـــلًا، والمرايا، والصلبان، والأوتاد الخشـــبية، وكذلك بعض الأماكن التي ينامون بها.

عليـــه أن يقرأ عن هذا الأمر كثيرًا ويقوم بدراســـته وعمل العديد من الأبحـــاث عنه، فمنذ مـــدة وهو يخطط لأن يفعل ذلك وكان ينســـى أو يتناســـى، ولكن ما حدث اليوم أثار رغباته من جديد وفتح شـــهيته على اتخاذ خطوةٍ إلى الأمام.

قاد سيارته سريعًا متوجهًا إلى أحد الأحياء السكنية المليئة بالمباني وتوقف عند أول منزلٍ وغادر إليه وحاول أن يفتح الباب لكنه كان موصدًا بإحكام، فتنهد بقلة صبر وأسرع ركضًا ناحية المنزل الملاصق له والذي كان بابه مفتوحًا، فصعد الدرج عدوًا، كل درجتين مع بعضهما البعض في خطوةٍ واحدة، ووجد هناك امرأة في غرفة النوم وبلا تردد، سحب من عليها الغطاء الذي فوقها وأمسكها بقوةٍ وسحبها على السرير، فأخذت تزمجر وكان يصدر من حنجرتها صوتٌ خافت وهو يجرها إلى غرفة المعيشة، وهناك بدأت تتلوى، ثم أطبقت بيديها على معصميه وأخذ جسدها ينحني ويتقوس دون أن تفتح عينيها إلا أن مقاومتها أصبحت أشد ومحاولاتها للإفلات منه أصبحت أكثر جدية حتى أنها غرست أظافرها الطويلة السوداء القذرة في لحم ذراعه، ففك قبضتها بعنفٍ من على معصمه، وأمسكها بإحكامٍ من شعرها وسحبها بقوةٍ وسرعة بقية المسافة إلى الخارج، وفجأة انتابه شعور في غاية الغرابة، شعور قاسٍ بالذنب، فهؤلاء الأشخاص كانوا يومًا ما مثله، ولا ذنب لهم فيما آلوا إليه، لكنه تحت تأثير الحماس يفعل ما لم يكن يتوقع أبدًا أن يفعله حتى ولو بحجة إنقاذ حياته.

وفجأة ارتجف جسده بأكمله بعد أن استمع إلى صرخة الرعب التي أطلقتها المرأة ما أن ألقى بها في منتصف الطريق، وظلت تتلوى وتتقلب على جانبيها لا حول لها ولا قوة، يداها تتشنجان، وشفتاها ترتعشان، ويتغير لونهما بطريقةٍ ملحوظة إلى الأسود الفحمي.

وظل (روبـــرت نيفيل) يراقب كل هذا بتوترٍ شـــديد وهو يبتلع ريقه بصعوبة غير قادر على التخلص من الشـــعور بالقســـوة لدرجة أنه عض شفته السفلى بقوةٍ وهو يشاهدها تحتضر، وأخذ يجادل نفسه:

- نعم إنها تعاني الآن؛ حقًّا، وسوف تموت، لكنها واحدة منهم وإن أتيحت لها الفرصة فسوف تقتلني في لحظةٍ واحدة دون أي ترددٍ وبكل سرور.

يجب أنه نظـــر إلى الأمور من وجهة النظر تلـــك، فهي وجهة النظر الوحيدة التي تجدي نفعًا، وضغط أكثر على شـــفتيه وهو يراها تحتضر أمـــام عينيه، وخـــلال لحظاتٍ توقفت عـــن الحركة تمامًـــا، وصمتت زمجرتها إلى الأبد، وانفتحت أصابع يديهـــا وكأنهما برعم يتحول إلى زهرة، فانحنى عليها وأخذ يتفحـــص دقات قلبها ولم يكن هناك أي أثرٍ لها، ولاحظ أيضًا أن ملمسها قد أصبح باردًا، فاعتدل وهو يبتسم ابتسامة لا معنى لها، وقال لنفسه:

- نعم إنها حقيقة، فلم أعد بحاجةٍ إلى المزيد من الأوتاد الخشـــبية، فبعد كل هذا الوقت، ها أنا ذا أتوصل إلى طريقةٍ أفضل وأكثر فعالية.

إلا أنه أسرع ليتساءل:

- ولكن كيف لي أن أعرف حقًّا أنها قد ماتت بالفعل؟

كيـــف لي أن أكـــون على يقينٍ مـــن ذلك إلا إذا رأيتهـــا بعد غروب الشمس؟

وملأه هذا التساؤل بشعورٍ آخر من الغضب المحموم والمليء بالقلق والتوتر، فلماذا كل ما يفكر به تكون إجابته في غاية الصعوبة؟

ترك المكان بأكمله وواصل القيادة حتى وجد نفسه يتوقف عند أحد المتاجر، فغادر إلى الداخل وحصل على زجاجةٍ من عصير الطماطم الذي يفضله، وعاد للتفكير وهو يشرب رشفة بعد أخرى:

- نعم، كيف له أن يتأكد من صحة تلك الفرضية؟

فهو لن يتمكن أبدًا من الوقوف بجوارها حتى يحين وقت الغروب، وفكرة أن يأخذها معه إلى المنزل تبدو في غاية الجنون المطبق.

فأغلق عينيه كعادته كلما شعر بتوتر، وعادت إليه نفس القشعريرة التي أصبحت تلازمه، فاليوم هو يفتقر إلى كل الإجابات المفيدة، وقرر أنه سيعود مرة أخرى كل الطريق الذي قطعه إلى حيث توجد جثتها وهو بالطبع ليس واثقًا من إمكانية العثور على المكان وسط المنازل المتشابهة.

وعاد إلى سيارته وأشعل المُحرك وقبل أن ينطلق نظر إلى ساعته، إنها الثالثة عصرًا، أي أنه يمتلك الكثير من الوقت قبل أن يحين موعد خروجهم إلى الشوارع والطرقات، ضغط على (دواسة) البنزين وتحركت السيارة بسرعتها القصوى، واستغرق منه الأمر نصف ساعة من القيادة والتجول في الحي بين البيوت والمنازل كي يحدد مكان جثة المرأة، وبالفعل وجدها في نفس المكان حيث تركها، فارتدى (نيفيل)

قفازيه وفتح مؤخرة السـيارة وتوجه إلى الجثة وهو ينظر إليها، وقبل أن يبدأ من جديد في الشعور بالندم على ما فعله بها، نهى نفسه على الفور:

- أرجوك لا تبدأ في ذلك مرة أخرى.

وسـحبها إلى مؤخرة السـيارة ورفعها ووضعها بالداخل، ثم أغلق عليها ونزع قفازيه، نظر إلى سـاعته، إنها الثالثـة عصرًا، نعم رائع، فهو يمتلـك وفرة من الوقت كي يعود إلى المنـزل، إلا أنه رفع يده التي بها الساعة ناحية أذنه وأخذ ينصت بتوترٍ شديد، وفجأة شعر بقلبه يكاد يقفز إلى الخارج تاركًا مكانه في تجويف صدره خاليًا، وتمتم بذهول:

- تبًّا، الساعة لا تعمل.

الفصل الخامس

ارتعشـــت أصابعه وهو يحرك مفتاح تشغيل السيارة، وانطلق بسرعةٍ جنونية وأمســـك بقوةٍ بعجلة القيادة وأدارها عكـــس الاتجاه عائدًا إلى الخلف:

- ما هذا الغباء الذي فعلته؟ فقد اســـتغرق الأمر ســـاعة على الأقل كي أصـــل إلى المقبرة، وظللت بجوار التابوت ربما ســـاعة أخرى، ثم الذهاب إلى المرأة والمواصلة إلى المتجر واحتســـاء العصير، ومن ثم العودة مرة أخرى لأخذ الجثة؛ كم استغرق كل هذا؟

أيها الغبي

أيها الأحمق.

وبدأ الخوف يســـري في أوردته على هيئة برودةٍ خفيفة مع قشعريرةٍ عندما تخيل أشـــكالهم وهم ينتظرونه جميعًا أمام بيته، ثم صرخ بصوتٍ مرتفع:

- يا إلهي؛ لقـــد تركت باب المرأب غير موصـــد، وبه ما أخزنه من الوقـــود، وجميع معداتـــي والآلات التي أســـتخدمها، وكذلك المولد الكهربائي.



وأصدر صوت تأوهٍ وهو يزيد من ضغطه على (دواسة) البنزين كي يسرع أكثر بالسيارة التي بدت له وكأنها تقفز على الطريق، وأخذ مؤشر مقياس السرعة يرتفع..

خمسة وستين ميلًا في الساعة..

سبعين ميلًا..

خمسة وسبعين..

- ماذا لو أنه وجدهم بالفعل محتشدين أمام منزله؟

كيف سيتصرف كي يصل إلى الداخل؟

أجبر نفسه على أن يهدأ، فلا داعي لأن يتشتت ويتمزق من الآن، فلا داعي للقلق فهو سيجد طريقة ما ليدخل المنزل، هكذا أقنع نفسه دون أن يخبرها أي شيءٍ عن تلك الطريقة المفترضة.

مر بيده على شعره لا إراديًّا، وحدث نفسه:

- إنه أمر رائع، فبعد كل هذا المجهود المضني الذي كنت تبذله للبقاء على قيد الحياة، ها هو كل شيءٍ يذهب هباءً لأنك في يومٍ واحدٍ فقط عدت متأخرًا عن الوقت المحدد.

لكن عقله صرخ به:

- ألا يمكن أن تخرس قليلًا؟

إلا أنه فكر متهمًا تصرفه بالغباء، فهو على استعدادٍ لأن يعاقب نفسه على عدم تفقده لساعته في مساء الليلة السابقة، إلا أن عقله قال له من جديد:

- لا ترهق نفسك بفعل ذلك، فسوف تجدهم أمام المنزل وسيقومون بالأمر نيابةً عنك وبكل سرورٍ وترحاب.

لكنه فر بعيدًا عن هــذا الحوار المحبط بينه وبيــن عقله ليفكر بأمرٍ آخر، فقد كان جسده قد أصبح في غاية الضعف بسبب قلة ما يتناوله من طعام، فالقليل من اللحوم المعلبة مع بعض عصير الطماطم لا يمكنه أن يقف في وجه الجوع القارص.

واســتمر في القيادة بجنونٍ وســط الطرقات الخاليــة والغارقة في الصمت، وبين الحين والآخر يلتفت إلى الجهتين ليتأكد ما إن كان أحد منهم قد بدأ في الظهور من قلب الأبواب المغلقة، وأخذت السماء تظلم شيئًا فشيئًا.

وكان يعبر تقاطع شــارع (ويسترن) مع شارع (كومبتون) عندما لمح رجلًا يخــرج عدوًا من أحد المبانــي وهو يصرخ عاليًــا بكلماتٍ غير مفهومة، وشــعر بيدٍ من الجليد تعتصر قلبــه خاصة عندما وجد صرخة الرجل تلاحقه سريعًا هي وصاحبها.

لم يعد بإمكانه أبدًا الزيادة من ســرعة الســيارة التي وصلت بالفعل إلى ســرعتها القصوى، وهنا أخذ عقله يعذبه بأن زرع في داخله بعض الأفكار المرعبة، فماذا سيحدث لو أن أحد إطارات السيارة قد انفجر؟ أو لو أن المكابح لم تعمل واصطدم بواجهة أحد المنازل؟

فبدأت شــفتاه ترتعشــان مما جعله يضمهما بقــوةٍ كي يوقف تلك الرعشــة التي تزيد من توتره، وما أن نجح في ذلك حتى شعر بتنميلٍ في

يديه اللتين يقبض بهما بقوةٍ على المقود، وكان عليه أن يبطئ من سرعته كي ينحرف إلى شارع (سيمارون) وهناك وجد رجلًا آخر يتوجه ناحيته ويطارد السيارة، لم يتمالك نفسه وأخذت أنفاسه تتسارع لدرجة أنه شعر بها أكثر علوًّا من صوت صرير إطارات السيارة وهي تنحرف على الطريق الإسفلتي، فقد كانت هناك كارثة أمام عينيه، إنهم مجتمعون بأكملهم أمام منزله ينتظرون قدومه، شعر بالعجز التام في هذه اللحظة، وتملكه الرعب الشديد لدرجة أنه فشل في قول الجملة التي يريد أن يقولها:

- أنا لا أريد الموت الليلة بل لا أريد حتى التفكير في هذا الأمر حتى وإن كنت سأموت، فحتمًا ليس بمثل هذه الطريقة.

والآن رآهم جميعًا يديرون وجوههم البيضاء الشاحبة ناحية صوت موتور السيارة المرتفع بينما البعض منهم كان يخرج من المرأب مما جعل أسنانه تصطك من تأثير الخوف، وصرخ:

- ما هذا الغباء، إنها طريقة حمقاء للموت.

وبدأوا في الركض ناحيته وقد عبرت مجموعة منهم الشارع، وأدرك على الفور أنه لا يمكنه التوقف بأي حال، فزاد من سرعة سيارته التي كان قد أبطأها عند المنعطف، وفي لحظةٍ صدمهم بقوةٍ وعنفٍ وأطاح بثلاثةٍ منهم في الهواء ثم دهس مجموعة أخرى وشعر بالسيارة تهتز وهي تمر فوق الأجساد الممزقة، شق الليل صوت صرخاتهم العالية وهي تخترق مسمعه مسببة له رعشة شديدة.

والآن أصبح البقية وراءه يلاحقونه باستماتة وهو يتابعهم من خلال المــرآة الخلفيــة، وفجأة فكر في خطــةٍ يمكنه تنفيذهــا، فخفف على الفور من ســرعته حتى وصلت إلى ثلاثين ميلًا في الســاعة ثم عشرين ميلًا، ونظر إليهم في المــرآة فوجدهم يقتربون أكثر ووجوههم البيضاء الشاحبة تزداد وضوحًا حتى أنه ميز عيونهم الحالكة السواد والخالية من الحياة وهي تحدق به، وبلا مقدمات انتفض جســده بقوةٍ عندما وصله صوت زمجرة عالية بالقرب منه، وأمال رأسه إلى الناحية الأخرى عندما شاهد وجه (بين كورتمان) المليء بالجنون وهو يركض بجوار سيارته تمامًــا، وبغريزة حب الحياة ضغط بكل قوةٍ على (دواســة) البنزين مما جعل السيارة تقفز بســرعة، ثم فجأة توقف المحرك عن العمل، وبينما أخذ جبينــه يتصبب عرقًا وهو يندفع إلى الأمــام كالمحموم إلى مفتاح التشــغيل شــعر بــــ(كورتمان) يغرس مخالبه بمنتهى القوة في ذراعه، وأحس ببرودة يده وسمعه وهو يزمجر باسمه:

- (نيفيل).

يا (نيفيل).

وكانت يد (بين كورتمان) وكأنها ســكين صنع مــن الجليد، فأخذ يحاول الخلاص من قبضتــه ويبعدها عن ذراعه وأعــاد المحاولة مع مفتاح التشغيل وجسده يرتجف بلا أمل، فمن خلفه كانت تصله أصوات صرخاتهم المليئة بالإثارة، فقد كانوا يقتربون منه أكثر وأكثر، وكما همد فجأة عــاد المحرك إلى الحياة مرة أخرى فجــأة في اللحظة التي كانت



فيها مخالب (كورتمـــان) الطويلة تصل إلى خــده، وجعله الألم يضم قبضته بقوةٍ هائلة ويلكم بها وجه (كورتمان) الذي سقط على الرصيف، فانطلق بأقصى ســرعته لكن واحدًا منهم كان قــد تمكن من القفز على مؤخرة الســيارة وتمســك بها قبل أن ينجح في الابتعاد مســافة كافية، وتمكن (نيفيل) من رؤية وجهه الشاحب الممتلئ بالرغبة المجنونة في القتــل، فتوجه ناحية حافة الرصيف وصعد عليها منحرفًا بالســيارة كي يلقي بذلك المســخ بعيدًا عنها، وبالفعل نجح في ذلك وشاهد الرجل وهو يُسحق في جدار أحد المنازل.

كان قلب (روبرت نيفيل) يخفق بقوةٍ وسرعةٍ وأنفاسه تتلاحق بطريقةٍ خارجة عن السيطرة بينما أطرافه تسري فيها برودة غريبة، إنه يشعر بتدفق الدماء من خده لكن دون ألم، فمد يده المرتعشــة ليزيح بها النزيف عن وجهه، ودار بالسيارة حول إحدى الزوايا منحرفًا جهة اليمين وهو ينظر في ثانية إلى المرآة الخلفية وفــي الثانية التي تليها إلى الأمام، وقاد عبر شارع (هاس) ثم انعطف يمينًا مرة أخرى، وفجأة تساءل:

- ماذا لو أنهم ســلكوا طريقًــا مختصرًا عبر المنــازل ثم وجدهم يحتشدون أمامه من جديد؟

فأبطــأ قليلًا حتى وجدهــم بالفعل يجتمعون مــن خلفه كقطيعٍ من الذئاب، فزاد من سرعته، فعليه أن ينتهز هذه الفرصة، ولكن هل سيخمن أحدهم ما هو مقدم على فعله؟

ضغط بكل قوته على (دواســة) البنزين واســتدار بالســيارة وهي على سرعة خمسين ميلًا في الســاعة كي يسلك طريقًا فرعيًّا إلى شارع (ســيمارون) وعاد لينحرف يمينًا مرة أخرى، وتنفس الصعداء، فلا أحد منهــم يقف أمام منزله عند الحديقة، إذًا لا تــزال هناك فرصة، فعليه أن يغــادر الســيارة ويتركها حيث هي، فــلا يوجد وقت كــي يعيدها إلى المرأب، وبالفعل غادر السيارة سريعًا تاركًا بابها مفتوحًا خلفه، وبدأ في العدو بسرعةٍ وحينها وصل إلى مسمعه صوت صرخاتهم العالية تقترب عند نهاية الطريق، كان عليه أن يخاطر بمحاولة إغلاق المرأب، فإن لم يفعل، فهذا يعني أنهم قد يدمروا المولد، فهم لم يمتلكوا الوقت الكافي كــي يفعلوا ذلك حتى الآن، فحول اتجاه خطواته ناحية المرأب، وفجأة من وسط الظلام المحيط بالمنزل، سمع صوتًا يصرخ باسمه:

- (نيفيل).

لقد كان (بين كورتمان) يندفع بسرعةٍ ناحيته وألقى عليه بكامل ثقل جســده فأسقطه أرضًا وشــعر (نيفيل) باليدين الباردتين القويتين وهما تعتصران عنقه، وفاحت رائحة الفــم الكريهة من حوله، وأخذ كلاهما يتدحرجان فــوق بعضهما البعض حتى وصلا إلــى الممر في منتصف الحديقــة، ووجد (نيفيل) أن الفم الكبيــر الممتلئ بالأنياب يقترب من أســفل عنقه، فجمع قبضته ووجه لكمة قوية لـــ (كورتمان) تمامًا في حنجرته، فصدر عنه صوت حشــرجةٍ واختناق، وصدر صوت آخر من الخلف، لقــد كان واحد منهم يصرخ وهو يقترب ســريعًا من المنزل،

فأسـرع (نيفيل) للوقوف وبحركةٍ عنيفة سـحب (كورتمان) من شعره وظل يضرب رأسه بقوةٍ شديدة في جانب السيارة التي أصبحا بجوارها وهما يتدحرجان، ثم تفقد الطريق من حوله سريعًا، وتمتم:

- لا وقت للمرأب.

وانطلـق يركض عبر الحديقة حتى أصبح عنـد الرواق الواصل إلى بـاب المنزل، ثم فجأة حاول أن يتوقف، فانزلقت قدماه مسـافة قصيرة بقوة الدفع التي كان يعدو بها، لقد تذكر أنه نسـي المفتاح في السـيارة، وصاح لائمًا نفسه:

- يا إلهي؛ كيف نسيت المفتاح؟

فأخذ نفسًـا عميقًا كي يخفف من شـعوره بالفزع واسـتدار عائدًا ناحية السـيارة، وكان (كورتمان) قد انتفض واقفًا وهو يزمجر بغضبٍ وألم، فعاجله (نيفيل) بركلةٍ قوية بركبته بل حتى أقوى من التي سبقتها، وأكمل طريقه حتى تمكن من الحصول على سلسـلة المفاتيح، وعندما هم بالذهـاب إلى المنزل كان أقربهم إليه قد وصـل بالفعل وقفز عليه ليدفعه إلى جانب السيارة، لكن (نيفيل) أدار جسده برشاقة وتمكن من الخلاص منه، وأكمل الركض في الحديقة.

عليه أن يُخرج مفتاح المنزل من وسط كومة المفاتيح، فتوقف للحظة كانت كافية كي يصل إليه الرجل الثاني ويدفعه بقوةٍ ناحية جدار المنزل الأمامي، ثم اقترب منه حتى أصبح ملاصقًا له تمامًا وفتح فمه ليقتلع به نصف عنق (نيفيل) الذي لكمه في خاصرته بقوة ثم اسـتند بظهره على

الجدار ورفع قدميه ليركل بهما الرجل قويًّا مطيحًا به بعيدًا عنه، وأخيرًا تمكن من الوصول إلى الباب، ثم فتحه وأســرع إلى الداخل ولكن قبل أن يغلقه وجد ذراعًا تمتد محاولة الإمســاك به فدفع الباب بكامل قوته واستمع إلى صوت عظامٍ تتحطم وصرخة تصل إلى عنان السماء، ففتح الباب قليلًا وألقى بالذراع المكســورة إلى الخارج، وأحكم غلق الباب بمنتهى الســرعة، وبأيدٍ مرتعشــة وضع العارضة الحديدية بالخلف في مكانها، وألقى بجســده على الأرض فورًا وأخذ يحاول الســيطرة على أنفاسه وســط الظلام الحالك وهو يستمع إلى الصيحات والزمجرة في الخارج والطرقات على الباب والحجارة التي تُقذف على المنزل وأخيرًا اســتمع إلى اسمه وهو يُنطق بقمة الحقد والغضب والرغبة في الانتقام، وظل يســتمع إلى كل ذلك لفترةٍ ليســت بالقليلة قبل أن يقوم إلى البار ويصب لنفسه كأسًا ممتلئة من الشراب ويرتشف نصفها سريعًا ثم يقذف بالنصف الآخر على الســجادة بمنتهى الغضب وجسده بأكمله يرتجف حتى أنه اضطر لأن يتمسك بالطاولة كي يحافظ على توازنه ولا يسقط، إنه يشــعر وكأنه يختنق حتى أن شفتيه أخذتا في الارتجاف دون سيطرةٍ منه، وببطءٍ بدأ يشــعر بســخونة الخمر في أعماقه تنتقل من معدته إلى أطرافه، فهدأت أنفاسه وتوقف صدره عن الخفقان بقوة، وهنا وصل إليه صوت جلبة شديدة جدًّا وأصوات عالية في الخارج، فأسرع ركضًا ناحية ثقب المراقبة وأزاح عنه الغطاء وشاهد ما جعل جسده بأكمله يرتج من الغضب الــذي كاد أن يوصله إلى مرحلة الانفجار، فقد كانت ســيارته

مقلوبة على أحـــد جانبيها وهم يحطمون زجاجهـــا الأمامي بالحجارة الضخمة كما أنهم دمـــروا المحرك بأكمله بعـــد أن ضربوه بالهراوات وأخذوا يخلعون ويحطمون كل شيءٍ بطريقةٍ مسعورة، وبينما هو يشاهد كل هذا شـــعر بالغضب يتملكه وكأنه حامـــض حارق يذيب كل أعضاء جسده، فصرخ بشدةٍ وهو يضع يديه في خصره، ثم استدار فجأة وتوجه ناحية الضوء وحاول إشعاله ولكن الظلام ظل هو المسيطر، فتنهد بثورةٍ وأســـرع إلى المطبخ، لقد كانت الثلاجة لا تعمـــل، فركض إلى الغرفة الأخرى المعتمة وكان الفريزر أيضًا لا يعمل، فصرخ:

- كل الطعام سوف يفسد، لقد أصبح المنزل كالمقبرة.

شـــله الغضب، وبدون تفكيرٍ توجه إلـــى المكتبة وفتح أحد الأدراج وأخـــذ يعبث به باحثًا عن شـــيءٍ ما وســـط الظلام حتـــى وجد ضالته، مسدسين، وأسرع راكضًا خارج الغرفة وعبر الممر حتى وصل إلى باب الشقة وفتحه وهو يصرخ:

- أنا قادم إليكم أيها الأوغاد.

* * *

أطلق النار على الرجل الأول في وجهه فســـقط أرضًا، وهنا اقتربت منه ســـيدتان ترتديان ثيابًا موحلة وممزقة وقد مدتا أياديهما إليه فأطلق عليهما النار فورًا، ثم تقدم في وسط حشدٍ منهم وأخذ يطلق النار بكثافةٍ على رؤوســـهم حتى فرغت الذخيرة من المسدسين، ثم أمسك بإحدى الهراوات وأخذ يضربهم بها مطيحًا برؤوســـهم، لقد فقد عقله كليًّا على

ما يبدو، وأخذ يكيل لهم اللكمات والـــركلات إلا أنهم كانوا يحيطون به ويتكاثرون عليه من جميع الجهات، وشـــعر بألمٍ حارق في كتفه بعد أن ضربته امرأة، ثم أمســـك بـــه رجل آخر وأحاط عنقـــه بذراعه إلا أن (نيفيل) تمكن من الفرار منه بصعوبةٍ وأمســـك برأسه وضربها في رأس رجلٍ آخر، ثم قفز عائدًا إلى الممر وأمســـك بســـاقيه كالكماشة بخصر أحدهم الذي حاول أن يعترض طريقه وبقوةٍ قذف به ناحية الشـــجيرات الصغيرة، ودخل إلى المنزل وأغلق الباب خلفه سريعًا، وأنزل العارضة الحديدية ليُحكم بهـــا الغلق، ووقف (روبرت نيفيل) في منتصف منزله الغارق في البرد والظلام الدامس يستمع إلى صيحات مصاصي الدماء في الخـــارج، ثم تقدم ناحية الجدار واســـتند عليه وبـــدأ يتحرك بوهنٍ وضعفٍ بينما دموعه تســـيل لتمتزج بالدماء النازفة من خده على لحيته النامية والمهملة، وأخذ يتمتم بيأس:

- لقد ضاع كل شيء.

لقد ضاع كل شيءٍ يا (فيرجينيا).

(فيرجينيا)

(فيرجينيا)

وأخذ ينادي عليها وكأنه طفل صغير ضائع، يشعر بالخوف.

الجزء الثاني

مارس 1976

الفصل السادس

وأخيرًا أصبح المنزل قابلًا للحياة مرة أخرى ربما حتى أفضل من الأول في حقيقة الأمر، فبعد ثلاثة أيام من العمل تمكن من عزل جدران المنزل عن الأصوات القادمة من الخارج، وهذا يعني أنه الآن بإمكانهم أن يصرخوا ويزمجروا وينبحوا كما يحلو لهم طوال الليل دون أن يكون مضطرًا للاستماع إلى أصواتهم، فهذا الأمر لم يكن يرق له على الإطلاق، وخاصة الاستماع إلى صوت (بين كورتمان) على وجه التحديد، وقد استغرق منه ذلك النجاح الكثير من الوقت والجهد، والآن حان الوقت لتولي أمر شيءٍ آخر، فعليه الحصول على سيارةٍ جديدة بدلًا من تلك التي قاموا بتدميرها، ولم يكن يتخيل أبدًا أن النجاح في تحقيق ذلك سيكون في غاية الصعوبة، فقد كان عليه أن يذهب إلى شارع (سانتا مونيكا) حيث يوجد متجر (ويلي) الذي يعرفه جيدًا، فمن هناك يمكنه الحصول على سيارة (واجن) تشابه تمامًا سيارته القديمة، فهو يمتلك خبرة لا بأس بها في التعامل مع هذا النوع وإصلاح أي أعطال قد تحدث به، وهذا أمر جيد فلا يوجد متسع من الوقت لتعلم كيفية التعامل مع أنواعٍ أخرى من السيارات قد تكون أكثر تعقيدًا، ولكن لم يكن بإمكانه السير إلى (سانتا مونيكا) ولذا فكر على الفور في استخدام

واحدةٍ من السـيارات الكثيرة المتوقفة بالجوار، لكن لسوء الحظ وجد أن أغلبهم لا يعمل تمامًا لسببٍ أو لآخر، فالبعض قد خربت بطارياتهم، والبعض قد انسدت مضخة الوقود به، والبعض الآخر لم يكن به بنزين، والكثير كانت إطاراتهم ممزقة، لكن أخيرًا وبعد بحثٍ طويلٍ تمكن من العثور على سيارةٍ صالحة للقيادة في أحد المواقف على بعد ميلٍ كامل من منزله، فانطلق بها سريعًا إلى (سـانتا مونيكا) للحصول على سيارة (واجن) رائعة، وما أن فعـل حتى وضع بها بطارية جديدة وملأ خزانها بالوقود بل وملأ إناءً بلاستيكيًّا كبير الحجم بالمزيد من الوقود وعاد بعد كل هذا إلى المنزل وكان ذلك قبل غروب الشـمس بساعةٍ كاملة، نعم لقد كان حريصًا جدًّا هذه المرة على تحديد الوقت بدقة.



لحسـن حظه لم يكن المولد الكهربائي قد دُمر بالكامل، فمصاصو الدماء فيما يبدو لم يكونوا على درايةٍ كاملة بمدى أهميته بالنسبة له، فلم تكن به أضرار أكثر من بعض الأسـلاك الممزقة وآثار ضرباتٍ سطحية بالهراوات، لذا تمكن من إصلاحه علـى الفور في الصباح التالي لليلة الهجـوم وبهذا حافظ علـى طعامه المجمد من الفسـاد، وقد كان من أعماقه ممتنًا جدًّا لهذا الشيء خاصة وأنه لا يعرف كيف كان سيتمكن من الحصول على طعامٍ آخر مشابه له بعد أن انقطعت الكهرباء عن المدينة بأكملها، وبعد أن فـرغ من أمر المولد جاء الدور علـى المرأب، فقام بتنظيفه من بقايا حطام المصابيح المكسـورة، والصمامات المنزوعة،

والأســلاك الممزقة، وقطع غيار موتور السـيارة التـي كان يحتفظ بها للحالات الطارئــة، وكذلك صندوق الحبوب الـذي بعثروا محتوياته بالكامل والذي نســي هو وجوده تمامًا ولم يتذكر أمره إلا عندما شاهده الآن، غســالة الملابس كانت محطمة بالكامل وغير قابلة للاســتخدام وتعين عليه أن يســتبدلها بواحدةٍ أخرى ولم يجد في ذلك صعوبة أبدًا، ولكن أسوأ ما مر به على الإطلاق هو محاولة مسح وتنظيف كل براميل الوقود والزيوت التي سكبوها عن بكرة أبيها.

- لقد تفوقوا على أنفسهم وهم يفعلون ذلك؛ تبًّا لهم.

هكذا تمتم وهو يقوم بمهمة التنظيف الشاقة.

وبالنســبة إلى داخل المنزل، فقد أصلح الشــقوق فــي الجدران، وأضاف المزيد من الإضاءات، وكذلك قام بتعليق لوحةٍ جداريةٍ جديدة كي تعطي مظهرًا مختلفًا للغرفة، وكان يفعل كل تلك الأمور باســتمتاعٍ شديد، فقد منحه هذا العمل شيئًا يفرغ فيه طاقته كي يتخلص من شحنة الغضــب الهائلة التي في أعماقه، ويصب بــه كل الملل الذي يعاني منه منذ فترةٍ ليست بالقصيرة، إنه يكســر روتين المهام اليومية السخيفة من نقل الأجســاد الميتة إلى حفرة السعير، وإصلاح ما يفسدونه في واجهة المنزل، وصناعة الأوتاد الخشــبية، وتعليق قلائد الثــوم ذات الرائحة البشعة، وتعمد أن يتناول القليل من الشراب فقط خلال أيام العمل تلك بــل كان يقضي أغلب النهار بدون شــرابٍ بينما في الليل يكتفي بكأسٍ واحدة أو كأســين من أجل الحصول على بعض الراحة وليس كما كان

يفعل من قبل، تناول الشـــراب من أجل الهروب من أية أحاسيس مؤلمة والوصول إلى مرحلة اللا شـــعور، وقد حسن ذلك من شهيته مما جعله يتناول المزيد من الطعام ويكتســـب بعض الوزن مما حسن من مظهره الخارجـــي كما أنه أصبح يتمكن من النوم بســـلامٍ لفتراتٍ أطول ودون كوابيس أو أحلام ســـيئة، ثم خطرت له فكرة غير عادية وهي أن يقضي يومًا أو أكثر في أحد أجنحـــة الفنادق الغاية في الفخامة، ولكن الصورة الرائعـــة التي ظهر عليها المنـــزل بعد التغيرات التي قـــام بها لـم تجعله متحمسًـــا لتلك الفكرة، وها هو يقضي النهار دون مغادرة، إنه الآن في غرفة المعيشة يستمع إلى إحدى ســـيمفونيات (موزارت) وهو يتساءل في حيرة:

"كيف يمكنه أن يبدأ أبحاثه وتحقيقاته؟ ومن أين سيبدأها؟"

إنه بالفعل يمتلك بعض التفاصيل، ولكنها لا تعدو كونها حقائق قليلة لا تكفي لأن تقوده إلى الطريـــق الذي يرغب فيه، فالإجابات تكمن في مكانٍ آخر، بلا شـــك مكان يحتوي على تفاصيل ربما هو ملم بها ولكنه لا يستطيع أن يستحضرها في عقله، فهو في حاجةٍ ماسة كي يفكر بعمقٍ في كل ما يمتلك من حقائق مشوشة كي تكتمل الصورة أمام عينيه.

ولكن كيف؟

ظل جالسًـــا بلا حركةٍ على مقعده الوثير وهو يحمل في يده اليمنى كأسًا من الشـــراب، ويتأمل اللوحة الجدارية المقابلة له، وكانت لمنظرٍ طبيعيٍّ من (كندا) تظهر فيها الغابات الشمالية بكل ما تحمله من غموضٍ

يختبئ في أحراشها الخضراء وأشـــجارها الطويلة التي تقف ساكنة في صمتٍ بمعزلٍ عن العالم ومن يســـكنونه من بشر، وأخذ يحدق في كل هذا الجمال وهو يتساءل:

- ربما لو عدت إلى الماضي؟!

ربما تكمن جميع الإجابات في الماضي؟!

تختبئ في أحد شقوق الذاكرة الغير مرئي، إذًا لنعد إلى الخلف، نعم يجب أن أفعل ذلك.

وبالفعل أجبر نفســـه على ذلك بالرغم من أنه كان على يقينٍ من أن العودة إلى الماضي ستمزق قلبه.

* * *

كانـــت هناك عاصفـــة رملية أخرى أكثـــر عنفًا فـــي الليل، وأخذت دوامات الرياح العالية السرعة تقذف المنزل بالحصى والرمال الخشنة بينما تسربت الأتربة الخفيفة إلى الداخل عبر الشقوق الصغيرة وحواف النوافـــذ والأبواب لتكون طبقة واضحة من الغبار فوق ســـطح كل قطع الأثاث، وعلى الســـرير كان الغبار كثيفًا وكأنه بـــودرة ناعمة تغطي كل الشـــعر والرموش وما تحت الأظافر بل وتتســـلل عبر مســـام الجســـد لتغلقها، وطوال الليل تمدد (نيفيل) دون أن يغمض له جفن وهو يحاول أن يراقـــب صوت أنفاس (فيرجينيـــا) التي كانت تجاهـــد كي تلتقطها بصعوبـــة ولكن صوت العاصفـــة القوي والمزعـــج غطى على صوت أنفاســـها الواهنة، فلم يتمكن من ســـماع أي شـــيء، وللحظة بينما هو

عالق في تلك المنطقة الرمادية ما بين النوم والاســتيقاظ أخذ يعاني من الخيالات والرؤى التي شاهد فيها منزله وكأنه مصنوع من الزجاج الغير سميك ومحمول على عجلات عملاقة وظهر سطحه الخارجي مشوهًا متآكلًا ومليئًا بالخدوش والكسور الغير مرممة مما جعل قشعريرة باردة تســري في جسده، إنه لم يعتد أبدًا حتى الآن على التأقلم مع العواصف الرملية القوية، فصوت صرير زوابعهــا يصيبه دائمًا بالتوتر، وبالطبع لم يكــن للعواصف جدول زمني معين يحدد أوقات هبوبها كي يتمكن من التأقلم معها، فعندما تأتي أية عاصفة فإنه يتعين عليه أن يقضي ليلة صعبة من القلق والتوتر، وفــي الصباح يذهب إلى عمله وهو على غير ما يرام جســديًّا وذهنيًّا، لكن في هذه الليلة بالذات لديه ما يجعله يقلق أكثر من مجرد هبوب عاصفةٍ عاتية، إنها (فيرجينيا).. ففي حدود الساعة الرابعة فجرًا استيقظ فجأة من نومه المتقطع ليجد أن العاصفة قد انتهت وبالرغم من ذلك استمر في الشــعور بطنين صريرها داخل أذنيه لا ينقطع، فرفع جســده وعدل من وضع منامته ونظر إلى (فيرجينيا) ليجد أنها مستيقظة ومستلقية على ظهرها تحدق في السقف، فتمتم بنبراتٍ يملأها النعاس:

- ماذا بكِ يا حبيبتي؟

فلم تجبه على الفور حتى كرر الســؤال مرة أخرى، فحولت نظرها ناحيته، وقالت:

- لا شيء؛ عُد إلى النوم.

- كيف تشعرين الآن؟

- لا جديد؛ كما هو الحال.

- يا إلهي.

وظل يتأمل ملامحها للحظــة بعد أن تمتم بتلك الكلمة الأخيرة، ثم همس:

- حسنًا.

ونام على جانبه الآخر، ثم أغلق عينيه.

* * *

في تمام الساعة السادســة والنصف رن جرس المنبه، وكالعادة في كل صباح (فيرجينيا) هي من تقــوم بإيقافه، ولكنها اليوم لم تتمكن من ذلك، فمال (نيفيل) فوق جســدها الخامل وأنجــز هو المهمة، وكانت كما شاهدها آخر مرة مستلقية على ظهرها، ولا تزال تحدق في السقف، فسألها بقلقٍ شديد:

- ما هذا بحق السماء؟

فنظرت إليه وهزت رأسها فوق الوسادة، وقالت:

- لا أعلم، أنا فقط لم أتمكن من النوم أبدًا.

- لماذا؟

فأصدرت صوتًا بشــفتيها وكأنه صفير خافت يدل على عدم معرفتها السبب، فسألها:

- هل ما زلتِ تشعرين بالوهن والضعف؟

فأرادت أن تكون إجابتها عملية بأن حاولت القيام من مكانها ومغادرة السرير، ولكنها فشلت تمامًا في فعل ذلك، فقال لها بلهفة:

- ابقِ هنا يا حبيبتي ولا تتحركي.

ثم وضع يده على وجهها وتحسس جبينها، وأكمل:

- أنتِ لا تعانين من أية حمى أو ارتفاع في درجة الحرارة.

فقالت له:

- أنا لا أشعر أنني مريضة، كل ما في الأمر أنني متعبة ومرهقة.

- بل ويبدو أنكِ شاحبة.

- نعم، فأنا أبدو وكأنني شبح.

- لا تنهضي من الفراش اليوم.

لكنها فعلت عكس ما أمرها بها، وهمت لتقوم قائلة:

- أنا لن أدلل نفسي من أجل بعض الإرهاق، هيا اذهب وبدل ملابسك، ولا تقلق فسأكون بخير.

- حبيبتي أرجوكِ لا تنهضي إن كنتِ لا تشعرين بتحسن.

فربتت على ذراعه بحنانٍ وابتسمت، ثم قالت لتطمئنه:

- أنا في أفضل حال، فهيا اذهب لتستعد.

وبينما كان يحلق ذقنه استمع إلى وقع خطواتها الغير متزنة وهي تعبر من أمام الحمام، ففتح الباب وراقبها وهي تتوجه عبر غرفة المعيشة



ببطءٍ شديد وجســدها يترنح بطريقةٍ ملحوظة، فعاد إلى الحمام وغسل يديه، وحدث نفسه:

- إنها يجب أن تبقى في السرير.

كان الحمام بأكمله مغطى بطبقــةٍ من الغبار، وكذلك المنزل بأكمله لدرجة أنه اضطر إلى نصب ما يشبه الخيمة حول سرير (كاثي) كي يبقى الغبار والأتربة بعيدة عن وجهها، وتطلب منه الأمر أن يثبت طرفي قطعة قماشٍ كبيرة في الحائط أعلى السرير من جهة رأسها بينما علق الطرفين الآخرين في قائمين معدنيين ناحية قدميها.

لم يتمكن من الحصول على حلاقةٍ جيدة، فالغبار كان عالقًا بماكينة الحلاقة والصابون الخاص بها، ولم يكن يمتلك الوقت الكافي لمحاولةٍ ثانية، فأخرج منشــفة نظيفة من الخزانة وجفف وجهه سريعًا، ثم غادر الحمام، وقبل أن يذهب إلى غرفة نومه ليبدل ملابســه، توجه إلى غرفة (كاثي) كي يتفقدها وكانت لا تزال غارقة في النوم ورأســها ذو الشــعر الأشقر ثابت تمامًا فوق الوسادة بينما كان خداها منتفخين من أثر النوم، ثم مد أصابعه وأزاح بها الكثير من الغبار العالق على الحاجز فوق رأسها وظهرت على وجهه علامات الامتعاض وهو يغادر الغرفة.

وتمتم محدثًا نفسه وهو في طريقه إلى المطبخ:

- كم أتمنى لو أن تلك العواصف الرملية اللعينة تنتهي إلى الأبد، فأنا على يقينٍ من....

وتوقف فجأة عن إكمال جملته، فعادة في هذا التوقيت تكون (فيرجينيا) أمام الموقد تقلي بعض البيض، وتعد (التوست) الفرنسي أو الكعك وتقوم بتحضير القهوة إلا أنه وجدها تجلس على الطاولة بلا حركة بينما القهوة تقطر من الماكينة المخصصة لها، ولم يكن أي شيءٍ آخر على النار، فتقدم منها وقال:

- حبيبتي، لقد أخبرتكِ أن تظلي في السرير إن كنتِ تشعرين بالتعب والإرهاق، وأنا سأعتني بنفسي وأعد إفطارًا جيدًا.

فقالت وهي تأخذ نفسًا عميقًا بصعوبة:

- لا بأس، أنا بخير، فقد كنت أستريح قليلًا، وسوف أقلي لك البيض حالًا، أنا أعتذر على التأخير.

- لا تبارحي مكانكِ أرجوكِ، فأنا لست عاجزًا عن الحركة.

وفتح باب الثلاجة وهو يستمع إليها تقول:

- أنا أريد أن أعرف بحق السماء، ما الذي يحدث هنا في هذا الحي! فنصف جيراننا يعانون من نفس الأعراض بالضبط، وأنت أخبرتني أن الكثير من زملائك لم يذهبوا إلى العمل لنفس السبب.

فأجابها بتشكك:

- ربما كان نوعًا معينًا من أحد الفيروسات.

فهزت رأسها، وقالت:

- أنا في الحقيقة لا أعلم.

جهز كوبًا من عصير البرتقال وهو يتمتم:

- أولًا كانت العواصف، ثم ظهر البعوض، وبعد ذلك أصبح الجميع مرضى، وتحولت الحياة إلى طقسٍ مؤلم.

ثم التقط بعوضة سوداء من قلب كوب العصير، وصاح بغضب:

- اللعنـــة، كيف تمكنت تلـــك الكائنات الحقيرة مـــن الدخول إلى الثلاجة؟

- لا تعد واحدًا لي.

- ألا تريدين بعض عصير البرتقال؟

- لا.

- لكنه جيد لكِ وقد يساعدكِ على التعافي.

فقالت له وهي تحاول أن تبتسم:

- لا يا حبيبي، أشكرك، لا أريد.

فأعاد الزجاجة إلى الثلاجة، وذهب ليجلس مقابلًا لها، وسألها:

- ألا تشعرين بأي ألم؟

كصداعٍ مثلًا، أو أي شيءٍ من هذا القبيل؟!

فهزت رأسها نافية، وأجابته:

- أتمنى لو أعرف، ما الذي يجري لي، وأين الخلل؟

- حســـنًا، يجب أن تتحدثي مع الدكتور (بوش) اليوم كي تستشيرينه في الأمر.

فحاولت النهوض وهي تقول:

- سأفعل.

فوضع يديه على كتفيها، وقال:

- لا يا حبيبتي، لا تقومي.

فظهر على ملامحه بجوار الإرهاق، الكثير من الغضب، وخرجت نبراتها حادة:

- ما دام لا يوجد سبب حقيقي، فلماذا إذًا أعاني بهذه الطريقة؟

لقد كانت تلك هي طريقتها منذ اليوم الأول الذي عرفها به، فهي تصبح في غاية التوتر والحنق عندما تمرض، فأي وعكةٍ وإن كانت بسيطة تجعلها تشعر بالغضب العارم وكأنها تعتبر الأمر إهانة شخصية حينما تصبح عاجزة عن القيام بمهامها العادية.

فقال بود:

- لا داعي لكل ذلك يا فتاتي، وهيا كي آخذكِ إلى السرير.

- لن أذهب لأي مكان، فأنا أريد البقاء هنا معك، وسوف أعود إلى السرير بعد أن تذهب (كاثي) إلى المدرسة.

- حسنًا كما تشائين، والآن هل تريدين أن أعد لكِ شيئًا ما؟

- لا.

- ما رأيك ببعض القهوة الساخنة اللذيذة؟

فهزت رأسها نفيًا دون أن تتحدث، فقال:

- بهذه الطريقة ستمرضين حقًّا إن لم تأكلي أي شيء.

- أنا لا أشعر بالجوع حاليًّا.

فأنهى عصيره سريعًا وقام ليعد لنفسه البيض المقلي سريعًا مع قطعتين من الخبز ثم حمل كل ذلك وعاد ليجلس معها على الطاولة، فسألته:

- أتريد أن أضع لك الخبز في الفرن ليسخن قليلًا؟

ثم صاحت وهي تحرك يدها أمام وجهها العابس:

- يا إلهي، ما هذا؟

إنها بعوضة.

فأسرع هو ليسحقها بين كفيه، وقال بامتعاض:

- بعوض، وذباب، وبراغيث، يبدو أننا عدنا إلى العصر الذي كانت الحشرات تحكم فيه العالم.

فقالت بنفس الامتعاض:

- هذا ليس جيدًا أبدًا، فتلك الأشياء تنقل الأمراض، ويجب أن نحيط سرير (كاثي) بشبكةٍ فوق تلك الخيمة.

- حسنًا، بالطبع سوف نفعل.

- لا أظن أن (البخاخات) القاتلة للحشرات تجدي نفعًا.

- حقًّا!

مع أنه من المفترض أنني أحضرت أفضل ما في السوق.

هل أنتِ واثقة أنك لا تريدين بعض القهوة؟

- لا، أشكرك.

وبدأ في تناول فطوره، ثم توقف وقال:

- أتمنى ألا يكون هذا الوقت موسم لتكاثر الحشرات؛ أتذكرين تلك السلالة العملاقة من الجراد التي كانت موجودة في (كولورادو)؟

- نعم بالتأكيد.

- هل تظنين أن الحشرات تمر بطفرٍ ما؟

أو تحور في تكوينها؟!

- لا أفهم ما الذي تعنيه؟

- أقصد أنها تتغير فجأة بأن تقفز مجتازة عشرات الخطوات التطورية التي قد تحتاج إلى قرونٍ لتصل إليها، لكن شيئًا ما حفز تلك التطورات وسرع فترة حدوثها.

- هل تقصد مثلًا تجارب التفجيرات النووية؟

- ولِمَ لا؟!

فهي تتسبب طوال الوقت في عواصف ترابية وقد تكون أيضًا هي السبب في ذلك الأمر.

فتنهدت بغضب، وقالت ساخرة:

- ويقولون أننا ربحنا الحرب.

فقال بنفس طريقتها الساخرة:



- لا أحد منا قد ربح شيئًا، فالرابح الوحيد هو البعوض.

- نعم، أعتقد أنك على حق.

ومرت دقائق من الصمت التام، لم يشــقه إلا صوت الشــوكة وهي تســير على الطبق، والكوب وهو يغادر ويعود إلى صحنه حتى ســألته (فيرجينيا):

- هل تفقدت (كاثي) خلال الليل؟

- لا لــم أفعل، ولكنني مررت على غرفتهــا منذ قليل، وكانت تبدو لي بخير.

- رائع.

ثم سألته مرة أخرى:

- ألا تظــن أنه من الأفضل أن نرســلها إلى أمك في الشــرق حتى تتحسن الأوضاع هنا، فقد يكون هذا الشيء معديًا؟

فقال بشك:

- ربما قد نلجأ إلى ذلك، ولكن إن كان هذا المرض معديًا، فالمكان عند أمي لن يكون أكثر أمنًا من هنا.

فنظرت إليه بقلقٍ للحظات حتى أكمل:

- أعتقــد أن هذا هو الصــواب يا حبيبتي، وإن ســاءت الأمور فلن نرسلها إلى المدرسة.

وهمت بأن تناقشه إلا أنها تراجعت وقالت:

- حسنًا كما تشاء.

فنظر إلى ساعته، وقال:

- يجب أن أنتهي قبل أن يحين الوقت.

وشرع يكمل طعامه سريعًا، وما أن انتهى حتى حمل الطبق والكوب وأخذ يغسلهما، فسألته:

- هل أحضرت الصحيفة بالأمس؟

- نعم ستجدينها في غرفة المعيشة.

- وهل يوجد بها أي جديد؟

- لا شيء، فالأمر ينتشر في البلاد طولها وعرضها القليل هنا والكثير هناك، وحتى هذه اللحظة لم يتمكنوا من تحديد هوية الجرثومة المسببة للمرض.

فعضت شفتها السفلى، وقالت:

- ألم يتمكن أحد من ذلك؟

- لا أظن، فلو أن أي شخصٍ فعلها لأعلنوا الخبر على الفور.

- حسنًا، لا بد أنهم حققوا بعض النجاح على الأقل!

- ربما، ولكن ما الفائدة حتى الآن؟

لا شيء، فكل ما نمر به بسبب الحرب الجرثومية وتجاربها اللعينة.

- هل تظن ذلك حقًّا؟

- لا أحد يعرف شيئًا.

فقالت له بخوف:

- لا، يجب عليك الذهاب إلى العمل يا حبيبي.

فرد عليها بتساؤل:

- وماذا سأفعل غير ذلك؟

فنحن يجب أن نجد ما نأكله.

- أنا أعرف ولكن...

فقاطعها بأن مد يده وأمسك بيدها، وهاله مدى برودة كفها الصغيرة، وقال بتردد:

- سيكون كل شيءٍ على ما يرام.

- هل تعتقد أنه يجب أن أرسل (كاثي) إلى المدرسة؟

- ولِمَ لا؟!

إلا إن كان هنــاك أي تصريح من منظمة الصحــة العالمية يقول بأن المدارس سوف تغلق أبوابها، فلماذا نبقيها بالمنزل وهي ليست مريضة؟

- ولكن الكثير من الأطفال في المدرسة مرضى.

- لكنها بخير.

فتنهدت وقالت:

- حسنًا، سأفعل ما دمت ترى أن ذلك هو الصواب.

- هل ترغبين بأي شيءٍ قبل أن أذهب؟

هزت رأسها نافية، فأكمل:



- والآن ستبقين طوال اليوم في السرير كما اتفقنا.

- نعم سأفعل، ولكن بعد أن تذهب (كاثي) إلى المدرسة.

فضمها إليه بحنان، وفجأة ســـمع صوت بوق الســـيارة في الخارج، فأنهى قهوته سريعًا، وذهب إلى الحمام ليغسل فمه، ثم تناول معطفه من الخزانة التي في الردهة، وطبع قُبلة على خدها وقال:

- إلى اللقاء يا حبيبتي، وهوني على نفسكِ.

- إلى اللقاء، وكن حريصًا أرجوك.

غادر المنزل، وعبر خلال الحديقة الأمامية وشعر بالغبار الثقيل وهو يتســـلل إلى أنفه وفمه، فتح باب السيارة ودخلها، ثم أغلق الباب خلفه، وقال:

- صباح الخير.

- صباح النور.

هكذا أجابه (بين كورتمان).

الفصل السابع

مرشح مقطر من العائلة البصلية.

خليط يتكون من عدة فصائـــل هي الكراث، والثوم الجبلي المعمر، والبصل، والكراث الأندلســـي، ويتحول كل ذلك بعد خلطه إلى سائلٍ باهـــت اللون له رائحة نفاذة ويتكون في الأســـاس مـــن (كبريتيد ميثيل الأليل) أو ما يطلق عليه اسم (ألكايلات الكبريتيد) وهو عبارة عن:

ماء بنسبة ٪64.6

وبروتين بنسبة ٪6.8

ودهون بنسبة ٪0.1

ونشويات بنسبة ٪26.3

وألياف بنسبة ٪0.8

ورواسب بنسبة ٪1.4

- أهذا كل ما في الأمر؟!

قالها وهو يتحسس إحدى رؤوس الثوم في كفه، فطوال سبعة شهور كاملة كان عليه أن يحصل بصعوبةٍ على الثوم ليجمع فصوصه في قلائد



عطرية يقوم بتعليقها خارج منزله دون التفكير في ذلك السـبب الغريب التي يجعل مصاصي الدماء يفرون منه هو على وجه التحديد.

وقد حان الوقت ليعرف السـبب، فوضع تلـك النباتات على حافة المغسـلة (الكراث، والثـوم الجبلـي المعمر، والبصـل، والكراث الأندلسي) وتساءل:

- هل ستعمل تلك الأشياء كما يعمل الثوم؟

إن كانت الإجابة بنعم، فسيشـعر أنه في قمة الغباء بعد أن تعين عليه لشهور أن يذهب لأميالٍ طويلة بحثًا عن الثوم في حين أن البصل يوجد في كل مكانٍ حوله تقريبًا.

قـام بجمع الفصوص وتقطيعها إلى أجـزاءٍ صغيرة، ثم بدأ بخلطها جيدًا مع بعضها البعض بواسـطة سـكينٍ كبير كذلك الذي يسـتخدمه الجزار، وفاحت من حوله رائحة حمضية نفاذة.

- حسنًا؛ وماذا الآن؟

فالماضي لم يتمكن من تقديم المسـاعدة له، فلم يكن هناك سـوى أحاديث عن أن الحشـرات هي الحاملة للفيروس، ولكنها لم تكن هي السبب ولم يكن كذلك الفيروس، إنه على يقينٍ من كل هذا.

الماضي قدم له شيئًا آخر.. (الألم).. الألم مع الذكريات، فكل كلمة كانت كنصل سكينٍ يخترق جسده، فالجروح القديمة عادت لتنزف من جديد مع كل لحظةٍ يفكر بها في (فيرجينيا) وكان عليه أخيرًا أن يتوقف، فأغلق عينيه وضم قبضته بقوة، وحاول بإلحاحٍ أن يتقبل الوضع الراهن

الذي يعيشـــه الآن في الحاضر دون أي قدرٍ من الحنين أو الاشتياق إلى الماضي.

ســـيحتاج إلى ما يكفي من الشـــراب كي يتجاوز هذا الســـفه الذي يعتريه، وليتمكن من شق طريقه وسط الكثير من الذكريات المؤلمة.

ركز ببصره على نقطةٍ وهميةٍ في السقف، وتمتم:

- اللعنة؛ ألا يمكنك أن تفعل أمرًا مفيدًا؟!

ثم حول عينيه إلى الورقة التي كتب فيها المعادلة ونسب المكونات، وأكمل محدثًا نفسه:

- هل يكون السر في الماء؟

بالطبع لا، فكل الأشياء تحتوي بداخلها على الماء

ربما البروتين؛ لا

إذًا الدهون؛ لا

حسنًا النشويات؛ لا

الألياف؛ لا

الرواسب أيضًا؛ لا لا لا

إذًا أين يكمن السر؟

فالرائحة والطعم المميزان للثوم تكمن في نسبة (الزيوت الأساسية) التـــي توجد به بمقـــدار 0.2٪ من وزنـــه، والتي تتكون بالأســـاس من



(كبريتيد مثيل الأليل) بالإضافة إلى (أيزوسيانات الأليل) فهل يختبئ السر في تلك المنطقة بالتحديد؟

ثم عاد من جديدٍ إلى الكتاب، وقرأ:

- يمكن تحضير (كبريتيد ميثيل الأليل) عن طريق تسخين زيت الخردل مع (كبريتيد البوتاسيوم) حتى درجة حرارة 100 درجة مئوية.

ارتطم بأحد الكراسي في غرفة المعيشة، فزفر بقوةٍ ونقم، وقال بغضب:

- ومن أين لي بـ (زيت الخردل) اللعين و(كبريتيد البوتاسيوم)؟

وحتى إن حصلت عليهما، فمن أين سأحصل على المعادلة التي تلزم لإنجاح التجربة؟

ثم صمت للحظات قبل أن يستطرد موبخًا نفسه:

- رائع جدًّا؛ إنها الخطوة الأولى فقط وها أنت ذا بعدها عاجز تسقط على وجهك كالأبله.

ثم توجه إلى خزانة الشراب وبينما هو يصب لنفسه كأسًا توقف فجأة وأبعد زجاجة الخمر، فهو لا يريد بعد الآن أن يسير كرجلٍ أعمى يترنح كلما خطا خطوة، إنه لا يريد أن يفقد عقله ويتحول إلى شخصٍ بلا قيمة كشجرةٍ غير مثمرة، بل عليه أن يحاول الوصول إلى إجابةٍ وحينها سيختلف الأمر كليًّا، فسواء نجح في ذلك أو فشل، فعلى الأقل يكفيه شرف المحاولة.

تطلع في ساعته، فوجدها العاشرة والثلث صباحًا، إذًا ما زال الوقت مبكرًا جدًّا ، فتحرك سريعًا بحزمٍ وأحضر دليل أرقام الهواتف الأرضية، وأخذ يبحث عن مكانٍ محدد في (إنجلوود).. ربما يمكن أن يستفيد منه.

* * *

ومرت أربع ساعاتٍ من العمل الجدي وهو يقف منتصبًا أمام طاولة البحث ونبضات من الألم تسري في مؤخرة عنقه بينما هو يمسك بإبرة حقن تحت الجلد مليئة بـ (كبريتيد ميثيل الأليل) وفي أعماقه شعور رائع بالفخر، فها هو يحقق أول إنجازاته الحقيقية منذ أن أصبح مجبرًا على الحياة وحيدًا تحت إجراءات العزل.

ركض إلى سيارته وهو متحمس، وقاد مجتازًا المنطقة التي قام بتطهيرها كليًّا وقام بوضع علاماتٍ محددة بالطبشور الملون، وكان على يقينٍ من أنه من الوارد جدًّا أن يعود بعض مصاصي الدماء للتجول مرة أخرى في تلك المناطق المطهرة بل والاختباء بها، ولكنه لم يكن يمتلك الوقت الكافي للبحث والتفتيش.

أوقف سيارته بجوار أحد المنازل ودخله متوجهًا بحذرٍ إلى غرفة النوم، فوجد امرأة شابة ترقد هناك وحول فمها بقايا من آثار دماءٍ متجلطة، فقلبها (نيفيل) على وجهها ورفع عنها تنورتها، ثم حقنها من الخلف في أعلى الورك بـ (كبريتيد ميثيل الأليل) وبعد ذلك أعادها إلى وضعها السابق.

وظل واقفًا أمام الســرير لأكثر من نصف ساعة يراقبها بدقةٍ شديدة، ولم يحدث شيء.

- هذا أمر لا يُعقل.

قالها لنفسه وهو يجادلها، ثم أكمل:

- أنا أعلق الثوم حول المنزل، وذلك يجعل مصاصي الدماء يبتعدون عــن المكان، والآن وقد حقنت تلك المــرأة وهي واحدة منهم بالزيت الخاص بالثوم لكنها لم تتأثر ولم يطرأ عليها أي تغير.

اللعنة؛ نعم لم يحدث شيء.

أخرج من جســدها الإبرة وهو يزفر بمزيجٍ من الغضب والإحباط، وعاد إلى المنزل.

* * *

قبل أن يحل الظلام قام بوضع لوحٍ خشــبيٍّ صغير وعلق عليه قلادة من البصل، وقضى ليلة فاترة يقاوم الشــعور باليأس بحثًا عن المزيد من المعلومات مما أبقاه غير راغب في تناول أية كميات من الشراب، وفي الصباح توجه إلى الخارج ليجد أن الشظايا الخشبية مبعثرة في كل مكانٍ بالحديقة.

* * *

حمل في يده صليبًا ذهبيًّا لامعًا، وتساءل:

- إنه أيضًا يخيف مصاصي الدماء ويجعلهم يفرون بعيدًا.

ولكن لماذا؟

هل يوجد لهذا الأمر إجابة منطقية بعيدًا عن الانزلاق إلى التفسيرات الدينية؟

لا يوجد بالطبع سوى طريق واحد فقط لمعرفة ذلك.

سـحب امرأة من سـريرها وقد قرر أن يأخذها معه إلى منزله وهو يتظاهر بعدم ملاحظته لسؤالٍ مُلح قفز للتو أمام ناظريه؛ لماذا دائمًا يقوم بتجاربه على النساء؟

فهو لا يعرف حقًّا، هل الأمر مصادفة وما الذي يجب أن يستنبطه إن اعترف بأنه ليس كذلك؟!

ربما لا يعدو كل شيءٍ عن كونها أول من قابلها في طريقه إلى داخل البيت، وهذا هو كل شيءٍ لا أكثر ولا أقل.

- ولكن ألم يكن هناك رجل مر به في غرفة المعيشة؟

هكذا جادله ضميره، فتمتم حانقًا:

- بحق السماء أنا لن أمسها بسوء.

ثم أكمل الجدال ساخرًا:

- أنا لن أغتصبها.

- حسنًا، هل يمكنك أن تقسم يا (نيفيل)؟

ولكنـه فضل تجاهل هذا الحوار الداخلي السـخيف، وهو يظن أن عقله يخفـي في أعماقه واحدًا منهم يجعله دائمًـا يفكر بتلك الطريقة، تلك الطريقة التي كان يطلق عليها قديمًا اسـم (الضمير) وكانت تمنعه

عن القيام بالكثير من الأمور ولكن"الآن الأمر لا يزيد عن شـــعورٍ خافت بالضيق، فبعد كل ما تحتم عليه أن يمر به، أصبح قانون الأخلاق الوحيد المعمول به هو القانون الذي يضعه بنفسه فقط.

- إنه عذر رائع يا (نيفيل).. أليس كذلك؟

- اخرس أيها الحقير.

لم يكن يرغب في قضاء كل فتـــرة الظهيرة بجوارها تحت تأثير هذا الجدال، فتوجه إلى المرأب ومكث به بعض الوقت، ثم خرج ليتســكع بالســيارة حول المنازل القريبـــة منه وتركها موثقة في أحد الكراســـي وكانت ترتدي فستانًا أسودًا ممزقًا يكشف عن أعلى صدرها عند الرقبة مما جعله يرى حركة أنفاســـها، فبغض النظر عن أي شـــيءٍ وكل شيءٍ، هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أنها على قيد الحياة، نعم هي كذلك ولكن ليس بالنسبة له.

وفي النهاية جاء الليل وحل الظلام، فأغلق باب المرأب جيدًا وعاد إلـــى المنزل وتأكد من إحـــكام غلق الباب الأمامي ثـــم تأكد من وضع العارضة الحديدية في الخلف، وأعد لنفســـه كأسًا من الشراب وحملها وتوجه إلى الأريكة المقابلة للمرأة وجلس عليها.

من الســـقف وبالتحديد أمام وجهها كان قد علـــق صليبًا، وفي تمام الساعة السادسة والنصف مساءً فتحت عينيها فجأة كعيني شخصٍ غلبه النوم وهو مكلف بفعل شيءٍ في غاية الأهمية واستيقظ للتو على عجل،

أخذت تقــوم بحركاتٍ مبهمة دون وعيٍ وبطريقــةٍ متكررة وكأنها تريد شيئًا ما.

وما أن لمحت الصليــب حتى أبعدت عينيها عنــه على الفور وفي منتهى السرعة، ثم بدأ جسدها ينتفض ويتلوى على المقعد وهي تجاهد كي تسحب الأنفاس إلى داخل صدرها من شدة اللهاث.

فقال (نيفيل):

- لماذا تخافين منه؟

وقد خرجت نبــرات صوته غريبة لدرجة أنه قد اندهش منها، وفجأة حولت نظرها إليه مما جعله يشــعر بقشــعريرةٍ باردة تسري في عروقه، فقد كانت نظراتها مرعبة وقد أخرجت لسانها المتوهج وأخذت تلعق به شــفتيها الحمراوين كما لو أن لفمها حياة خاصة مستقلة به، كما أخذت تحني جســدها وهي تحــاول أن تقترب منه أكثر بينما حشــرجة خانقة تعبر من حلقها مصدرة صوتًا يشــبه صوت كلبٍ جائع يدافع عن عظمته الوحيدة.

فصاح بغضبٍ وبصوتٍ مرتفع:

- الصليب؛ لماذا تخافين منه؟

فبدأت تتحرك بطريقةٍ أسرع محاولة فك قيودها عن طريق حكهم في جانب الكرســي دون أن تتفوه بحرفٍ واحدٍ بالطبع، فكل ما كان يصدر منهــا مجرد تمتمات غيــر مفهومة وأصوات صيحات خشــنة وأنفاس

متلاحقة، ثم أخذت تتلوى بجسدها على الكرسي وهي تحدق فيه بكُرهٍ شديد.

فانفجر بهياجٍ قائلًا وهو يقف أمامها:

- الصليب؛ ما هو السر؟

ثم ألقى بالكأس من يده ليفرغ ما بها من خمرٍ على السجادة، ومد يده وأمسك بالخيط الذي علق فيه الصليب وسحبه منه ووضعه أمام وجهها مباشـــرة وهو يحركه يمينًا ويســـارًا بين عينيها، فأخذت تنتفض بجنون وتبعد رأســـها بحركاتٍ عنيفة وتزمجر وتصـــرخ دون توقف، ثم تحول صوتها إلى ما يشبه أنين شخصٍ يعاني من آلامٍ مبرحة لا شفاء منها.

- انظري إليه؛ هيا.

فعادت لنفـــس الصراخ مرة أخـــرى بينما أخـــذت عيناها تتجولان بوحشـــيةٍ في زوايا الغرفة، هاتان العينان الكبيرتان الشاحبتان والتي بكل واحدةٍ منهما بؤبؤ وكأنه بقعة صغيرة من السخام.

فأحكم قبضتيه على كتفيها وأخذ يهزها بعنفٍ غير عابئٍ بتلك الدماء النازفة بغزارة حتى شـــعر بتقلصاتٍ حادة في عضلات معدته من شـــدة الغضب، فأخـــذ يكيل لها اللكمات في وجهها بعنـــفٍ وهمجية، وبعد عشر دقائق من الجنون أمسك بها وسحبها عبر الرواق ثم ألقى بها خارج المنزل وأسرع ليصفق الباب في وجوههم ما أن حاولوا الاقتراب منه ثم وقف بلا حراك يحاول تمالك نفسه والسيطرة على أنفاسه المتلاحقة.

وبعد قليلٍ وبالرغم من الجــدران العازلة للصوت إلا أنه تمكن من سـماع صيحاتٍ عالية مرعبة، كأن قطيعًا من الذئاب يتقاتل على فريسةٍ شهية.

وأخيرًا ذهب إلى الحمام وصب الكثير من الكحول ليغسـل الدماء من عليه.

الفصل الثامن

انحنـــى (نيفيل) أرضًا والتقط بيده اليمنى قطعة طينية جافة من التربة وأخذ يحركها بين أصابعه قبل أن يسحقها إلى فتاتٍ من الغبار السميك، ثم تساءل:

- كم عددهـــم من تحولوا إلى جزءٍ من الوحل والطين منذ أن بدأت القصة؟

فهز كتفه بحسرةٍ وهو يجيب عن سؤاله:

- إنهم القلة الغالية.

ثم عاد ليطرح سؤالًا آخر:

- أين تكمن الأسطورة؟

أغلق عينيه وسمح لفتات الغبار أن يتسرب ببطءٍ من بين أصابعه، إنه ســـؤال بلا إجابة، فهؤلاء الذين تحللوا وتحولوا إلى جزءٍ من التربة، هم أنفسهم من عادوا بعد الموت، إنها نظرية مربكة جدًّا.

سيضم هذا السؤال إلى بقية الأسئلة التي تبحث عن إجابة والتي كان آخرها ما حدث له في الليلة الماضية وجعله يتساءل:



- ماذا سيكون رد فعل مصاص دماءٍ غير مسيحي عندما يجد الصليب أمام عينيه؟

عندما كرر السؤال وجد نفسه يضحك بصوتٍ غريب يشبه نباح كلبٍ مريــض، وفكر حينها أنه لم يضحك منذ وقــتٍ طويلٍ جدًّا حتى أنه قد نســي متى كانت آخر مرة ضحك فيها من قلبه وها هو عندما يفعل الآن تخرج ضحكته وكأنها نباح مزعج لكلبٍ عجوز.

يبدو أن هناك عاصفة رملية خفيفة ســتهب وتعجب من أنها ستهب حاملة معها الذكريات

(فيرجينيا)

(كاثي)

وتلك الأيام الفظيعة.

حاول أن يتمالك نفسه وفكر أنه لا ينبغي أن ينساق إلى الماضي الذي سيحمله إلى زجاجة الخمر بينما هو للتو بدأ يتقبل الحاضر ويتعامل معه بنضج، وأخذ يفكر مرة أخرى:

- لماذا اختار أن يبقى على قيد الحياة؟

- ربما لا يوجد سبب منطقي لذلك غير أنه أحمق وغبي.

ثم صفق بكفيه وقال:

- وماذا الآن؟

وأخذ يتطلع حوله وكأن هناك شـــيئًا يســـتحق النظر إليه وسط شارع (سيمارون) الغارق في سحابةٍ من الصمت.

- حسنًا لنرى ماذا ستفعل المياه الجارية!

هكذا قرر باندفاعٍ وأســرع ليدفن أحد الخراطيم تحت الأرض، ثم ركض إلى حوضٍ صغيرٍ مصنوع من الخشـــب وجعـــل المياه تعبر من خلاله عبر حفرةٍ إلـــى خرطوم آخر بدأ في ضخ دفقات من المياه خارج الأرض، وبعد أن انتهى مما يفعل عـــاد إلى المنزل وتحمم وحلق ذقنه وفـــك رباط الضماد من حول الجرح الذي أصيب به في الأمس وتفقده فوجده نظيفًا وبحالةٍ جيدة، وهذا يعني أمرًا واحدًا فقط وهو أنه محصن ضـــد الإصابة بتلك العدوى، وهو الأمر الذي أثبتته له الأيام والشـــهور الفائتة.

في تمام السادســـة والثلث ذهب إلى غرفة المعيشـــة ووقف خلف ثقب المراقبة وبســـط جســـده محاولًا التغلب على الألم الذي يشعر به في عضلاته، وعندما لم يلحظ شيئًا غريبًا في الخارج، أعد لنفسه شرابًا، وعندما عاد مرة أخرى إلى ثقب المراقبة شـــاهد (بين كورتمان) يســـير على عشب الحديقة، فتمتم (نيفيل):

- تعال إلى الخارج يا (نيفيل).

وفي نفس اللحظة كرر (كورتمان) نفس الجملة وكأنه صدى صوت لكنه قالها بصراخٍ مرتفع:

- تعال إلى الخارج يا (نيفيل).

وظل (روبــرت نيفيل) في مكانه بلا حركــة يراقب (بين كورتمان) فوجده لم يتغير كثيرًا عما كان عليه في الماضي، فشعره لا يزال أسودًا، وجســده مائل إلى السمنة، وجهه أبيض دائري، ولكن كانت هناك لحية نامية حول ذقنه أسفل فمه تحديدًا وخفيفة من عند وجنتيه، وهذه اللحية هي غالبًا الاختلاف الوحيد الذي طرأ عليه.

دائمًا ما كان (بين) يحلق لحيته بطريقةٍ نظيفة وتفوح منه رائحة عطره المميز كل صباح عندما يحضر إلى منزل (نيفيل) كي يقله إلى العمل.

لقد كان شــعورًا مؤلمًا أن يقف هناك ينظر إلى (بين كورتمان) الذي أصبح غريبًا عنه كليًّا بعد أن تحول إلى مسخ، وأخذ يتذكر كيف أنه اعتاد لأيامٍ طويلة أن يتحــدث معه طوال الطريق إلى العمل عن الســيارات الحديثة ونتائج مباريات البيسبول وعن السياسة ثم في الأوقات الأخيرة عن المرض وطريقة انتشاره وعن (فيرجينيا، وكاثي) وبالطبع عن زوجته (فريدا).

طأطأ (نيفيل) رأسه، فلا طائل من كل هذه الترهات، فالماضي ميت الآن تمامًا كما هو الحال مع (كورتمان).. إن مســألة التعود هي شــيء غريــب، فقد أصبح وجود جثث هؤلاء المســوخ في الخارج أمرًا تافهًا بالنسبة له.

فكر في ذلك وهو يرتشــف بعضًا من شــرابه، ثــم أجبر عقله على التفكير بأمرٍ آخر وهو بمن يذكره (بين كورتمان)!

فطوال الوقت كان يشعر أن (كورتمان) يذكره بشخصٍ ما، ولكن من هو؟

لا يعنيني، فسواء تذكر أو لم يتذكر، لن يشكل هذا فارقًا كبيرًا.

ووضع الكأس الذي بيده على إطار النافذة ثم ذهب إلى المطبخ وفتح صنبور المياه من هناك وعاد إلى مكانه أمام ثقب المراقبة، ومن خلاله شاهد رجلًا آخر غير (بين) وامرأة فوق العشب، ولم يكن أي واحدٍ من ثلاثتهم يتحدث مع الآخر، لا الآن، ولا من قبل، ولا في أي مرةٍ سابقة رآهم يفعلون ذلك، فهم لا يتبادلون الأحاديث أبدًا.

ظلوا يسيرون ويسيرون دون توقفٍ ويدورون حول بعضهم البعض وكأنهم مجموعة من الذئاب دون حتى أن ينظر أحدهم إلى الآخر ولو نظرة خاطفة، فقد كانت عيونهم الجائعة لا تفتأ أن تنظر إلى المنزل الذي توجد بداخله فريسة يتمنون الحصول عليها.

وفي هذه اللحظة شاهد (كورتمان) المياه تجري من خلال الحوض الخشبي فذهب ليلقي عليها نظرة وبعد دقيقةٍ رفع وجهه الأبيض الباهت وهنا شاهده (نيفيل) يبتسم بسخرية، فتجمد في مكانه بذهولٍ يراقب ما يحدث فوجد (كورتمان) يقفز من فوق الحوض ثم يعود مرة أخرى، فشعر (نيفيل) بصدمةٍ جعلته يلتقط أنفاسه بصعوبةٍ وهو يتمتم:

- يا إلهي، إن هذا الوغد يعرف بالأمر.

وبخطواتٍ متصلبة سار إلى غرفة النوم ومد يده المرتعشة وفتح درج المكتب وتناول واحدًا من مسدسيه، وبينما كان (كورتمان) يقف بجوار

الحوض إذا برصاصةٍ تخترق كتفه اليسـرى، فتراجع إلى الخلف قليلًا بخطواتٍ مترنحة وهـو يزمجر بغضبٍ ويركل الهـواء بقدميه، وأطلق (نيفيل) الرصاص مرة أخرى ولكن الطلقة طاشت على بعد سنتيمترات قليلة من جسـد (كورتمان) المتأرجح والـذي أخذ يصيح وينبح ليجد الرصاصة الثالثة تستقر في صدره.

وقف (نيفيل) في مكانه يراقب ما آلت إليه الأمور بينما رائحة البارود المميزة تتصاعد من فوهة مسدسه إلا أن المرأة تحركت فجأة لتقف بينه وبين (كورتمان) وترفع طرف فسـتانها كي تحجب عنه الرؤية، تراجع (نيفيل) إلى داخـل المنزل وأغلق الباب خلفه بقوةٍ وهو يسـتغرب ما قامت به تلك المرأة للتو، فقد كشـفت له عن ساقيها كي تشتت انتباهه ولكنه لم يكن ليسمح لنفسه بالنظر إليها.

صدح صوت (كورتمان) عاليًا يدعوه للخروج فأسـرع (نيفيل) إلى ثقب المراقبة، فشـاهده يتحرك حول المكان بسرعةٍ وغضب، وتحت ضوء القمر الخافت ظهرت له ملامح وجهه فتذكر بغتة بمن كان يذكره وحينها لم يتمالك نفسه وأخذ يضحك حتى أن جسده كله كان يهتز.

إنه يذكره بـ (أوليفر هاردي) ذلك الممثل الكوميدي السمين الذي كان يشارك في مسلسل (لوريل وهاردي) الشهير، فـ (كورتمان) كان مثله قصير القامة وممتلئ الجسـم وله شـارب يشابه شارب (هادري) تمامًا.

(أوليفر هاردي) يترنـــح تحت تأثير الرصاصـــات، ولكنه يعود من جديد للحصول على المزيد دون أن يشعر بسوء

(أوليفر هاردي) ممزق بالسكاكين، ومدهوس بالسيارات، ومحطم تحت المداخن المنهـــارة، ومغور في المياه داخـــل القوارب الغارقة، ومقذوف عبر النوافذ والمواسير، ولكنه في كل مرة يعود مع القليل من الكدمات والخدوش.

هذا بالضبط ما كان عليه (بين كورتمان) ولكن مع الكثير من الخبث والضغينة، واســـتمر (نيفيل) في الضحك ففي حقيقة الأمر هو لم يكن يضحـــك بل كان يفرغ ما بداخله من كبـــت، فها هي الدموع تنهمر على وجهه بينما جســـده يهتز لدرجة أن الشراب الذي في كأسه أخذ يتقاطر على ملابســـه مما جعله يضحك أكثر حتى أن الكأس ســـقطت من يده على الســـجادة مما جعله ينتفض بقوةٍ غيـــر متحكم فيما يقوم به والذي كان خليطًا عجيبًا بين الضحك والبكاء، القهقهة والصراخ.

* * *

غرس الوتد في المعـــدة، وفي الكتف، وفي الرقبـــة مع ضربةٍ قويةٍ بمطرقة، وفي الســـاقين والذراعين، وفي كل مرةٍ النتيجة واحدة؛ الدماء تتدفق، ذلك الســـائل الأملس القرمزي يســـيل على الأجساد البيضاء، وظن أن الإجابة تكمن في فقدان الدم؛ نعم إنه النزيف.

حتى وجد المرأة في المنزل الأبيض ذي الخطوط الخضراء وعندما أقحم الوتد الخشـــبي في قلبها تحللت بطريقةٍ مفاجئةٍ وســـريعة، جعله

هذا الأمر يتراجع بذهولٍ ويتقيأ، وبعد أن تمالك نفسه بعض الشيء أعاد النظر مرة أخرى فرأى على ملاءة السرير ما يشابه خليطًا من الملح والفلفل الأسود في نفس المكان الذي كانت توجد به المرأة منذ قليل، وكانت المرة الأولى بالنسبة له التي يرى فيها شيئًا مماثلًا لما رآه للتو.

غادر المنزل وقدماه ترتجفان ثم توجه إلى سيارته وجلس بداخلها لأكثر من ساعةٍ كاملة حتى أفرغ زجاجة كاملة من الشراب وحتى الخمر لم تنجح في معالجة الأمر بداخله، لقد حدث كل شيءٍ بسرعة إلا أن صوت ضربة المطرقة لا يزال يتردد في أذنيه، وشكلها وهي تذوب وتتحلل يتكرر في مخيلته، وتذكر عندما تحدث مرة قديمًا مع أحد زملائه في العمل وكان أسود البشرة وقد درس لفترةٍ الكثير عن طقوس الموت والجنائز وأخبره حينها عما يفعله بعض أصحاب الديانات الأخرى من طرقٍ غريبة لحفظ جثث موتاهم كي تبقى بقدر الإمكان على صورتها دون تغيير؛ وكانت إحدى الطرق هي وضع الجسد في أحد الأدراج المفرغة تمامًا من الهواء، وعلق الرجل قائلًا:

- ولكن ما أن يتسرب القليل من الهواء إلى الداخل حتى يتحول ذلك الميت إلى خليطٍ من الملح والفلفل الأسود.

وأصدر صوت صفيرٍ بفمه وضرب إصبعيه ببعضهما البعض كناية عن الشيء الذي ذهب هباءً، وعاد ليفكر بأمر المرأة وما حدث لها، فربما كانت ميتة منذ زمنٍ بعيد، أي أنها واحدة من مصاصي الدماء القدامى

والذين قاموا بنشر الوباء! إن الله وحده يعلم كم من السنوات ظلت هذه المرأة تفر من الموت بالغش والخداع حتى لحق بها في النهاية.

إنه في غاية التوتر ولذا لن يتمكن من فعل أي شيءٍ اليوم وربما لأيامٍ أخــرى قادمة، وبالفعل ظــل في المنزل، وأفرط في الشـــراب، ثم ترك جثثهم تتراكم فوق عشب الحديقة أمام المنزل وقد تفسخت وأصبحت في حالةٍ ســيئة، ولعدة أيام جلس على كرسيه وكأس الشراب في يده لا يفعل أي شــيءٍ ســوى التفكير بتلك المرأة دون أن يهتم بمدى التعب الذي يشــعر به ولا بكمية الخمر التي تناولها، وفكر أيضًا بـــ (فيرجينا) وتخيل أنه يدخل إلى المقبرة ويرفع غطاء التابوت، كما تخيل أنه آتٍ بها وهي واهنة مشلولة ترتعد وقد أنهكها المرض وأصبحت أطرافها باردة كالجليد.

فهل حقًّا قد أصبحت على هذه الحالة؟

الفصل التاسع

كان صباح مشمس

وظل الصمت هو المسيطر لا يشقه إلا الألحان التي تغرد بها الطيور الملونة داخل أعشاشـــها على أغصان الشـــجر، ولم يكن هناك نســـيم ليحرك البراعم وأفرع الشـــجيرات الصغيرة والأعشـــاب النامية حول المنزل، فغرق شارع (سيمارون) بأكمله في سحابةٍ من السكون الثقيل.

لقد توقف قلب (فيرجينيا) زوجة (نيفيل) الحبيبة عن العمل، وجلس هـــو بجوارها على الســـرير يتأمل وجهها الأبيض وقد أمســـك بأناملها الرقيقة بين يديه يتحســـس أطراف أصابعها بحنانٍ بالغ، لم ترمش عيناه، وظلت شفتاه مضمومتين في خطٍّ مستقيم، وصدره يتحرك حركة بطيئة غير ملحوظة مع أنفاســـه الخافتة، كل ذلك جعله يبدو ككتلةٍ من اللحم والعظام ساكنة تمامًا وخالية من معالم الحياة.

شيءٌ ما يحدث داخل عقله، شيءٌ ما جعله يتحجر ويتحول إلى كتلةٍ صلبة تصدر صوتًا أجشًّـــا وترسل تكلسات يابسة إلى رأسه التي أخذت تمتلئ بالحجارة، وللحظة شعر أن أطرافه لا يصلها أي نبض كمن أصابه الشـــلل، وأخذ يتحرك ببطءٍ شديد حتى صعد إلى السرير، والآن هو في

حالة من الشتات الغامض الذي يجذبه عميقًا إلى الكثير من الكفاح من أجل أن يستوعب ما يدور حوله، فهو لا يفهم كيف تمكن من الجلوس بجوارها بهذا الهدوء؟ ولا يفهم لماذا لم يسحقه اليأس بعنف، وينفيه إلى باطن الأرض؟ ولا يفهم كيف لم يصل إلى مرحلة الانهيار العقلي حتى الآن؟ ولا يفهم أيضًا ما هو سبب توقف الوقت تمامًا، وكأنه مقيد بخطاطيف تمنعه عن الحركة؟

لقد تجمد كل شيءٍ من حوله، فبعد (فيرجينيا) ارتجف الكون بقوةٍ قبل أن يتوقف تمامًا وإلى الأبد.

ومرت ثلاثون دقيقة

أربعون

وربما أكثر

وبعد ذلك بقليل بدأ يعاني من ظاهرةٍ غريبة، فقد وجد جسده ينتفض ليس بسبب رعشةٍ في مكانٍ محدد نتيجة تقلص عضلةٍ هنا أو نبضٍ في عصبٍ هناك بل كان جسده ينتفض كليًّا ككتلةٍ واحدة وبلا توقف وبلا أدنى قدرة منه على التحكم فيما يحدث له، واستمر هذا الحال لفترةٍ وكما بدأ الأمر فجأة انتهى فجأة، وسكن جسده تمامًا، ولأكثر من ساعةٍ كاملة ظل أسيرًا لحالة الشلل تلك يحدق في ملامح وجهها بعينين ألجمهما الخرس..

ثم حان الوقت



هكذا حدث نفســه، فنهض ببطءٍ وهو يتمتم بكلماتٍ غير مسموعة وغير مفهومة وغادر السرير بل وغرفة النوم بأكملها، وفي غرفة المعيشة توقف أمام البار وصب لنفســه كأسًا ممتلئة عن آخرها بالشراب وابتلعه بأكمله على جرعةٍ واحدةٍ وشــعر بالســائل الحار وهو يشق طريقه إلى داخل معدته مسببًا له شــعورًا بالتنميل في نهايته العصبية، وأعاد الكرة مرة أخرى، كوب ممتلئ عن آخره وعلى جرعةٍ واحدة، وجادل نفســه عبثًا:

- لا بد أنه حُلم.

وخرج من أعماقه صوتٌ مرتفع ينادي باسمها:

- (فيرجينيا).

وظــل يتجه من ناحيةٍ إلى أخرى وهو يتجول بعينيه في زاوية الغرفة كما لو كان يبحث عن شــيءٍ ما أو كمن ضيع طريــق الفرار إلى خارج منزل الرعب هذا، ثم تنهد بهدوءٍ وأمســك يده اليســرى بيده الأخرى وضمهما سويًّا كي يحاول إيقاف تلك الرعشــة التي تهز ذراعيه ولكنه فشل، فأبعدهما عن بعضهما البعض وأخذ نفسًا عميقًا وهو ينادي عليها من جديد:

- (فيرجينيا).

ثم أخذ خطوة إلى الأمام، وأطلق مــن أعماقه صرخة عالية جعلت الغرفة ترتج من حوله، فأحس بألمٍ رهيبٍ يعتصر ركبته اليمنى ويرســل نبضات حارقة إلى أسفل ساقه، وتحولت صرخته إلى نحيبٍ وبكاءٍ وهو

يدفع نفسه عنوة عن غير رغبته إلى حدود غرفة المعيشة، وهناك عند الباب تجمد في مكانه وهو في حالة انهيارٍ كتمثالٍ ضربه زلزال، وظلت عيناه محدقتين في اتجاه غرفة النوم حيث يرقد جسدها، وبدأ عقله يعرض عليه مشهدًا لا يمكن أن ينساه أبدًا، فقد رأى نارًا كبيرة مستعرة وكأنها الجحيم نفسه تكاد ألسنتها أن تطال السماء وهي تقذف حممًا صفراء وبرتقالية بينما يعلوها سحابة كثيفة من الغيوم السوداء السميكة والمليئة بالسخام، وكان هو يقف حاملًا بين ذراعيه بحنانٍ وحزنٍ، جسد (كاثي) الرقيق حتى وجد رجلًا يقترب منه فجأة ويغافله، ثم يسحبها من بين أحضانه بقوةٍ وكأنها قطعة من القماش، أسرع الرجل بالفرار والاختفاء وسط الدخان والغيوم والضباب آخذًا معه جثة الفتاة الصغيرة ليلقي بها داخل حفرة السعير بينما ظل هو واقفًا في مكانه وكومة من اللكمات توجه إليه ليستفيق من غيبوبته اللحظية ويندفع خلف الرجل، وهو يصرخ بجنون:

- (كاثي).

لكن عددًا من الأذرع الممتدة أمسكت به بقوة، إنها لرجالٍ يرتدون رداءً خاصًّا واقيًا وأقنعة معدنية تغطي رؤوسهم ودفعوه إلى الخلف بمنتهى العنف، فاختل توازنه حتى أن حذاءه طار من قدمه وهو يسقط إلا أنه تمسك بالأرض وهم يسحبونه للوراء وقد تركت يداه أثرًا لخندقين صغيرين دليلًا على مقاومته التي لم تكن كافية لمواجهة كل هذا العدد منهم، وكاد أن ينفجر رأسه من الألم الذي يشعر به فصرخ

باســتماتةٍ ويأس، وأخيرًا هبطت صاعقة على فكــه أفقدته الوعي لنهارٍ كامل حتى جاء الليل وبدأ يســتعيد إدراكه لما حوله وقطرات من المياه تبلل شــفتيه، فسعل بألمٍ والتقط أنفاسه بعد أن كاد أن يختنق وأخذ ينظر حوله ليجد أنه داخل ســيارة (بين كورتمان) الــذي يقودها مبتعدًا عن حفرة النار والدخان المتصاعد منها إلى الأعلى ليتراكم ويتشكل وكأنه أحد الأشباح الشريرة.

عندما استعاد المشهد الذي كان آخر ما يربطه بطفلته الصغيرة، ضغط بشدةٍ على أسنانه وقال بعنادٍ وتحدٍّ:

- لا.

فهو لن يضــع (فيرجينيا) هناك هي الأخرى حتى وإن اضطروا لقتله من أجل ذلك.

* * *

بخطواتٍ بطيئــة متثاقلة توجه إلى باب المنزل وغــادر إلى الرواق الخارجي ثم أخذ يســير على الأعشاب متلمسًا طريقه إلى حيث يوجد منزل (بين كورتمان) وكان وهج الشــمس قاســيًا حتــى أنه أظهر بؤبؤ عينيه وكأنه نقطة صغيرة الحجم وأكمل ســيره بالرغم من كل ما يشــعر بــه من أوجاعٍ ووخزٍ ونبضاتٍ كطعنات الخناجر، وأخذ يفكر ســرًّا في مدى سخافة الحياة وتفاهتها وأنها لا تستحق كل ذلك القتال من أجلها، ولكن (فيرجينيا) تستحق، فهو لن يسمح أبدًا بأن يكون مصيرها كمصير

(كاثي) في قعر حفرة اللهب تلك، ولن يعنيه إن كان ما سـيفعله مخالفًا للقانون، ولن يعنيه إن كان ثمنه أن يُقتل، فهو لن يضعها هناك أبدًا.

هكـذا ظل يفكر حتى وصـل إلى حيث منزل (بيـن) فطرق الباب بيدٍ مرتعشـة وهو ينادي باسـمه عاليًا، لكن الصمت هو الجواب الذي استقبله، فأخذ يتأمل الستائر البيضاء الشفافة المتدلية والتي لم تحجب الضوء القادم من السقف ليتحول إلى ظلٍّ ثابت.

- ربما اليوم هو الأحد!

هكذا تسـاءل بعد أن فقـد معرفة ترتيب الأيام التـي تمر به، وتنهد بحرقة وضم قبضته بقوةٍ منفسًـا عن غضبه الشديد ونفاد صبره، فهو لا يزال تحت تأثير الخمر التي تجري في عروقه، وصاح عاليًا:

- (بين).

ثم رفع قبضته وأخذ يطرق على الباب بقوةٍ وهو يتمتم:

- اللعنة؛ أين أنت؟

وتطور الأمر من صرخاتٍ عاليةٍ إلى صياح رجلٍ مسعور ومن طرقاتٍ قوية إلى ضربةٍ عنيفة بالكتف، فُتح الباب على إثرها ليجد (نيفيل) نفسه وسط الردهة الواسعة المغمورة بالصمت، وعاد لينادي عليه:

- (بين).

(بين) أنا أحتاج إلى سيارتك.



وأخيـــرًا وجدهما، وكانا في غرفة النوم يرقدان غير بعيد عن ســـرير طفليهما التوأم، وشـــاهد (بين) يرتدي منامة بينمـــا (فريدا) في قميص نومٍ قصير وكلاهما يجاهد كي يلتقط أنفاسه بصعوبة، فتوقف في مكانه يراقبهما بدهشة، وشاهد عددًا من الجروح الطولية على الجهة الخارجية من رقبة (فريدا) البيضاء وكانت تلك الجروح مغطاة بقشـــرةٍ من الدماء الجافة المتجلطة بينما لم يكن (بين) مصابًا بأي إصاباتٍ ظاهرية، فشعر بصدمةٍ قاسيةٍ لدرجة أن صوتًا غريبًا في داخله أخذ يردد:

- لا بد أن كل هذا حُلم، وسأستيقظ منه قريبًا.

إلا أن صوتًا آخر قال:

- إنه واقع، لن يستفيق منه أحد إلى الأبد.

ووجد سلســـلة المفاتيح على (التســـريحة) فأخذها واستدار سريعًا ليغادر هذا المنزل الذي تفوح منه رائحة الموت الصامت.

دخل الســـيارة على عجلٍ وأعاد الحياة إلـــى محركها، وتريث لعدة لحظاتٍ وهـــو ينظر إلى الأمام عبر الزجاج المكســـو بالغبار، وشـــعر باختناقٍ تحت وطأة حرارة الجو الخانقة داخل الســـيارة، وفجأة عبرت بين عينيه ذبابة منتفخة فأصابته نوبة من الغضب وهز رأســـه بعنفٍ يمينًا ويسارًا، ثم حرك ناقل السرعة، وضغط (دواســـة) البنزين وانطلق، قاد حتى وصل إلى منزله، فأوقف الســـيارة أمام المرأب، وأطفأ محركها ثم أســـرع إلى داخل منزله البارد برودة الموت الذي يسكن فيه، ولم يكن

يصدر من الداخل أي صوتٍ سوى صوت خطواته الثقيلة المحبطة، وما أن وصل إلى مدخل غرفة النوم حتى شعر بغصةٍ في حلقة.

كانــت (فيرجينيا) لا تزال ممددة على ظهرها وذراعيها مبســوطتان بجوارها بينما أصابع يدها منقبضـــة قليلًا، فظهرت وكأنها نائمة، وأخذ هو يحدق بها دون حراكٍ سوى حركة أنفاسه.

بعد برهةٍ استدار وذهب إلى غرفة المعيشة، وتساءل:

- ما العمل الآن؟

الخيارات تبــدو معدومة، فهو لــن يتراجع عن قــراره مهما كانت تكلفته.

وقف أمام النافــذة وأخذ يتأمل بعينيه الخاليتين من الحياة الشــارع المنقوع تحت الشمس، وشعر بلحظة من التردد وهو يتحدث مع نفسه:

- هل ما سأقوم به صحيحًا؟

- ولماذا إذًا حصلت على السيارة؟

- هل سترضى لها تلك النهاية بين ألسنة اللهب؟

- بالطبع لا.

- حسنًا، وما هو الخيار التالي؟

- جميع مكاتب تجهيز الموتى وتحضير الجنائز مغلقة.

- نعم، ولكن قد تمكنت من الحديث مع أحد الرهبان.

- لكــن ذلك التصــرف يعتبر الآن خرقًا لقانــون الطوارئ، فجميع الموتى يجب التخلص من جثثهم حرقًا.

- لن أسمح بذلك.

- لكن هذه هي الطريقة الوحيدة والصحيحة للتخلص من الفيروس.

- نعم، إنه القانون وإنها الطريقة الوحيدة، ولكن ما هو شعور زوج يحمل بين يديه المرأة التي شاركته الحياة ليلقي بها وسط النار؟

وما هو شعور كل أب وأم أخذا الطفل الذي عشقاه إلى أعماق تلك الحفرة؟

وما هو شعور الرجل الذي أودع جسد أبيه ليحترق وهو ينظر إليه بلا حول ولا قوة؟

- لا، لن أقبل بذلك حتى وإن اضطررت إلى محاربة العالم بأكمله.

مرت ساعة ثقيلة بدقائقها الطويلة قبل أن يحسم أمره ويصل إلى قراره النهائي، فأحضر إبرةً وخيطًا ولف جسدها ببطانية، أخذ يخيط طرفيها حول جسدها تاركًا فقط الوجه، وما أن انتهى حتى أسرع ليتناول كأسًا من الشراب فربما يخفف ولو قليلًا من كل هذا التوتر الحاد الذي يشعر به، ولكن يبدو أنه كان بلا تأثير، ثم عاد إلى غرفة النوم ونظر إليها وهو فاقد السيطرة على أنفاسه المتلاحقة وألقى على وجه (فيرجينيا) نظرة حنون قبل أن ينحني ويلف يديه حول خصرها ويحملها على كتفيه وهو يهمس بحبٍّ:

- هيا بنا يا غاليتي.

وانهمرت دموعه بغزارة وهو يحملها إلى خارج المنزل ليضعها في المقعد الخلفي للسيارة التي قادها لعدة أمتار قبل أن يتوقف ويعود مرة



أخرى إلى المنزل ويدخل المرأب ليحضر منه مجرفة للحفر، وبينما هو عائد إلى السيارة لمح رجلًا في الطرف الآخر من الطريق ينظر إليه بريبة، فوضع المجرفة في الخلف سريعًا ودخل السيارة وهو يسمعه يصيح به بصوتٍ أجش:

- أنت؛ انتظر.

حاول الرجل أن يركض مسـرعًا ليلحق به لكنه فشل، فقد كان يظهر عليه المـرض والإرهاق إلا أنه نجح في الاقتـراب قليلًا، وحينها قال بنبراتٍ حزينة:

- أرجوك، دعني أحضر أمي، فهي أيضًا ميتة ولا أعرف كيف أحملها إلى هناك.

وظل (روبرت نيفيل) يحدق في ملامح الرجل بصمتٍ ودون حركة وكأن عقله امتنع عن العمل، وبدا عليه أنه سينفجر في البكاء مرة أخرى لكنه تماسك في اللحظة الأخيرة، وقال:

- أنا لن أذهب إلى هناك.

فقال له الرجل:

- لكن زوجتك...

فقاطعه (نيفيل) بحسمٍ وهو يدير محرك السيارة:

- لقد قلت لك أنني لن أذهب إلى حفرة النار.

- لكنه القانون.

- تبًّا لك ولهم وللقانون.



وانطلق بالسيارة مسـرعًا عبر شـوارع حي (كومبتون) تاركًا خلفه الرجل في حالة ذهول.

ثم تمتم:

- أيها الأحمق؛ هل تظن أنني سوف ألقي بزوجتي في الجحيم؟!

كانت الشوارع محطمة، فقرر أن يغير اتجاهه أكثر من مرة، فانحرف يمينًا ثم ناحية الغرب، وأخذ يراقـب الطريق عن يمينه وهو يفكر كيف سـيتصرف، فمقابر المدينة جميعهـا مغلقة وتحت الرقابـة اللصيقة، والكثير من الأشـخاص تم إطـلاق النار عليهم وهـم يحاولون دفن أحبائهم.

عرج بالسـيارة يسارًا عند مدخل التقاطع الكبير وعبر الحي السكني حتى آخره ثم اختار شـارعًا هادئًا وانعطـف داخله يمينًا، وأطفأ محرك السيارة وتركها تكمل حركتها بقوة الدفع كي لا يشعر أحد بوجوده، وما أن توقفت حتى حمل جثة (فيرجينيا) وسار بها بحذرٍ وسط حديقةٍ عالية الأعشـاب ووضعها هناك برفقٍ وعاد إلى السيارة ليحضر المجرفة، ثم بدأ في الحفر ببطءٍ وحذرٍ تحت أشعة الشمس الحارقة، وأخذت قطرات العرق تتجمع وتنزلق عبر جبهتـه وجبينه لتغمر وجهه وهو يزيحها قبل أن تتسلل إلى داخل عينيه، وبدأت رائحة الأتربة الطينية تفوح من حوله وتملأ صدره، وبعد جهدٍ ووقتٍ لم يحسـبهما انتهى من الحفر، فألقى بالمجرفة جانبًا، وانحنى على ركبتيه وهو يشـعر بجسده يرتجف بينما العرق لا يتوقف عن ملء وجهه، وفي هذا التوقيت حانت اللحظة اللعينة

التي كان يخشاها، فتردد قليلًا قبل أن يحسم أمره، فالوضع بأكمله ليس في صالحه، فلو أن أحدًا ما شـاهده سـيطلق النار عليه فورًا دون تردد، وحينها سوف تحرق جثتها حتى تتفحم، فتمتم:

- لا؛ لن يحدث هذا.

وبقدر ما يستطيع سحبها برفقٍ وحرصٍ حتى وضعها في الحفرة دون أن يصطدم رأسـها بالأرض، ثم نهض ونظر إليها وهي نائمة ومغطاة في قبرها، وقبـل أن ينهار كليًّا، بدأ يهيل التراب على رفقة أحد عشـر عامًا رائعة من الحب والسـعادة والفرح، وشـعر أنه عاجز عن الكلام وعن التنفس وعن الحركـة، لكن كان عليه أن ينجز الأمر سـريعًا، فلا وقت للحداد الآن، وما أن انتهى وسـاوى الأرض جيـدًا حتى انحنى وربت على التربة التي أصبحت فوقها وشـعر بأصابع يده خالية من الإحساس والحياة.

❊ ❊ ❊

تمدد على السـرير مرتديًا كامل ملابسه وشـعره غير مهذب وأخذ يحدق في السـقف الأسـود وهو نصف مخمور ولـم يعرف هل تلك اليرقات التي تحيط به حقيقية أم أنها من نسـج خياله، وبينما هو يحرك ذراعـه اليمنى عاليًا، إذا به يرتطم بالطاولة فتسـقط مـن عليها زجاجة الشراب، وبالطبع فشل في محاولة التقاطها قبل ذلك، فاستقر في مكانه يستمع إلى صوت الخمر وهو ينسكب على الأرض جرعة خلف جرعة.

إنهــا الثانية صباحًا بعد مرور يومين مــن قيامه بدفنها، وعينان اثنتان تنظران إلى الساعة، وأذنان اثنتان تستمعان إلى كل الهمهمات المحيطة بهما، وشــفتان اثنتــان مضمومتان إلى بعضهما البعــض، ويدان اثنتان تتمسكان بطرفي السرير.

وحاول أن يعود بعقله إلى أرض الواقع ولكن كل ما حوله كان يسقط في بئرٍ عميقة من الازدواجية، فهو ضحية الرقم (اثنين) في هذه اللحظة؛

جثتان

شخصان مقربان إليه قد ماتا

سريران في الغرفة

نافذتان

مكتبان

سجادتان

أخذ نفسًا عميقًا من هواء الليل واحتفظ به داخل صدره قليلًا قبل أن يزفر بقوةٍ وهو يتمتم:

- يومان

يدان

عينان

شفتان

ساقان

قدمان.

ثم نهض وجلس على حافة السرير ولامس الخمر المسكوب بأصابع قدميه وهو يتوجه ناحية النافذة ليحدق في الظلام بلا هدف مستنشقًا كل ما يمكنه من هواءٍ قادم من الخارج، وسأل نفسه:

- ما الذي تبقى؟

لكنه لم يحصل على إجابةٍ لسؤاله، فترك الغرفة إلى الحمام وهناك سكب الماء البارد على وجهه عدة مرات، وكرر نفس السؤال:

- ما الذي تبقى؟

وفجأة تجمد في مكانه من الرعب، فقد كان شخصٌ ما يدير مقبض باب المنزل الأمامي، وأصابته قشعريرة بدأت من فروة رأسه حتى أخمص قدميه.

- لا بد وأنه (بين) قد جاء من أجل استعادة مفاتيح سيارته.

هكذا حاول إقناع نفسه.

وسقطت من يده المنشفة التي كان على وشك أن يجفف بها وجهه عندما سمع صوت طرقاتٍ قوية على الباب، فتوجه إلى غرفة المعيشة بخوفٍ وحذر، ودقات قلبه تنطلق بأقصى سرعة، واستمع إلى الباب وهو يهتز مرة أخرى بقوة، فهناك من يحاول أن يفتحه من الخارج، ويبدو أنه نجح للتو.

ما الذي يحدث؟



وشــعر بنســمة هواء باردة تأتي عبر النافذة لتلامــس وجهه، وظل متجمدًا في الظلام وتمتم بنبراتٍ مرتجفة:

- من أنت؟

وعلى الفــور ارتدت يده من على مقبض الباب وتراجع إلى الخلف في خطوةٍ واحــدةٍ وظل واقفًا يتنفس بصعوبةٍ ويحــدق بفزعٍ منتظرًا ما سـيحدث، ولم يحدث شيء، فحاول تمالك نفســه عندما استمع إلى صوت شــخصٍ ما في الرواق الخارجي يتحدث بكلماتٍ لم يســتطع تبينهــا وكأنها همهمات غريبة، فأخذ وضع الاســتعداد ثم اندفع ناحية الباب وفتحه بقــوة، فغمر ضوء القمر الفضي المكان، ولم يتمكن حتى من الصراخ بل ظل فــي مكانه دون أدنى حركة، وأخذ ينظر بذهولٍ إلى (فيرجينيــا) التي كانت تقف أمامه وهي تتلعثم في نطق اســمه بحروفٍ مبعثرة:

- "رو ب رت"

الفصل العاشر

أصدرت وقع خطوات (روبرت نيفيل) صوتًا عاليًا وهو يســـير عبر الممر الرخامي فـــي مكتبة (لوس أنجلوس) العامـــة متوجهًا إلى قاعة العلوم بالطابق الثاني.

اليوم هو السابع من أبريل عام 1976

بعد ما يقارب الأسبوع من التخبط والشتات فيما يقوم به من أبحاثٍ وتجارب، أدرك فجأة أنه يقوم بإضاعة وقته، فإن كانت هناك أية إجابات محتملة فهي لن تكون إلا هنا وسط الأبحاث الموثقة والمعرفة المنطقية.

إنه الآن على الأقل يمتلك نقطة أســـاس يمكنه أن يبني عليها ما يريد من حقائق؛ إنها (الدم).

لقـــد عبر الخطـــوة الأولى في طريـــقٍ طويل بامتلاكـــه نقطة بداية، وستكون خطوته الثانية هي القراءة عن (الدم).

وظلت خطواته سيفًا يشق الصمت الثقيل وهو يسير بثقةٍ في الرواق الذي يتوســـط الطابق الثانـــي، فمصدر الصوت الوحيد فـــي النهار هو الطيور التي تغرد بفرحٍ بعد أن أصبح الكون بأكمله ملكًا لها.

في هـــذا المبنى الضخـــم ذي الحوائط الرماديـــة العالية يوجد كل ما خلفته الإنســـانية قبل فنائها من علومٍ وأبحـــاثٍ وأدب، لقد تمكنت الجـــدران من حماية الكتب ولم تحمِ البشـــر، وها هـــو الرجل الوحيد الباقي على قيد الحياة يجد نفسه عالقًا بلا رجعة في بحرٍ من الأوهام ولا يوجد بجواره أي طبيبٍ نفسيٍّ يمكن أن يقدم له العلاج اللازم لما يعانيه من اضطرابٍ عصبي.

دخل (نيفيل) إلـــى قاعة العلوم وكانت ذات ســـقفٍ مرتفع ونوافذ زجاجيةٍ ضخمة مقسمة إلى مربعات، وما أن عبر الباب الخشبي الكبير حتـــى وجد أمامه مكتبًا صغيرًا وفوقه عدد من الكتب لا بد أنها في نفس مكانهـــا على هذا الوضع منذ أن كان هناك مـــن يكترث لأمر القراءة في العالم.

توقف للحظاتٍ فـــي مكانه يتأمل الغرفة الغارقـــة في الصمت وهز كتفيه بأسى وحدث نفسه:

- كل هـــذه الكتب التي تحتوي على خلاصـــة ذكاء الكوكب الذي أنتجته عقول مبهرة ظلت هكذا لا حيلة لها عاجزة لا تمتلك القدرة على إنقاذ الناس من الهلاك.

وعاد صوت خطواته يُســـمع فوق الرخام الداكن الذي يبطن أرض القاعة وهو يتجه ناحية الأرفف التي على يساره، وأخذ يتفقد البطاقات التي تحمل العناوين التي قُسمت إليها الكتب:

- علم الفلك.

ماذا سيفعل بكتبٍ تتحدث عن الأجرام السماوية؟ لقد فقد اهتمامه بالنجوم منذ زمنٍ ومات هذا الاهتمام مع من ماتوا.

علم الكيمياء.

علوم هندسية.

علم الفيزياء.

تجاوز كل تلك الأرفف ونظر إلى الأعلى، فشاهد مصباحين كبيرين لا يعملان، ووجد السقف مزخرفًا بمربعاتٍ ملونة من الفسيفساء الهندي الملون الذي عكس ضوء الصباح المتسلل من النافذة الكبيرة والمليء بذراتٍ صغيرة من الغبار تتراقص في الهواء، وبجانب الأرفف العالية كانت هناك طاولة خشبية طويلة وعلى جانبيها عدد كثير من الكراسي مرتبة بعنايةٍ شديدة وبطريقةٍ في غاية النظام، وخمن أنه بالتأكيد في اليوم الأخير الذي أغلقت فيه المكتبة أبوابها، لا بد وأن امرأة هي من قامت برصف تلك الكراسي وترتيبها بهذه الطريقة المنظمة، فتلك اللمسة لا شك في أنها نسائية خالصة، وفكر بتلك المرأة التي خلقها خياله فحتى الموت لم يمنعها من وضع لمساتٍ مليئة بالحياة، ولم تمنعها البشاعة من تقديم ما بداخلها من جمال، ثم أمر نفسه بالتوقف عن العبث وسط الأفكار المتزاحمة داخل عقله، وأخذ في تجاوز الأرفف والأقسام التي قُسمت إليها الكتب حتى وصل إلى غايته.

(الكتب الطبية).

وفي هذا القسم تفقد العناوين المتعددة:

علم الصحة العامة.

علم التشريح.

علم وظائف الأعضاء.

حتى قرأ بصوتٍ مسموع:

- علم البكتيريا.

وبدأ يتخير الكتب التي سيحتاج إليها، فتناول خمسة عن علم وظائف الأعضاء ومكونات الدم وطريقة عمل الجهاز الدوري ورصفهم على سطح الطاولة المكسو بطبقةٍ كثيفة من الغبار، وفكر بتردد:

- هل يجب أن أحصل على أحد الكتب التي تتحدث عن البكتيريا؟

وظل للحظاتٍ غير قادرٍ على حسم أمره حتى تمتم:

- حسنًا، لمَ لا؟ لن أخسر شيئًا.

وسحب مجموعة منهم بطريقةٍ عشوائية وأضافهم إلى الكومة التي حصل عليها من قبل، إنه الآن يمتلك تسعة كتب على الطاولة، تكفي كي يبدأ بهم خطوته الثانية، وتوقع بالطبع أنه ربما سيحتاج إلى زيارةٍ أخرى لهذا المكان، وبينما هو يغادر قاعة العلوم، نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط بجوار الباب، وكانت متوقفة عند الرابعة وسبعٍ وعشرين دقيقة، وتساءل وهو يهبط من على الدرج حاملًا بين ذراعيه الكتب:

- في أي يومٍ يا ترى، توقفت تلك الساعة عن العمل؟

وما هو الحدث الذي توقفت عنده؟

وهل كان هذا التوقيت ليلًا أم نهارًا؟

وهل كان الطقس حينها صحوًا أم ممطرًا؟

وإذا ما كان أي أحدٍ في المكتبة في تلك اللحظة؟

ثم تحولت كل تلك الأسئلة إلى صيحة غضبٍ وتوتر:

- بحــق الله ما هو الفــرق إن كان الوقت ليلًا أو نهــارًا، صحوًا أو ممطرًا؟

لقد كان يشــعر باشــمئزازٍ من حالة الحنين الرهيبة التي تشــده إلى الماضي وتجعله ينهمك في التفكير به.

إنه ضعف، نعم ضعف لا يمكنه التغلب عليه أو حتى مواجهته، فهو دائمًا ما يضبط نفســه متلبسًــا بالانجراف على غير إرادته في تأمل كل الأحداث التي مر بها في الماضي، وكان هذا الأمر يشعره بالغضب من نفسه.

ولم يتمكن من فتح بــاب المكتبة الضخم من الداخل بعد أن وجده مغلقًا بإحكام، لذا ســيتعين عليه المغادرة عبر نفس النافذة المكســورة التي دخل منها، فألقــى من خلالها الكتب أولًا دفعة واحدة، ثم عبر هو وحملها إلى السيارة وجلس أمام عجلة القيادة، وقبل أن يتحرك لاحظ أنه قد صف ســيارته بجوار رصيفٍ مصبوغ باللون الأحمر وأمام لافتة تشــير إلى أنه ممنوع الوقوف في هذا المكان، فالطريق يسمح بالحركة في اتجاهٍ واحدٍ فقط وليس في كلا الاتجاهين، وفجأة تمتم:

- يا إلهي، الشرطة، سوف أحصل على مخالفةٍ مرورية.

وانطلقت منه ضحكة سخرية عالية مما فكر فيه للتو.

* * *

وضع الكتاب جانبًا

وكان يقــرأ للمرة الثانية عــن (الجهاز اللمفاوي) وأخذ يســترجع المعلومات التي قرأها في المرة الســابقة منذ شهرٍ تقريبًا في الفترة التي أطلق عليها اسم

(الفترة الشديدة الهياج).

لكن ما قــرأه حينها لم يترك داخله أي انطبــاع، فهو لم يكن يمتلك ما يمكن أن يطبق عليه المعلومات التي يســتخلصها من بين الســطور، لكن يبدو أن هناك شــيئًا جديدًا الآن؛ الغشاء الرقيق المبطن للشعيرات الدمويــة الطرفية يســمح لخلايا البلازما بالهروب إلــى الفراغات بين الأنسجة مع الخلايا الحمراء والأخرى الغير ملونة لكن هذه الخلايا في النهاية تعود مرة أخرى إلى الأوعية الدموية عن طريق الجهاز الليمفاوي الذي يحملهم مع سائلٍ رقيق يُعرف باسم (العصارة الليمفاوية) وخلال رحلة العودة تلك تتدفق هذه العصــارة الليمفاوية عبر الغدد الليمفاوية التي تقوم بتنقية العصارة وتصفيتها من مخلفات الجســم الصلبة دقيقة الحجم وتمنعها من العودة إلى الشــرايين والأوردة، والآن هناك أمران يمكنهما تحفيز الجهاز الليمفاوي:

أولًا: التنفــس الذي يجعل الحجاب الحاجز يضغط على محتويات تجويف البطن، وهذا يســاعد الدم والعصارة الليمفاوية في التحرك إلى الجزء العلوي من الجسم في عكس اتجاه الجاذبية.

ثانيًا: الحركة الجسدية وهي التي يتحكم بها الجهاز العضلي العصبي، فيؤدي انقباض العضلات إلى الضغط على الأوعية الليمفاوية، فيتحرك السائل الليمفاوي بداخلها، والأوعية الليمفاوية تحتوي في جدارها المبطن على صمامات معقدة التكوين تسمح بمرور السائل في اتجاهٍ واحدٍ فقط، لكن مصاصي الدماء لا يتنفسون، على الأقل ليس الأموات منهم، وهذا يعني بالتقريب أن نصف وظيفة عمل الجهاز الليمفاوي معطلة عن العمل، ومنطقيًّا يمكن استنتاج أن كمية لا بأس بها من فضلات عملية أيض الجسم تتجمع في أنسجتهم بكثرة.

كان (روبرت نيفيل) يفكر في تفسيرٍ عمليٍّ للرائحة النتنة التي تفوح من مصاصي الدماء، واستمر في قراءة مقاطع متفرقة بصوتٍ مسموع:

- "تمر البكتيريا في مسار الدم عندما يكون الإنسان مصابًا بالعدوى"

"كُرات الدم البيضاء تلعب دورًا حيويًّا في عملية الدفاع عن أجهزة الجسم ضد هجمات البكتيريا"

"التعرض المباشر لأشعة الشمس القوية يقتل أنواعًا كثيرة من الجراثيم بسرعةٍ عالية"

"العديد من الأمراض التي تتسبب فيها البكتيريا يمكن أن تنتشر عن طريق عدوى تحملها الحشرات الطائرة كالذباب والبعوض"

"ما أن يتعرض الجسم لهجومٍ بكتيري، فإن ذلك يحفز جهاز المناعة لنشر عددٍ من خلايا معينة يمكنها التغذي على تلك البكتيريا الضارة"



وفجأة ترك الكتاب ينســـل من بين يديه ليســـقط دونما اهتمام على السـجادة التي تحت قدميه، لقد كان الأمر يـــزداد صعوبة أكثر وأكثر، فكلما تعمق في القراءة كلما وجد علاقة ما بين البكتيريا وبين الكوارث التـــي تصيب الدم، وكان طـــوال الوقت يزدري هـــؤلاء الذين ماتوا في الماضي وهم يســـخرون من نظريـــة الجراثيم المتحولـــة ومن وجود مصاصي الدماء.

ثم نهض وتحرك بتثاقلٍ إلى البار وأعد لنفسه كأسًا من الشراب لكنه لم يتذوق منها قطرة بعد أن ظل مثبتًا في مكانه بلا حراك، ينظر بيأسٍ إلى الحائـــط وهو يحرك كفه اليمنى في حركةٍ دائريـــةٍ لا إرادية، وأخذ يردد كلمة واحدة فقط:

- جراثيم.

تغيرت ملامح وجهه وأصبحت أكثر عبوسًا، ثم صاح محدثًا نفسه:

- أرجوك، لا تبدأ بحق السماء، فتلك الكلمة تقف في الحلق كشوكة.

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وتمتم:

- حسنًا؛ هل يوجد أي سببٍ آخر لكل ما حدث غير الجراثيم؟

فأسرع ليبتعد عن البار وكأنه يبتعد عن السؤال الذي لم يكن محدودًا في مكانٍ واحدٍ بل هو يحيـــط به أينما ذهب، حتى وهو في المطبخ بعد أن قرر تناول كوبٍ من القهوة.

تابع بعينيه الدخان المتصاعد من كـــوب القهوة، وعاد ليتحدث مع نفسه:

- جراثيم

بكتيريا

فيروسات

مصاصو دماء

لماذا أنا ضد هؤلاء جميعًا؟

هل ما أفعله مجرد رد فعلٍ طبيعي أم أنني حقًّا أتخذ موقفًا عدائيًّا غير مبرر من تلك الكائنات؟

وما أن شعر أنه يميل لأن يكون أكثر مرونة حتى التزم الصمت وأخذ يفكر في أن البكتيريا ربما تكون هي الإجابة عن كل ما يتعلق بمصاصي الدماء.

يبدو أن الكثير من الأفكار تتدفق إليه:

لقد انتشر الوباء سريعًا، فهل هؤلاء المسوخ هم من نشروه بمفردهم؟

هل طبيعتهم التي تغير فيها شيءٌ ما، ساعدت على الإسراع من حدوث تلك العملية؟

لن تظهر أي إجابةٍ إلا في حالة تقبل وجود فكرة أن للبكتيريا دورًا لا يمكن إنكاره في هندسة طريقة انتشار المرض الجنونية.

الذباب والبعوض كان لهم يد أيضًا.

نعم نظرية البكتيريا تفسر الكثير من الألغاز وأهمها سبب الاختفاء نهارًا والظهور فقط أثناء الليل فالجراثيم تتعرض لما يشبه الغيبوبة عند التعرض لأشعة الشمس.

البكتيريا تمنح مصاصي الدماء قوة من نوعٍ ما، ومن الغريب أن البكتيريا التي تقتل الأحياء هي نفسها التي أحيت الموتى.

قام (نيفيل) بتنحية كوب القهوة جانبًا بعد أن وجد نفسه محاطًا بدرزينة من التساؤلات المرهقة، ولكنه يجب أن يعرف الإجابة، وبلا مقدماتٍ قفز من مكانه وأخذ يركض ناحية باب المنزل ليغادر إلى الخارج إلا أنه توقف في اللحظة الأخيرة، وقبل ثانيةٍ واحدة من أن يفعل، ضحك بقوةٍ وهو يقول:

- يا إلهي، ما الذي أفعله؟

هل فقدت عقلي؟

كيف كنت أفكر في الخروج ليلًا؟

وتراجع بهدوءٍ إلى حيث غرفة المعيشة، وأكمل سلسلة التساؤلات المتواصلة:

- هل يمكن لنظرية البكتيريا أن تفسر بقية الأشياء الغريبة؟

كالأوتاد الخشبية!

وأغلق عينيه بقوةٍ وكأنه يعتصر عقله ليجد رابطًا بين ما تسببه الأوتاد الخشبية وبين نظرية البكتيريا، وشعر بصداعٍ رهيبٍ، فصرخ:

- هيا؛ ما هو التفسير؟

ربما النزيف الداخلي الذي يحدث، ولكن هذا لا يفسر ما حدث للمرأة التي تحللت فجأة كما أنه لم يكن الطعن في القلب هو السبب.

حاول تجاهل هذه النقطة قبل أن تنهار نظريته التي قد وضع أساسها للتو إلا أن الأفكار لم تبارح رأسه:

- وتأثير الصليب؛ كيف يمكن أن تفسره البكتيريا؟

والمرايا!

وماذا عن المياه الجارية؟!

حسنًا والثوم؟!

ما علاقة كل هذه الأشياء بالبكتيريا؟

شعر بجسده ينتفض، وشعر برغبةٍ عارمةٍ في البكاء من أجل أن تتوقف تلك الأفكار التي تجري داخل أروقة عقله كحصانٍ بريٍّ خارج عن السيطرة.

يجب أن يحصل على إجابات، وصرخ بيأس:

- اللعنة.

وأخيرًا جلس على كرسيه المفضل وأجبر عقله على السكينة وسيطر على الجنون الذي كاد أن يعصف به، ثم أخذ يتحدث بهدوء:

- ما الذي أفعله بنفسي؟

أحاول الحصول على نظريةٍ ما، وعندما لا أنجح منذ الدقيقة الأولى في تفسير كل الظواهر التي أفكر بها، أشعر بالهياج وأصاب بالصدمة والإحباط.

هل جننت؟

وأمسك بكأس الشراب الذي أعده لنفسه منذ فترة، ثم بدأ في تجرعه وهو يكمل بنفس الهدوء:

- حسنًا لا تقلق، فقريبًا سيحضر (بابا نويل) وفي جعبته كل ما تتطلع إليه من إجاباتٍ صعبة.

وابتسم بسخريةٍ على ما قاله، ثم فكر أنه يجب أن ينام على الفور ليحصل على قدرٍ من الراحة بدلًا من محاولة الطيران في عشرين اتجاهًا مختلفًا دون أن يكون مستعدًّا لذلك.

الخطوة الأولى التي سيقوم بها هي الحصول على (ميكروسكوب).. نعم يجب عليه ذلك قبل أن ينجرف في أبحاثٍ بدافع الرغبة المجنونة ليجد تفسيرات تقوده إلى الحقيقة دون أن يمتلك ما يساعده على ذلك.

تمدد وسط الظلام وهو يشعر بتوعكٍ شديدٍ ولا ينفك يقنع نفسه بحتمية أن يقتني (ميكروسكوبًا) ليبدأ من خلاله العمل على تجارب أكثر منطقية، وابتسم عندما وصل إلى تلك النقطة من التفكير ليتفاجأ على الفور بسؤالٍ يقفز أمام عينيه وسط الظلام:

- هل يمكن للدغات الحشرات أن تفسر السرعة الرهيبة التي انتشر بها الوباء؟

وحمل معه السؤال وهو في طريقه إلى عالم الأحلام، فقد نام دون أن يحصل على الإجابة إلا أنه فجأة استيقظ في تمام الساعة الثالثة فجرًا، وقد كان المنزل ممتلئًا بآثار عاصفةٍ رملية، ولكنه لم يهتم فقد تمكن من معرفة ما هو الرابط.

الفصل الحادي عشر

الميكروســكوب الأول الذي حصل عليه كان عديم النفع وغير ذي قيمــة، فقاعدته لم تكن مثبتة جيدًا مما جعل أبســط حركة تتســبب في تشويش على مجال الرؤية كما أن عمل القطع المتحركة لم يكن بكفاءة عالية، والمرآة كانــت دائمًا ما تخرج عن مكانها الذي من المفترض أن تكون موضوعة به، والشــيء الأكثر سوءًا هو أن هذا (الميكروسكوب) لم يكن مجهزًا كي يضع به عدســة مكثفة للرؤية ولا مســتقطب ضوئي مما حد كثيرًا من فعاليته في الوصول إلى نسبةٍ أعلى من التكبير، وأخيرًا كانت العدســة الأساســية المثبتة به في غاية الفظاعة، وبالطبع ولأنه لا يمتلك أية خبرة في الميكروسكوبات، لذلك فقد حصل على أول واحد وقعت عليه عيناه، وكانت هذه هي النتيجة، وبعد ثلاثة أيام من عناء وضع حدٍّ لكل شــيءٍ بأن قذف بهذا الميكروسكوب عرض الحائط بكل قوته ليتحطم إلى أجزاءٍ صغيرة تناثرت حول قدميه، وجلس بصمتٍ محاولًا إخراج شــحنة الغضب التي بداخله وما أن هدأ حتى أسرع إلى المكتبة وبحــث عن أحد الكتب التي تشــرح طريقة عمل الميكروســكوبات، وأخذه معه إلى المنزل وقضى وقتًا ليس بالقليل في معرفة ما يحتاج إليه من معلوماتٍ، وفــي المرة التالية التي كان فيه بالخارج لم يعد إلا ومعه

واحدًا جديدًا رائعًا ثلاثي العدســات له قابض قوي لعدسات التكثيف ومستقطب ضوئي عالي التقنية، وقاعدة ثابتة سهلة الحركة وزر للتحكم في تبديل وضع العدسات، ثم تمتم بسخريةٍ محدثًا نفسه:

- إنــه مثال آخر على التصرف بعجلــةٍ وغباء، فلم يكن الحل مجرد الحصول على (ميكروسكوب) بل الحصول على واحدٍ مناسب؛ كمن يأكل الطعام وهو نصف مطهو.

وبعــد عدة أيام مــن العمل بانتبــاهٍ وحرصٍ وتوتر أصبــح بإمكانه التحكم في وضعية الشــريحة والرأس المتحركة فوقها، وأصبحت لديه القدرة على اســتبدال العدســات بمهارةٍ وضبط عمل العدسة المكثفة والمســتقطب بحيث يســمح بانعــكاس كمية الضوء المناســبة لرؤية الشــريحة بطريقةٍ أكثر وضوحًا، وبالفعل كانت المرة الأولى في حياته التي يرى فيها برغوثًا ضخمًا وكأنه ديناصورًا كبير الحجم.

وبعد أن وجد نفســه قد اكتســب المهــارة الكافية لبدايــة تجاربه، واجهتــه المشــكلة الأولى وهي تراكــم الغبار والأتربــة داخل أجزاء (الميكروســكوب) وقد جعله هذا الشيء يشــعر كلما حاول النظر إلى شريحةٍ ما أنها قطعة من جبلٍ مليئة بالصخور، وبالطبع لا يمكن تجاهل ما تفعلــه العواصف الرملية بهذا الشــأن ودورها فيــه وخاصة بعد أن أصبحت تتكرر كثيــرًا مؤخرًا حتى أنه لم يكن يمــر أكثر من أربعة أيام إلا وتأتي واحدة أكثر عنفًا من التي ســبقتها، لذا تعين عليه أن يصنع رفًّا خشبيًّا خاصًّا بجوار الطاولة الكبيرة.

كما أنه تعلـم أيضًا مع الوقـت أن يكون منظمًا فـي طريقة عمله، فخصص لكل قطعـةٍ خارجية من الميكروسـكوب مكانًـا يمكنه أن يحفظها فيه مما يزيد من كفاءة العمل ودقته، وقد شعر براحةٍ كبيرة وهو يتبع أسـلوبًا علميًّا منظمًا حتى في أبسط الخطوات، ثم حانت اللحظة، لقد تمكن من الحصول على عينةٍ من دماء امرأةٍ منهم، وبالطبع استغرق الأمر منه أيامًا كي ينجح في إعداد قطراتٍ صغيرة بطريقةٍ ناجحة، تظهر بداخلها الخلايا بشـكلٍ واضحٍ وصحيح بعد أن كان اليأس على وشك أن يدب في أوصاله معتقدًا أنه لن يتمكن أبدًا من فعل ذلك.

وجاء النهار وهو مسـتمر في العمل، فقام بوضع الشريحة رقم سبعة وثلاثين بعدم اكتراث تحت العدسـة بعد أن تملـك منه التعب وجعله يتصرف وكأن الأمر لا يعنيه أبدًا، وببطءٍ أخذ يضبط العدسـة والمكثف وحامل الشـريحة وكمية الضوء، وكل ثانيةٍ تمـر عليه وهو يفعل هذا، كانت تزيد من إحساسـه بثقل أنفاسـه التي أصبح يشـهقها بصعوبة، وبالرغم من كل هذا إلا أن شيئًا ما في أعماقه أخبره أن هذه هي اللحظة التي ينتظرها منذ وقتٍ طويل.

وبالفعل حبس أنفاسه وبدأ يفحص الشـريحة باحثًا عن الفيروس، لكنه لم يجده، لم يكن في أي مكان، فهز الشريحة برفقٍ حتى لمح شيئًا ما، فتساءل:

- أهذه هي الجرثومة؟

وأخذت الأحـــرف تتراقص داخـــل عقله بحيرةٍ وهـــو يتفحص ما يراه جيدًا، ثم أمســـك بأحد كتب علم البكتيريا ليبحث عن مســـمى لما تحت الميكروســـكوب، فعرف أنه نوع من الجراثيم يسمى (الكريات) لأنها على شـــكل كرة، ويوجد بداخلها أعواد رفيعة من البلازما، وتلك الجراثيم تسبح في مجرى الدم عن طريق شعيراتٍ دقيقة تحيط بغشائها الخارجي كي تتحرك هذه الشـــعيرات جميعها فـــي اتجاهٍ واحد وتدفع بالخلية فجأة في الاتجاه المعاكس.

وعاد مرة أخرى إلى (الميكروســـكوب) وأخذ يحـــدق بثباتٍ عبر العدســـة غير قادر على التفكير في أي شيءٍ يمكن أن يساعده في إكمال بحثه، فكل ما شـــغل باله كان تلك القطرة الصغيرة التي فوق الشريحة، فهل حقًّا ما ينظر إليه هو سبب وجود مصاصي الدماء على الأرض؟

لقد انهارت عقود من الخوف المميت تجاه تلك الخرافة ما أن تمكن من مشاهدة الجرثومة.

لقد كان العلماء على حق، فالبكتيريا هي السبب.

وأخيرًا يمكنه أن يعلن بعد ست وثلاثين محاولة أن التحقيق قد أكد معرفة هوية القاتل بدقة، إنها الجرثومة بداخل كل مصاص دماء، وفجأة شعر بثقلٍ كبيرٍ يلقى على رأســـه، فقد تأخرت الإجابة طويلًا حتى وقع الانفجار المدمر للبشرية، وحاول كثيرًا أن يقاوم خيبة الأمل والإحباط والحزن إلا أن كل تلك الأحاســـيس قد تغلبت عليه، ووجد نفســـه بلا حيلة، ولا يعرف مـــن أين يجب أن يبدأ، فهو في غايـــة العجز أمام كل

تلك المشاكل التي تتكاثر عليه، فكيف سيمكنه معالجة من هم على قيد الحياة من مصاصي الدماء؟

إنه لا يعرف أي شيءٍ عن علم البكتيريا.

رفع رأسه وحدق في السقف، ثم قال بعناد:

- حسنًا، سوف أعرف.

سوف أتعلم.

سوف أنجح.

* * *

بعض أنواع البكتيريا عندما تواجه ظروفًا حياتية صعبة قد تدمرها، تلجأ إلى قدرةٍ فريدة في تكوينها وهي التقلص على نفسها والتحور كي يصبح غشاؤها أكثر سماكة وتتخلص من جميع الزوائد بداخلها حتى تتحول إلى ما يشبه النقطة المتناهية الصغر.

تمامًا كشجرةٍ عادت لتصبح بذرة.

عندما تتحول الجراثيم إلى تلك الصورة، فهي تصبح في غاية القوة والصلابة وتتمكن حينها من مواجهة أشد الظروف قسوة، سواء أكانت كيميائية أو فيزيائية، وتظل على هذه الحالة ربما لسنواتٍ طويلة حتى يتحسن الوضع الخارجي المحيط بها ويصبح ملائمًا للحياة، فتنمو من جديد وتعود إلى سابق شكلها الأساسي، جرثومة من نوع البكتيريا الكروية.

وقف (روبرت نيفيل) أمام المغسلة وهو يستند على حافتها بيديه متمتمًا:



- هناك شيءٌ ما.

نعم بلا شك، هناك شيءٌ ما.

ولكن ما هو؟

ثم عاد للتفكير واضعًا فرضية أن مصاص الدماء حين لا يجد ما يتغذى عليه من الدم، ففي هذه الحالة ستكون الظروف بداخله بالنسبة للجراثيم غير ملائمة للحياة، وكي تحمي نفسها فسوف تتحول إلى حالة الدفاع التي تكون فيها كالبذور الصغيرة، وفي تلك اللحظة سيدخل مصاص الدماء فيما يشبه الغيبوبة وعندما تتحسن الظروف يعود مصاص الدماء إلى الحياة مرة أخرى ويتحرك كما كان يفعل من قبل.

ولكن كيف ستعرف البكتيريا أن الدماء متوفرة ليتغذى عليها؟

ضرب حافة المغسلة بقبضته بقوةٍ وغضبٍ، وعاد ليردد بصوتٍ مرتفع:

- هناك شيءٌ ما لا يمكنني إدراكه.

ولكنني أشعر به.

الجراثيم عندما لا تتغذى جيدًا، يحدث خلل في نظامها الداخلي فيُخرج الجسم نوعًا آخر من البكتيريا ليتغذى على تلك المصابة بالخلل، وعندما لا توجد دماء يحدث الخلل في الجراثيم وتتغذى على ما تجده متاحًا مما يؤدي إلى دمارها أو اللجوء إلى التمحور في صورة بذورٍ صغيرة.

حسنًا، لنفترض أن مصاص الدماء لم يصب بغيبوبة، ولنفترض أن جسده تحلل عندما لم يحصل على الدم، ففي هذه الحالة بالتأكيد

ستنتشـــر تلك الجراثيم وهي في صورتها الجديـــدة المقاومة للظروف المعيشية الصعبة، وهنا صاح (نيفيل):

- نعم لقد فهمت؛ العواصف الترابية.

العواصف الترابية تحمل معها بذور الجراثيم التي يمكنها أن تتسلل إلى داخل أجسام البشر عبر المسام والخدوش والشقوق المتناهية الدقة في طبقة الجلد الخارجية، وهناك داخل جســد العائل الجديد تنمو مرة أخرى وتعود إلى حالتها الأصلية، وتتكاثر بالانقسام.

وكلما زادت عمليــة التكاثر تتحطم الأنســجة المحيطة بالجراثيم وتفتح الأوعية الدموية الطرفية أبوابها للفيروس الذي ينشــر الســموم وبقايا الأنســجة الميتــة والمتحللة داخــل مجرى الدم فــي الأوردة والشرايين الكبيرة.

وبعــد قليلٍ تكتمل العملية، ويأتي إلــى الوجود مصاصو دماءٍ كانوا بشــرًا يومًا ما دون أعينٍ حمــراء ودون أن يمكنهم الطيــران ودون أن يتحولوا إلــى خفافيش تصفق بأجنحتها ليلًا أمــام النوافذ، ودون قوى خارقة كما في الخرافات.

إذًا مصاصو الدماء كانوا طوال الوقت حقيقة واقعية وليســت مجرد قصص من نســج الخيال، وعند هذا الحد أخــذ يذكر بعض الأحداث التاريخية التي يمكن رؤيتها من وجهة نظرٍ جديدة كسقوط (أثينا) مثلًا، لماذا لا تكون هذه الواقعة مماثلة تمامًا لما حدث هنا عام 1975 عندما انتشــر الوباء؟ فقبل أن يتمكن أي شخصٍ من إدراك ما يحدث، سقطت

المدينة سريعًا، لم تكن الهزيمة العسكرية هي السبب بل مصاصو الدماء هم من قاموا بكل شيء، لا ليس مصاصو الدماء بل الجراثيم التي طافت عبر الهواء كالأشباح الخبيثة هم المسؤولون عن كل شيء، هم الأوغاد فـــي الحقيقة، الجراثيم التـــي كانت تختبئ خلف ســـتارٍ من الخرافات والقصص المخيفة، هي من سكنت أجســـادًا ذات عقولٍ كانت ممهدة بالرعب المســـبق من أشـــياءٍ لم يعرفوا بوجودها من قبل، ثم ما هو هذا الوباء الذي أطلقوا عليه اســـم (الطاعون الأسود) والذي اجتاح أوروبا بطولها وعرضها في العصور الوســـطى مخلفًا وراءه ثلاثة أرباع السكان كضحايا، أو كمصاصي دماء؟

* * *

في العاشـــرة من مساء هذا اليوم، شعر بصداعٍ رهيبٍ في رأسه وبألمٍ في عينيه وكأن ســـائلًا من اللهب يقطر منهما، واكتشف فجأة أنه يتضور جوعًا، فتوجه إلى الفريـــزر وأخرج قطعة من اللحم ووضعها على النار لتنضج بينما استغل الوقت في الاستحمام سريعًا.

وبينما هو يقوم بتجفيف جســـده، شعر بالفزع فجأة من صوت دوي ارتطام صخرةٍ بجـــدار المنزل الخارجي، فقـــد كان منهمكًا في العمل طوال الوقت حتى أنه نســـي أمر مجموعة منهـــم، لاحظ أنهم يتجولون فـــي الحديقة الأمامية ويطوفون حول المرآب، ثم طرأ على باله ســـؤال لم يفكر فيه من قبل؛ هؤلاء الذين يأتون إلى منزله كل مســـاءٍ من أي نوعٍ هم؟

ممن تحولوا وهم أحياء أم ممن عادوا إلى الحياة بعد موتهم؟

إنه لا يعرف لكن لا بد وأنهم من كلا النوعين، فهو عندما يطلق النار عليهم، البعض منهم لا يتأثر والبعض الآخر يسقط مدمرًا.

من لا يتأثرون هم الأموات مسبقًا على أغلب الظن.

وقاده هذا إلى سؤالٍ آخر:

لماذا تلك القلة بالتحديد من الموتى الأحياء يأتون إلى منزله هو بالذات؟

لماذا لا يأتي إليه كل مصاص دماءٍ آخر في المدينة؟

حقًّا لماذا؟

كالعادة لا إجابة، ففضل تجاهل الأمر ولو لهذه اللحظة.

بالإضافة إلى قطعة اللحم المشوية، أعد كوبًا من النبيذ، ومع القضمة الأولى تعجب من الطعم الذي يتذوقه، فكل شيءٍ أصبح له مذاق الخشب لا بد وأن خطبًا ما أصاب شهيته للطعام، وفكر بأن مخزون الشراب لديه قد قارب على النفاد، والمشكلة أن الخمر قد أصبحت هي الوسيلة الوحيدة التي يمكنه بها الترفيه عن نفسه، وأنهى قطعة اللحم حتى آخرها، ثم أخذ معه ما تبقى من النبيذ إلى غرفة المعيشة وشغل جهاز التسجيل عاليًا، وأطفأ جميع الأضواء إلا واحدًا خافتًا في الزاوية، ثم ألقى بجسده على الكرسي وهو يتنهد بتعبٍ وإرهاقٍ، وأسلم عقله إلى الموسيقى الكلاسيكية التي يعشقها.

يجب أن ينســى كل مــا يتعلق بمصاصــي الدماء لبعــض الوقت، ومــا أن ظن أنه نجح حتى شــعر بعــدم قدرته على مقاومــة النظر عبر (الميكروسكوب) من جديد ليتفحص الجرثومة اللعينة.

- بل أنت اللعين.

أنت لا تريدني أن أحصل على القليل من الراحة أبدًا.

هكذا حدث نفسه.



الفصل الثاني عشر

في اليوم التالي فاحت رائحة كريهة، فأشعة الشمس قتلت الجراثيم على الشـــريحة، وقد لاحظ هو ذلك دون أن يستنتج شيئًا من هذا الذي حدث.

وقام (نيفيل) بخلط (كبريتيد الأليل) بالدماء المعبأة بالجراثيم، ولكن لم يتغير أي شـــيء، فقد تم امتصاص (كبريتيد الأليل) وظلت الجراثيم على قيد الحياة مما خيب ظنه، فأســـرع إلى غرفة النوم بخطواتٍ غاضبة وهو يتحدث باستغراب:

- الثوم يجعلهم يفرون بعيدًا، والدم هو الركيزة الأساسية لوجودهم وبقائهم أحياء، وللتو تم خلط خلاصة الثوم مع الدماء ولم أحصل على أي رد فعل.

ثم ضم قبضتيه بقوةٍ، وصرخ:

- لماذا؟

وهدأ لحظة كأنه يفكر في الإجابة، ثم تمتم:

- تمهـــل قليلًا؛ هذه العينة من الدماء كانـــت لأحد مصاصي الدماء الأحياء.



وأســرع ليحضر عينة من النــوع الآخر وبالفعل خلطهــا مع (كبريتيد الأليل) وأخذ يراقب بفضولٍ النتيجة عبر عدســة الميكروسكوب، وأيضًا لم يحدث أي تغيير، تمامًا كما في المرة السابقة.

وشعر بإحباطٍ شديدٍ، زاد من نسبته السؤال التالي:

- وماذا عن الأوتاد الخشبية؟

كل ما يمتلك من تفســيرٍ لعمل الأوتاد، هــو النزيف الداخلي الذي تتسبب فيه أثناء الطعن، ولكن هذه ليست الحقيقة فهي لا تفسر ما حدث للمرأة التي تحلل جســدها على الســرير وتحولت إلى ما يشبه الفلفل الأسود والملح في غمضة عين.

وأمضــى أغلب وقــت ما بعــد الظهيرة فــي محاولــة التفكير في تفســيرٍ منطقيٍّ لــكل تلك التســاؤلات، وأخيرًا قام مــن مكانه ونحى الميكروســكوب جانبًا وغادر المكان إلى غرفة المعيشــة وهو يزمجر ويتمتم بغضب بينما أصابعــه تتحرك بطريقةٍ تنم عن نفاد صبره، وهناك جلس على الكرسي بسكون، وصب جام غضبه على نفسه دون أن ينطق بحرفٍ واحد، فقد كان يؤنب عقله بصمت:

- رائــع يا (نيفيل).. أيها الذكي الخارق للطبيعة، أنت على وشــك الجنــون، ولم تتمكن من مواصلة النجاح ليومين متتاليين حتى تفشــل سريعًا وتصاب بخيبة أملٍ كالعادة، أيها الفاشل الغبي العديم النفع.

وبدأ في التمتمة:

- حسنًا، لنعود إلى أصل المشكلة، هناك أمور أساسية سنبني عليها النتائج:

يوجد لدينا جراثيم متحولة تقتلها أشعة الشمس وتتأثر بالثوم.

وبعض مصاصي الدماء ينامون على التربة دون أن تؤثر بهم.

والأوتاد الخشبية تدمرهم وتقضي عليهم.

كما أنهم لا يتحولون إلى ذئــابٍ أو خفافيش إلا أن بعض الحيوانات قد تصاب بالعدوى وتتحول إلى مصاصي دماءٍ كما البشر.

حسنًا.

ثم قــام وأحضر ورقةً وقلمًا وصنع قائمة مــن خانتين؛ واحدة كتب عليها (الجرثومة) والثانية وضع أعلاها علامة استفهام، وبدأ في الكتابة.

* الصليــب؛ لا يوجد له أي تأثيرٍ علــى الجرثومة وربما تكون قوته نفسية لا أكثر.

* التربة؛ هل يمكن أن يكون لها تأثير على الجرثومة؟

لا، فهي لا تتسلل مثلًا إلى مجرى الدم بالإضافة أن بعض مصاصي الدماء يمكنهم النوم عليها.

وأضاف علامة اســتفهامٍ ثانيــة بعد تلك التي أضافهــا أمام خانة الصليب.

* المياه الجارية؛ هل من الممكن أنها تُمتص عبر المسام مثلًا؟

بالطبع لا، فهذا التصور في قمة الغباء، فهم يتحركون دون تأثيرٍ تحت مياه المطر، وارتجفت أصابعه وهو يضيف علامة الاستفهام الثالثة.

* أشعة الشمس؛ وحاول أن يشعر نفسه بالرضا بعد حصوله على أمرٍ واحد يمكن أن يكون له تأثير واضح على الجراثيم.
* الأوتاد؛ لا تأثير لها.
* المرايا؛ يا إلهي، كيف مثلًا أن تؤثر على الجراثيم؟ بالطبع لا تأثير لها.
* الثوم؛ أضاف عنصرًا جديدًا له تأثير منطقي.

ولكن كيف؟

كيف يؤثر الثوم على الجراثيم؟

وشعر بنوبةٍ عارمةٍ من الغضب الشديد الخارج عن السيطرة وكأنه حمم تُقذف من فوهة بركانٍ ثائر، وصاح:

- اللعنة.

ثم أمسك الورقة وكورها في كفه بعنفٍ وألقاها بعيدًا عنه، ووقف متحفزًا والشرر يتطاير من عينيه بينما عضلات جسده في حالة تشنجٍ شديد، ومن أعماقه شعر برغبةٍ عارمةٍ في تحطيم شيءٍ ما كي ينفث عما بداخله من غضب.

وبعد أن ظن أن مرحلة (الهياج الشديد) التي مر بها من قبل قد انتهت، ها هو يدخل في نوبةٍ منها الآن، وتوجه مسرعًا إلى البار ليتناول شرابًا إلا أنه منع نفسه في نفس اللحظة، وأسرع ليلقي بالزجاجة أرضًا وهو يصرخ محركًا يديه خلال شعره الأشقر بتوتر:

- لا، لن أسقط في دوامة السكر الآن.



وأخذ يستمع لصوت الشراب وهو ينسكب على الأرض إلا أنه أسرع والتقط الزجاجة ووضعها على البار وبقايا الشراب تسيل من فوهتها على الأطراف، ثم تناول جرعة كبيرة من الخمر وابتلعها على دفعةٍ واحدة، وتمتم:

- أنا كالحيوان؛ نعم أنا حيوان أبله غبي وسوف أعود إلى الشراب حتى أسكر.

وبالفعل تناول جرعة ثانية أكبر من الأولى ثم قذف بالكأس بعيدًا لترتطم بالمكتبة وترتد على السجادة دون أن تتحطم مما جعله يستشيط غضبًا ويصرخ:

- إذًا أنتِ لا تريدين أن تتحطمي!

حسنًا.

ثم تحرك فجأة وقفز من مكانه ليسحق الكوب تحت كعب حذائه الضخم ويحوله إلى شظايا مفتتة، ثم عاد بخطواتٍ متعثرة إلى مكانه أمام البار مرة أخرى وصب لنفسه كأسًا أخرى تجرعها بنفس الطريقة، وقال ساخرًا:

- كم أرغب في الحصول على خزانٍ ضخم من الخمر وأقوم بتوصيل خرطومٍ منه إلى فمي وأملأ به جسدي حتى يفيض السائل من أذنيَّ، بل أريد أنْ أستمر في فعل ذلك حتى أسبح فيه.

ثم أبعد الكأس ورفع الزجاجة على فمه وأصبح يشرب منها مباشرة ويبتلع كل ما بها بشراهةٍ وجنون، وكأنه يعاقب نفسه بهذا السائل الحارق الذي يسكبه داخل معدته.



- سوف أخنق نفسي، نعم سوف أشنق نفسي، سوف أُغرق نفسي في هذا الشراب اللعين حتى الموت.

وقذف بزجاجة الخمر عبر الغرفة لتتحطم على اللوحة الجدارية المعلقة فوق الحائط المقابل له، فسال الشراب على أغصان الشجر في الصورة حتى وصل إلى الأرض، وعلى الفور ترنح مغادرًا مكانه وأمسك بقطعة زجاجٍ كبيرة وأخذ يمزق بها اللوحة الجدارية وينزعها من على الجدار الملصقة فوقه بعنفٍ ووحشيةٍ وهو يزوم ويرغي ويزبد دون توقف حتى شعر بآلامٍ مبرحة في أصابعه وبدت أنفاسه كعاصفةٍ نارية، وفجأة ألقى بقطعة الزجاج من يده ونظر إلى أصابعه ليجد أنها تنزف بغزارة.

أثار شكل الدماء جنونه أكثر، فصرخ من أعماقه:

- يا إلهي، ما الذي يجري؟

ثم ضغط على طرفي الجرح بقوةٍ وكأنه يعذب نفسه فسقطت الدماء على الأرض مكونة بقعة ليست صغيرة على السجادة.

- فلتنزف حتى الموت أيها الحقير، فلتمت أيها الوغد العديم النفع.

وبعد ساعةٍ كان في حالة سكرٍ تام، يرقد على الأرض وفوق شفتيه ابتسامة باهتة لا معنى لها، وأخذ يتمتم:

- لقد ذهب العالم إلى الجحيم

لا جرائيم

لا علم أو علماء

لا فائدة من القيام بأي عمل.

وظل مخمورًا ليومين كاملين بل ومن أعماقه خطط لأن يبقى على هذه الحالة حتى نهاية الحياة أو نهاية الويسكي، أيهما يحدث أولًا؟

ولا شيء سينقذه مما هو غارق فيه إلا حدوث معجزةٍ ما.

* * *

وقد حدثت المعجزة عندما غادر المنزل مترنحًا إلى الرواق الخارجي ليتأكد ما إن كان العالم لا يزال موجودًا في مكانه أو لا.

لقد شاهد كلبًا يلهو على العشب إلا أن الكلب ما أن سمع صوت الباب يفتح حتى انتفض بخوفٍ وتراجع بترقبٍ وهو يحرك قوائمه الهزيلة واحدة تلو الأخرى، ولدقيقةٍ كاملة ظل (روبرت نيفيل) تحت تأثير الصدمة ثابتًا في مكانه دون حراكٍ وهو يحدق في الكلب الذي أسرع بالهرب إلى الطرف الآخر من الشارع بخطواتٍ بها عرج واضح، وكان ذيله الرفيع كالحبل مضمومًا بين ساقيه الخلفيتين.

إنه حقيقة.

إنه حي.

إنه يتحرك في النهار تحت أشعة الشمس.

فحاول التحكم في وقع أقدامه وهو يتقدم إلى الخارج كي لا يسقط تحت تأثير عدم قدرته على التوازن الكامل وقد بسط ذراعيه إلى الأمام وبدأ في الصياح مناديًا على الكلب وهو يسير في اتجاهه، ثم أصبح يركض خلفه.

- أنت؛ تعالى إلى هنا يا صديقي.

هكذا تحدث بصوتٍ أجشٍّ ليكسر الصمت الذي يغرق فيه شارع (سيمارون).

وأخذ يطارد الكلب وكل خطوةٍ يخطوها تضرب قمة رأسه بمطرقةٍ يُسمع صداها داخل قلبه مع نبضاته المتسارعة، وأخذ ينادي مرة أخرى بلطف:

- هيا أيها الطفل الصغير، توقف عن العدو وتعال إلى هنا.

وعلى الجانب الآخر من الشارع، كان الكلب يركض ببطءٍ وعرجٍ وقد رفع ساقه اليمنى التي يبدو أنها مصابة بأذًى ما، وكرر المحاولة مجددًا:

- لا تكن عنيدًا، فأنا لن أتسبب لك في أذى.

كان يشعر بوخزٍ في جانبه، وأخذت مؤخرة رأسه تنبض بالألم وهو يركض حتى فجأة توقف الكلب ونظر إليه ثم أسرع بالهروب في ممرٍّ ضيقٍ بين منزلين قريبين، فتأمله (نيفيل) وكان أبيض اللون مع بقعٍ بنية كبيرة داكنة، وأذنه اليسرى ممزقة لعدة قطعٍ ومتدلية، وجسده النحيل يتمايل وهو يركض رافعًا ساقه المصابة، فصرخ به:

- لا تذهب بعيدًا.

كانت تلك الجملة الأخيرة مليئة بالهيستيريا والغضب، وتناسى كل ما يشعر به من ألمٍ ودوارٍ وصداعٍ ثم أطلق ساقيه للريح محاولًا اللحاق بالكلب، ولكن عندما عبر نفس الممر بين المنزلين حتى نهايته كان

الكلب قد اختفى، فأسرع ناحية السياج الخشبي للحديقة الخلفية وأخذ يتفقد المكان بأكمله، ولم يعثر عليه، فالتفت إلى الخلف بسرعةٍ مفاجئةٍ ليرى ما إن كان قد عاد أدراجه عبر الممر مرة أخرى، ولم يعثر عليه.

ولمدة ساعةٍ كاملة ظل يســير عبثًا بين المنازل المجاورة والحدائق العامة والمتاجر التي في المنطقة على قدميه متجاهلًا كل الألم النابض منهما، واستمر بشــغفٍ يبحث عن هذا الكلب وينادي عليه بين الحين والآخر دون فائدة.

وأخيرًا قرر العودة إلــى منزله وعلامات الخيبــة تطل بوضوحٍ من ملامح وجهه الحزين، فبعد كل هذه الشهور كان على وشك أن يحصل على صحبةٍ ما ثم فقدها بمنتهى الســهولة حتى وإن كانت تلك الصحبة كلبًا.

مجرد كلب، فبالنسبة لــ (نيفيل) كان هذا الكلب هو صفوة الكائنات الحية على كوكب الأرض.

لبقية اليوم لم يتمكن من تناول أي شيءٍ، لم يأكل ولم يشرب، ووجد نفسه في حالةٍ من الصدمة العنيفة التي عصفت به من الأعماق، فلم يجد أمامه أي خيارٍ سوى النوم كي يهرب من الواقع المفزع الذي يعيش فيه، وحتى النوم لم يحصل عليه، فقد ظل يقلب رأســه يمينًا ويســارًا على الوسادة بينما جسده يرتعش من الحمى التي تعبث به، وأخذ يهلوس:

- تعال إلى هنا، أيها الكلب الرائع.

تعال إلى هنا يا صديقي.



أنا لن أسبب لك أي أذى.

حتى غرق في نومٍ عميق، وفي ظهيرة اليوم التالي عندما استيقظ، لم يستسلم لليأس، وانطلق يبحث عن الكلب في الحي بأكمله، لم يترك شارعًا ولا حديقةً ولا منزلًا ولا مرأبًا ولا سيارةً إلا وبحث عنه فيها، ولم يعثر له على أثر.

وفي حدود الساعة الخامسة مساءً، عاد إلى منزله وفكر في فكرة، فوضع في طرف الحديقة وعاءً به الكثير من الحليب وعدد من قطع الهامبرجر ووضع قلادة كبيرة من الثوم حولها كي لا يقترب مصاصو الدماء من هذا المكان بالتحديد.

وجال بخاطره فجأة أن الكلب ربما هو الآخر مصاب بالعدوى وبهذا سيجعله الثوم لا يقترب من الطعام، لكنه تعجب فإن كان حقًّا هو مصاب بالعدوى، فكيف له أن يتجول بحريةٍ تحت أشعة الشمس نهارًا؟

إلا أن كان جسده قد أصيب بكميةٍ ضئيلةٍ من الجراثيم الغير كافية لتحويله كليًّا إلى مصاص دماء، وإن كان هذا التصور صحيحًا، فكيف تمكن من النجاة ليلًا عندما يبدأ مصاصو الدماء الحقيقيون في التجول والهجوم؟

كيف لم يقضوا عليه؟

وتمتم:

- يا إلهي؛ ماذا إن جذبته رائحة الطعام وجاء إلى الحديقة ووجدهم ينتظرونه ليفتكوا به؟



ماذا لو خرج في صباح الغد إلى الحديقة ووجد جثة الكلب ترقد بين الأعشاب وأنه المسؤول الوحيد عن قتلهم له؟

لن أتمكن أبدًا من مسامحة نفسي حينها.

أبدًا.

وعاد ليتساءل عن سبب هروب الكلب، فقد كانت هناك فرصة ليخوض تجربةً جديدة ولكنها فشلت وعادت الحياة لتصبح قاحلة من جديد، فبالرغم من كل ما يمتلك الآن أو كل ما يمكنه الحصول عليه، لن تمنحه الحياة أية وعودٍ بالأمل أو أن القادم ربما سيكون أفضل، فالقدر قد قال كلمته وسيكمل الباقي من عمره بهذه الطريقة التي بدأها منذ شهور مهما كان عدد السنوات التي سيعيشها

ثلاثون سنة

أو ربما أربعون سنة

لا أحد يعلم كم سيعيش إلا لو قرر أن يمتنع عن تناول الطعام والشراب حتى يموت سريعًا، فمجرد فكرة أن يقضي أربعين سنة قادمة بمثل هذا النمط من الحياة، جعلت جسده يقشعر.

إنه حتى الآن لم يقتل نفسه فعليًّا، إلا أنه لا يعالج ما يصيبه من جروحٍ أو أمراضٍ بطريقةٍ فعالة، ولا يأكل جيدًا ولا يتناول شرابًا صحيًّا، ولا يحصل على الوقت الكافي من النوم، إنه بحقٍّ لا يفعل أي شيءٍ لنفسه كما ينبغي.



وفي حقيقة الأمر فإن صحته كانت في تدهورٍ مستمر، أي أنه يغش في عدد السنين التي من المحتمل أن يعيشها، إنه يبالغ جدًّا، فبالرغم من أنه لم يقم بالانتحار فعليًّا، لكن إساءة استخدام جسده وتدميره بهذه الطريقة، ألا يعتبر انتحارًا؟

إنه لم يتقبل حقيقة الحياة التي أصبح مجبرًا على العيش فيها، لم يتقبل حقيقة مرور ثمانية شهور منذ أن سقط آخر رجلٍ مصاب بالوباء، وتسعة شهور منذ آخر حوارٍ تبادله مع شخصٍ ما، وعشرة شهور منذ رحلت (فيرجينيا) عن هذا العالم.

وهو يقف الآن هنا بلا مستقبلٍ وبلا أملٍ في الحاضر، فهل سيكمل الطريق إلى آخره؟ ولماذا؟

هل هي الغريزة؟ أم أنه الغباء؟

لقد كان لديه دوافع كثيرة ليدمر نفسه، فلماذا لم يفعل؟

لماذا لم يفعل عندما كان في القاع محطمًا كليًّا؟

ما الذي حثه على التمسك بالحياة والبقاء في منزله محصنًا؟

ما الذي دفعه للحصول على فريزر؟ ومولد كهرباء؟ وموقد وسيارة؟

ما الذي شجعه على بناء مدفأة؟ وتوصيلات مياهٍ جديدة؟

ما الذي حفزه على التجول كثيرًا كي يجمع أسطوانات الموسيقى؟ وعلب الطعام، والحلوى، والكتب؟

ما الذي جعله يلصق تلك الجدارية الضخمة على الجدار؟

هل منحته الحياة شيئًا غير ملموس كي تجبره على التمسك بها بمثل هذه القوة؟

هل هي الطبيعة البشرية التي تكره الموت وتتعلق في كل بارقة أمل؟

وأخيرًا أغمض عينيه عندما لم يحصل على إجاباتٍ، فتمسكه بالحياة من وجهة نظره الآن، كان تصرفًا في منتهى الغباء، ثم قام بلصق الجدارية التي مزقها سـابقًا وفعل ذلك بمهارةٍ لم تجعل الشقوق تبدو ملحوظة، وحاول باختصار التفكير في مشكلة البكتيريا من جديد، ولكنه أيقن أنه لن يتمكن مـن التركيز في أية فكرة غير ذلك الكلب الذي ظهر له بدون مقدماتٍ من العدم.

فأخذ يدعو الله بتبتلٍ وصدقٍ ربما ليس من أجل الكلب فقط بل من أجله هو أيضًا، فهو في حاجةٍ ماسـة لأن يشـعر بوجود الله إلى جواره ليحميه من كل ما يحيط به، وبالرغم من دعائه إلا أنه شعر بتأنيب الضمير لكونه تأخر في طلب المسـاعدة من الله، ولكنه استمر في الدعاء، فهو في حاجةٍ ماسة إلى ذلك الكلب مهما كان الثمن.

الفصل الثالث عشر

في الصباح الباكر أســرع (نيفيل) إلى خــارج المنزل، فلم يجد أثرًا للحليــب والهامبرجــر، لقد اختفــى الطعام الذي وضعــه للكلب في المســاء، فأخذ يتفقد المــكان من حوله ورأى امرأتيــن مكومتين على الأعشــاب، ولم يكن هناك أي أثرٍ للكلب أو بمعنى أصح لجثته، فشكر الله على ذلك، وحينها ابتسم بسخريةٍ، وتمتم:

- لقد اســتجاب الله لدعواتي، فلو أنني أتمتــع بالإيمان الحقيقي، لمنحني الرب طريق الخلاص منذ زمنٍ طويل.

وأخذ يلوم نفســه على عدم استيقاظه مبكرًا في التوقيت الذي حضر فيــه الكلب والذي خمن أن يكون بعد الفجر مباشــرةً مع الضوء الأول للنهــار، فحينها تكون الشــوارع الخالية قد أصبحت آمنــة، ولا بد أن الكلب قد طور أجهزته ليتكيف مع النظام الجديد للحياة.

- لماذا لم أستيقظ في وقتٍ أبكر؟

لكنه قــرر أن يفكر بطريقةٍ إيجابية، فهو على أقل تقدير قد تمكن من اكتساب وده بالحليب والطعام مما سيجعله يفكر بالعودة ثانية بلا شك.

ثم توقف لحظة وهو يتساءل بحيرة:

- أليس من المحتمل أن يكون مصاصو الدماء هم من أخذوا الطعام؟



فأسرع ليتفقد المكان لينهي شكوكه، فالهامبرجر تم سحبه عبر قلادة الثوم التي كانت لا تزال تحمل بللًا ملموسًـــا نتيجة لعقها بلسان الكلب علـــى أغلب الظن، كما أن هناك بقايا قطــرات من الحليب على الرواق الذي يحمل طبعات أقدام حيوانٍ صغيرٍ وليست طبعات أقدامٍ بشرية.

وقبـــل أن يتناول فطوره، وضع المزيد مـــن الحليب في الخارج في مكانٍ مظللٍ كي لا تفسده حرارة الشمس، ووضع أيضًا المزيد من قطع الهامبرجر الطازجة، وبعد القليل مـــن التفكير أحضر إناءً صغيرًا به ماء بارد، ثم عاد إلى المنزل فهو يشعر بجوعٍ شديد.

وما أن أنهى فطوره حتى حمل جثتي المرأتين إلى حفرة النار وألقى بهمـــا هناك، وفي طريق عودته مر على أحد المتاجر الكبيرة وأحضر من هناك الكثير من الأغراض:

* درزينتين من أفضل أنواع معلبات طعام الكلاب.
* والبسكويت الخاص بالكلاب.
* والحلوى التي يفضلها الكلاب.
* وحساءً شهيًّا مُعد خصوصًا للكلاب.
* وبودرة مضادة للحشرات التي تعلق بفراء الكلاب.
* وفرشاة وشامبو ذا رائحة مميزة تحبها الكلاب.

هل هو الحنين لأن يكون أبًا ويحصل على طفلٍ مرةً ثانية؟



فكر بذلك التساؤل وهو يحمل كل تلك الأغراض إلى السيارة، ولماذا الإنكار والمكابرة!

فللمرة الأولى منذ عامٍ كاملٍ يشعر بمثل تلك الإثارة واللهفة، فالحماس الذي ملأ جوانحه عندما رأى لأول مرة تحت الميكروسكوب الجرثومة التي تحول الشخص إلى مصاص دماءٍ، لا يمكن مقارنته بأي حالٍ من الأحوال بالحماس الذي دب في أوصاله في اللحظة التي رأى فيها الكلب.

وبسرعة ثمانين ميلًا في الساعة قاد سيارته عائدًا إلى المنزل، وما أن وصل حتى صدر منه لا إراديًّا صوت أنين خيبة الأمل عندما وجد أن الطعام والحليب والماء لم يمسهم أحد، فحدث نفسه:

- وماذا كنت تتوقع بحق الجحيم؟

فمن أخبرك أن الكلاب تأكل كل ساعةٍ، أيها الأحمق؟!

وحمل الأغراض التي أحضرها معه إلى الداخل ووضعها على طاولة المطبخ ثم نظر إلى ساعته فوجدها العاشرة والربع صباحًا، وفكر بصوتٍ مسموع:

- سوف يعود الكلب عندما يشعر بالجوع، يجب أن أمنح نفسي الأمل، وإلا لن يفعل أحدٌ آخر هذا الشيء معي.

رتب المعلبات سريعًا، ثم توجه إلى الخارج وتفقد المبنى الزجاجي المخصص للنباتات، فوجد أن هناك لوحًا يحتاج إلى الإصلاح،

وحوضًا يجب تثبيته جيدًا، فأنهى تلك الأعمال وجمع بعض الثوم الذي اكتمل نموه، وهو يسأل نفسه سؤالًا كثيرًا ما حيره:

- لماذا لا يشعل مصاصو الدماء النيران في هذا المنزل الزجاجي الذي يزرع بداخله الثوم؟

فهو تصرفٌ بديهي جدًّا كي يتخلصوا من مصدر عذابهم، ولكن ربما هو يخافون من أعواد الثقاب!

أم أنهم فقط في غاية الغباء!

فلا بد أن عقولهم لم تعد تعمل بكفاءةٍ كما كانت من قبل، فالتحول المفزع من بشرٍ عاديين إلى أن يصبحوا موتى متحركين، لا بد وأنه سبب تلفًا شديدًا في بعض أنسجة المخ.

- لا؛ لا أظن هذا هو التفسير المنطقي، فمن بين من يتجولون حول منزلي ليلًا الكثير من مصاصي الدماء الأحياء، وليس فقط الموتى المتحولون.

ولكنه تجاهل الأمر برمته، فهو في مزاجٍ لن يسمح له بالحيرة والشتات.

وأمضى (نيفيل) بقية النهار في إعداد قلائد الثوم وتعليقها حول المنزل بحرصٍ وعنايةٍ وفي أماكن منتقاة جيدًا وكان يفعل كل ذلك وهو يتساءل عن السبب الذي يجعل فصوص الثوم تمتلك كل تلك القدرة الخارقة والتأثير على مصاصي الدماء بينما في الأساطير والقصص الخرافية، فإن تلك القدرة تقتصر على زهور نبات الثوم وليس فصوصه!



ولكن ما الفرق؟

هكذا أجاب على سؤاله بسؤالٍ آخر وهو يستهجن الفكرة نفسها، فلا بـــد أن لزهور الثوم نفس تأثير فصوصه، فكل ما يعنيه هو أن الأمر ينجح بامتيازٍ ويجعلهم يفرون بعيدًا.

وبعد أن تناول الغداء ظل جالسًـــا أمام ثقب المراقبة يحدق في إناء الحليب والطعام ويترقب مجيء الكلب ولكن الصمت كان يعم المكان بأكمله إلا مـــن حركة الهواء القادم من أجهـــزة التكييف في غرفة النوم والحمام والمطبخ.

وأخيرًا جاء الكلب في الرابعة عصرًا

وكان (نيفيل) قد ســـقط في غفوةٍ وهو على كرســـيه دون أن يشعر، وحين فتح عينيه ببطءٍ لمح الكلب يعبر الطريق بخطواتٍ غير ثابتة بينما وهو يراقب كل ما حوله بحذرٍ شـــديدٍ بدا أنه غريزي، وأخذ يتساءل عن مدى ســـوء إصابة قدمه الخلفية وتمنى لو أنه يمتلك الفرصة لعلاجها، فربما بهذه الطريقة سيكتسب ثقته ومشاعره وبالتالي صداقته.

وأجبر نفسه على البقاء في مكانه يراقب عن بعدٍ ما يحدث وهو غير مصدق لذلك الفيض من الأحاســيس الدافئة والحنونة التي يشـــعر بها تجاه هذا الكلب الذي بدأ في تناول الطعام اللذيذ بنهمٍ شديدٍ حيث مزق اللحم بأنيابه ومضغها باســـتمتاعٍ مع بعض جرعاتٍ من الحليب، وبقي (نيفيل) يراقب كل ما يحدث وعلى شفتيه ابتسامة ودودة، لم يكن يشعر بها أو يتعمدها، وتمتم:

- يا له من كلبٍ لطيف!

وشـــعر بغصةٍ في حلقه ما أن رأى الكلب ينهـــي طعامه ويبتعد عن الحديقة الأمامية للمنزل، فقفز من على كرســـيه مسرعًا في اتجاه الباب إلا أنه أحكم السيطرة على نفســـه بصعوبةٍ بالغةٍ في اللحظات الأخيرة، وتحدث بصوتٍ هامس:

- لا؛ ليســـت هذه هي الطريقة الصحيحة أبدًا، فأنت ســـوف تخيفه وتســـبب له الذعر إن طاردته، فاتركه يرحل بهدوءٍ الآن، وســـوف يعود مجددًا من تلقاء نفسه، نعم سوف يعود، أنا على يقينٍ من هذا.

وبالفعـــل رجع إلى ثقـــب المراقبة ونظـــر إلى الكلـــب وهو يغادر بخطواتٍ تعرج حيث عبر إلى الناحية الأخرى من الشـــارع واختفى في الممر بين المنزلين كما فعل من قبل، وعاد (نيفيل) ليشعر بنفس الغصة المؤلمة ولكنه كان يظن أن ما قام به هو الأمر الصواب، فالكلب سيعود، وقام وغادر الكرســـي من خلف ثقب المراقبة وأعد لنفسه شرابًا معتدلًا ثم أخذ يحتسيه بلذةٍ وهو يفكر؛ أين يذهب الكلب في المساء؟

ففي البداية كان يشعر بالقلق تجاهه والخوف عليه، ولكنه ما لبث أن أدرك حجم المهارات الغريزية التي يمتلكه كي تســـاعده على الاختباء والتخفي والتـــي بالطبع تطورت وجعلته يتمكن مـــن مقاومة الطاعون والوحوش التي خلقها الطاعون.

لذا لام نفسه على كل لحظةٍ شعر فيها باليأس، فإن تمكن مجرد كلب من تخطي كل تلك الصعوبات والتعايش معها، فكيف يفشل هو في فعل ذلك وهو الذي يمتلك عقلًا وقدراتٍ ميزه الله بها.

وفي الصباح التالي جاء الكلب، وهذه المرة فتح (روبرت نيفيل) الباب وخرج إلى الحديقة وعلى الفور تراجع الكلب إلى الخلف بذعرٍ تاركًا صحن الطعام ثم عبر الشارع إلى الجهة الأخرى، فشعر (نيفيل) برغبةٍ لا تقاوم في اللحاق به، ولكنه لم يفعل.

وجلس على حافة الرصيف يراقبه وهو يختفي في الممر بين نفس المنزلين، وبعد خمس عشرة دقيقة عاد إلى المطبخ وتناول شطيرة سريعة، ثم أحضر المزيد من الطعام والحليب للكلب الذي عاد للحضور في الساعة الرابعة عصرًا.

وخرج إليه (نيفيل) ولكن هذه المرة بعد أن تأكد من أنه أنهى كل طعامه، وما أن لمحه الكلب حتى تراجع لكن دون خوفٍ حيث أنه لم يشعر أن أحدًا ما يلاحقه، فتوقف للحظةٍ في منتصف الطريق ونظر خلفه، وحدثه بنبراتٍ ليست عالية:

- لا بأس يا صديقي، لا أحد سيتسبب لك في أذى.

ولكن مع آخر حرفٍ تفوه به، أسرع الكلب في الفرار بعيدًا والاختفاء، وظل (نيفيل) جالسًا على حافة الرصيف واليأس يعتصره، وقد أخذ يضغط على أسنانه بغضبٍ وهو يتمتم:

- ماذا دهاك؟

اللعنة؛ لماذا تفر في كل مرة؟

ووجد نفسه مجبرًا على التفكير في كل ما مر به هذا الكلب من أهوال، فطويلة هي تلك الليلة التي قضاها مشردًا وسط الظلام يتوسل الرحمة ويرتجف خوفًا وهو يبحث عن مكانٍ يختبئ فيه بعيدًا عن أنياب مصاصي الدماء، وكم عانى كي يحصل على الطعام والشراب هذا بخلاف الحياة وحيدًا دون رفيقٍ أو صديق.

ثم تمتم:

- سوف أكون صديقًا رائعًا إن قررت المجيء والعيش معي.

ربما كانت فرص الكلب في النجاة من مصاصي الدماء أفضل من فرصه هو شخصيًّا، فصغر حجمه يمنحه أفضلية الاختباء في أماكن يصعب الوصول إليها كما أنه يمتلك حاسة غريزية تنبهه عندما يشعر بالخطر أو ربما يمكنه أن يشم رائحتهم عن بعد.

الحقيقة أنه في حاجةٍ ماسة إلى رفيق، فكثيرًا ما كان يُدلل نفسه ببعض الخيالات التي يختلق فيها أشخاصًا يتعامل معهم بحبٍّ وإخلاصٍ متجاهلًا حقيقة أنه الرجل الوحيد في العالم الباقي على قيد الحياة، وأنه يحتاج إلى وجود شخصٍ ما:

رجل

امرأة

طفل

كلب

لا يعنيه.

إنه غارق في أفكاره المشوشة لدرجة أنه لم ينتبه إلى أن الليل قد حل ومعه الظلام ومعهما الكائنات المرعبة، التي من الممكن أن تقضي عليه في لحظةٍ واحدة، وفجأة سمع صوت (بين كورتمان) يصيح به:

- مرحبًا يا (نيفيل).

فقفز مــن مكانه مذعورًا وركض بكل قوته إلى المنزل وصفق الباب خلفه بشدةٍ ثم أحكم إغلاقه، وتأكد من ذلك أكثر من مرة.

***

لكثيرٍ من المــرات وما أن ينتهي الكلب من تناول طعامه، كان يغادر المنزل إلى الرواق الذي في مواجهة الحديقة، وفي كل مرةٍ يراه الكلب فيها يبتعد سريعًا ولكن مع مرور الأيام أصبحت سرعته التي يفر بها أقل، وكذلك انتفاضة جســده نتيجة الخوف، وتطور الأمر إذ بدأ يتوقف في منتصف الشارع وينظر إلى (نيفيل) ويصدر أصواتًا خافتة ليست بالنباح.

ولــم يقم (نيفيل) في أي مرةٍ باللحاق بــه أو مطاردته بل كان يكتفي بالجلوس في هدوءٍ على حافة الرصيف يراقب كل تصرفٍ يقوم به، فقد تحول الأمر إلى ما يشبه اللعبة بين الطرفين.

وفي أحــد الأيام ذهب (نيفيــل) إلى الخارج قبــل وصول الكلب وجلس هناك ينتظره حتى أتــى بخطواته التي بها عرج إلا أنه لم يقترب وظل يحوم حول المــكان من بعيدٍ لأكثر من ربع ســاعةٍ كاملة، وأخذ

الكلب يتحرك بريبةٍ وشــكٍّ ما بين اقترابٍ وابتعاد، وهو في حيرةٍ تمنعه عن حسم أمره واتخاذ قرارٍ واضح.

وكان (نيفيــل) يتعمد الجلــوس بعيدًا عن مــكان الطعام، ربما كي يطمئنه ويشــجعه على المجيء، إلا أنه وضع ساقًا على ساق دون وعيٍ مما جعل الكلب يرتــاب ويتراجع خوفًا قبل أن يعــود لنفس حركات الحيرة من جديد، وعينــاه تتجولان ما بين (نيفيل) تــارة والطعام تارة أخرى.

فنادى عليه:

- هيا يا صديقي، لا تخف.

هيا تقدم إلى هنا.

تعال وتناول طعامك، إنه جيد ولذيذ.

وبعد عشــر دقائق أخرى كان الكلب قد أصبح على العشب يتحرك في دوائــر ذات مركزٍ ثابت وهو صحن الطعــام، وأخذت تلك الدوائر تضيق تدريجيًّــا وببطءٍ حتى وصل إلى هدفه، وبــدأ في الأكل دون أن يرفع عينيه عن (نيفيل) ولو للحظةٍ واحدة.

- رائع يا صديقي

أحسنت

أنت طفل ذكي.

وهذه المرة لم يخف الكلب ولم تجبره كلمات (نيفيل) على التراجع كما كان يفعل ســابقًا بل ظل يكمل طعامــه وهو في حالة تحفزٍ قصوى

واســتعدادٍ تام للفرار بســرعة مع أية حركة قد تصدر عن (نيفيل) الذي كان في غاية الحرص على ألا يفعل ذلك، فانكمش في مكانه بســكونٍ وهدوءٍ وكأنه تمثال من الشمع.

- هذا جيد

ما تقم به هو الصواب.

بعد هذه الكلمات اندفع الكلب فجأة ساحبًا معه قطعة اللحم الكبيرة بينما أخذ (نيفيل) يترجاه ضاحكًا في البقــاء، وهو يراقب حركته الغير منتظمة عندما بدأ يعبر الشارع بتمايل.

وعلى الجهة المقابلة وضع قطعــة اللحم وأخذ يكمل تناول طعامه على العشــب الأصفر، وقد افتــرش الأرض بهدوءٍ وثقــةٍ وكأنه ذئب شجاع، فتمنى له (نيفيل) وجبةً هنيئة، وقال:

- أيها الكلب الشــره، اســتمتع بهذه الوجبة، فبعد الآن لن أتحمل تكلفة تقديم اللحم الطازج لك.

وبعد أن أنهى طعامه قام من جلسته وتوقف في منتصف الشارع ينبح بصوتٍ خافتٍ في اتجاه (نيفيل) الذي ظل في مكانه يشــعر بنوعٍ غريبٍ من الفرح، فالكلب قد بدأ يثق به إلى حدٍّ ما، وهذا يجعله ســعيدًا، فنظر مباشرة في عينيه وقال بود:

- هيا يا صديقي

هيا لتحصل على المياه النظيفة

والحليب اللذيذ.

وابتســـم ما أن رأى أذن الكلب الســـليمة ترتفع وتتحرك تجاه صوته القادم عبر الشارع.

- إنه يصغي لما أقوله

إنه يستمع إلى نبرات صوتي.

هكذا قال (نيفيل) لنفسه بحماسٍ، ثم أكمل حديثه:

- تعال إلى هنا دون تردد

لن أقوم بإيذائك أبدًا.

وبالفعل توجه الكلب إلى حيث توجد المياه وشـــرب حتى ارتوى، وهو يراقب كل ما حوله.

- لن أقوم بفعل أي شيءٍ سيئ

صدقني.

وأخذ يفكر بعد تلك الجملة بأن صوته قـــد أصبح في غاية الغرابة، فعندما يمر عام كامل دون أن يســـتمع الرجل إلى صوته فهو يســـتغربه تمامًا، ولا بد أن هذا هو ما يشعر به الكلب بعد أن قضى كل تلك الشهور وسط الصمت المخيف.

- إن جئت للعيش معي، فسأعالج أذنك

تعال إلى هنا بالقرب مني.

هكذا كان (نيفيل) يتحدث بطريقةٍ ودود محببة وهو يربت على ساقه، فنظر إليه الكلب بارتيابٍ ما أن انتهى من الشرب، ولم يستغرب (نيفيل) أبدًا ما يشعر به الكلب من خوفٍ وتوترٍ وشكٍّ يملأ عينيه المسكينتين.



وأكمل محاولاته المستميتة برفق:

- إنه قرار سهل

فقط تعال إلى هنا.

ثم قام واقفًا مما جعل الكلب يبتعد، فأخذ يراقبه وهو يهز رأسه بنفاد صبر.

ومرت عـــدة أيامٍ أخرى، وفـــي كل يومٍ كان (نيفيـــل) يجلس على الرصيـــف يتأمل الكلبٍ وهو يتناول طعامه بعدٍ أن قرب الصحن والإناء من حيث يجلس أكثر من اليوم الســـابق، وكان الكلب يتقدم وقد تنازل عن تردده دون أن يضيع الحرص أبدًا.

واستمر (نيفيل) لا يفتأ يتحدث طوال الوقت كي يعتاد الوافد الجديد على نبـــرات صوته ويألفهـــا، ولا يعتبر أن صاحبها أحـــد الغزاة أو من الأعداء:

- مرحبًا أيها الولد الشقي

أنت رائع جدًّا

وكذلك الطعام إنه لذيذ

أليس كذلك؟

بالتأكيد إنه لذيذ كي يليق بك

أنا من أعددته لك

فأنا صديقك

أنا من يكترث لأمرك

إنها الحقيقة أيها الصغير الرائع.

لم يكن يتوقف عن الكلام أبدًا ولا عن المديح والغزل، وأشعره هذا بسعادةٍ بالغةٍ خاصة بعد أن لمس تأثير كلماته على الكلب، وكيف أنها لم تعد تخيفه بل على العكس أصبح وقعها عليه مريحًا.

حتى جاء اليوم الذي جلس ملاصقًا لمكان الطعام والشراب، وحتى في هذا اليوم لم يتردد الكلب وجاء بثقةٍ كالعادة وكان بالفعل ملاصقًا لـ (نيفيل) حتى أنه لو حرك جسده قليلًا لتمكن من لمسه، ولكن الرجل لم يفعل ذلك، فهو لم يشأ أن يقوم بأي حركةٍ تثير فزع الكلب وتكثر جسور الثقة التي عانى كي يمدها بصعوبة.

وبالفعل شعر (نيفيل) بصعوبةٍ بالغةٍ ورعشةٍ في يده، وهو يمنعها بقوةٍ عن ملامسة هذا الكائن الحي الأليف، فهو بعد كل هذه الشهور في حالة اشتياقٍ رهيبٍ وحنينٍ جارف لأن يكون بقرب شخصٍ على قيد الحياة حتى وإن كان هذا الكلب الجميل القبيح.

واستمر في الحديث إلى أن هدأ الكلب وخفت حدة تحفزه وأصبح في حالة استكانة حتى أنه غادر المكان، وعاد أكثر من مرة دون خوفٍ أو نباحٍ حاد، وأيقن (نيفيل) أنه قد نجح أخيرًا في مهمته، وأنه قريبًا جدًّا سيتمكن من أن يربت على رأسه.

ومرت أيام من السعادة والبهجة والإثارة تحولت إلى أسابيع جميلة لا تُنسى، وفي كل ساعةٍ كانت العلاقة تتوطد بينهما أكثر وأكثر وتصبح علاقتهما أقوى وأشد قربًا.

* * *



وفي أحد الأيام لم يأتِ الكلب.

نعم لم يأتِ.

وأصبح (نيفيل) كالمحموم فاقد العقل، فهو قد اعتاد على وجود الكلب في حياته حتى أن مجيئه وذهابه والفترة التي يمكثها معه، أصبحت من أساسيات التخطيط لكيفية قضائه لأي يومٍ يمر عليه، فكل حياته أصبح يخطط لها على حسب وقت تناول الكلب لطعامه، فالوقت الذي يحضر فيه تحول إلى حجر الزاوية الذي يُبنى عليه أي شيءٍ آخر، فقد نسي ما كان يقوم به من تجارب وفحوصات، لقد تنحت كل الأحداث والأفكار جانبًا أمام رغبة (نيفيل) المجنونة في أن يجعل الكلب يعيش معه في المنزل، وأمضى كل ما بعد الظهيرة يبحث بعصبيةٍ عن الكلب، ويفتش عنه في المنطقة المحيطة به كلها، وأخذ ينادي عليه بصوتٍ مرتفع، لكن كل هذا الجهد دون جدوى، فقرر العودة إلى المنزل وتناول غداءه الذي وجده دون طعمٍ أو نكهة، ولم يأتِ الكلب بعد الظهيرة كما تأمل (نيفيل) ولم يأتِ حتى في صباح اليوم التالي، وأيضًا خرج (نيفيل) ليبحث عنه واليأس يعتريه والأفكار السوداء تملأ رأسه.

- لا بد أنهم قد نالوا منه

الأوغاد الأقذار نالوا منه.

وأخذ يردد هذه الجملة بألمٍ وحسرة إلا أنه تمنى من أعماقه ألا يكون على حقٍّ فيما يفكر به، وانتهى البحث على لا شيء.

وفي وقت الظهيرة من اليـوم الثالث كان (نيفيل) في المرآب عندما وصل إلى مسـمعه صوت الصحن المعدني وهو يتحرك على الأرض الإسمنتية، فقفز بجنونٍ وأخذ يركض وهو يصرخ تحت ضوء النهار:

- لا شك أنه أنت

لقد عدت يا صديقي؛ أليس كذلك؟

وتراجع الكلـب إلى الخلف بخوفٍ وعصبية تـاركًا صحن الطعام بينما قطرات من الماء تتسـاقط من فمه، وتسارعت دقات قلب (نيفيل) دون قدرةٍ منه على السيطرة، فقد هاله ما رأى؛ كانتا عينا الكلب تلمعان بطريقـةٍ غريبة لم يعتدها، وصدره يلهث بقوةٍ مصدرًا صوتًا شـاذًّا بينما تحول لون لسـانه الكبير إلى الأسود الداكن، فردد بذهولٍ وهو في حالةٍ من الصدمة المروعة:

- لا، لا، لا، لا.

وظل الكلب يتراجع بحركاتٍ عشـوائية وهو يقف وسـط الحديقة بينمـا قوائمه ترتعش، وعلى الفور جلـس (نيفيل) على حافة الرصيف كما كان يفعل كل يومٍ من قبل والحزن العارم يعصف به بينما استمر في ترديد كلمة "لا" دون وعيٍ منه، وأخـذ يراقب الكلب الذي تقدم وهو يرتجف ناحية إناء المياه، وأخذ يلعق منه وهو يلهث بقوة.

- لا يمكن أن يحدث هذا

إنها ليست الحقيقة

يا إلهي



لا

لا

لا.

كانت تلك هي كلمات (نيفيل) التي قالها وهو يبســـط ذراعيه وكأنه يدعو الكلب إلى عناقٍ حار، لكن بـــدلًا من العناق تراجع الكلب بذعرٍ وخوفٍ وهو يزمجر كاشفًا عن أنيابه الحادة الطويلة، وخرجت زمجرته مبحوحة على غير العادة.

فعاد (نيفيل) للحديث بألم:

- لا تخف يا صغيري

كل شيءٍ سيكون على ما يرام

أنا لن أقوم بإلحاق الأذى بك

لقد افتقدتك كثيرًا.

ولم يكن في واقع الأمر يعرف مـــا الذي يقوله بل كان يتحدث فقط لمجرد الحديث.

ولم يتمكن من منع الكلب عن الرحيل لكنه حاول اللحاق به إلا أنه قد اختفى قبل أن ينجح في معرفة أين يختبئ، وتوقع أنه لا بد سيكون في إحدى الزوايا أسفل أي منزلٍ من تلك المنازل المجاورة.

ولـــم يتمكن أبدًا من النـــوم في هذه الليلة، وظل يســـير داخل غرفة المعيشـــة من زاويةٍ إلى أخـــرى دون الحصول على قـــدرٍ من الراحة، واســـتمر في تناول الكثير من القهوة كي يخفف ما يشـــعر به من صداعٍ

خانق، وأخذ يصب اللعنات ويكيل الشتائم للوقت الذي يمر ببطء، فهو يريـــد أن يأتي النهار كي ينطلق ليبحث عـــن الكلب ويجلبه إلى هنا كي يبدأ في علاجه

ولكن كيف؟ لا بد وأن هناك طريقةً ما، ولكن ما هي؟

حسنًا؛ سيتوصل إليها ولو بالقدر الضئيل من المعرفة التي يمتلكها، مهما كان الثمن.

وفي الصباح التالـــي جلس ملاصقًا لصحن الطعـــام وإناء الحليب وشـــفتاه ترتعشـــان، ولم يطل الوقت حتى وصل الكلب وعبر الشارع وهو يعـــرج إلا أنه لم يقترب من الطعام وكانت عينـــاه باهتتين ونظراته فاترة حتى أكثر مما كانتا عليه بالأمس مما أشعر (نيفيل) بالحزن العميق وبرغبـــةٍ مجنونة فـــي أن يقفز عليه ويختطفه إلى داخل المنزل بســـرعةٍ وجنونٍ، ويبدأ في محاولة علاجه على الفور.

ولكنه كان يعرف أن تلك الفكرة ستكون مغامرة غير مأمونة العواقب، فإن فشـــل في تنفيذها لسببٍ أو لآخر، فهذا يعني أن الكلب لن يعود إلى هذا المكان مرة أخرى إلى الأبد، فأخذ يشير له ويدعوه إلى الاقتراب إلا أنه في كل مرة كان يزمجر ويتراجـــع بغضب، فحاول (نيفيل) أن يكون أكثر حسمًا، فصاح بنبراتٍ حادة:

- توقف ولا تبتعد أكثر

هل فهمت؟

ولكن كانت النتيجـــة أن الكلب تراجع أكثر وأكثـــر، فأخذ (نيفيل) يتحدث إليه بطريقته الســـابقة الحنون لمدة خمس عشـــرة دقيقة كاملة حتى اقترب الكلب وتوجه إلى إناء الماء وبدأ في الشـــرب، وهنا قرر أن يتبع الكلب حين يرحل كي يعرف تحت أي منزلٍ يختبئ، وبالفعل نجح في ذلك بعد أن تعامل بحرصٍ شديدٍ وفطنة، وكان هناك بعض الشبكات الحديدية المتينة وفكـــر أن يضع واحدة منهن على المدخل كي يوفر له المزيد من الحماية، لكنه إن فعل، فهذا يعني أن الكلب سيظل حبيسًا في مخبئه مما سيخيفه ويجعله يشعر بالتوتر والانزعاج، وهذا سيعني رحيله عن المكان وعدم عودته مرة أخرى.

وفي اليوم التالي مر الصباح بطوله، وما أن حان وقت الظهيرة، وكان الكلـــب لم يأتِ حتى هـــذه اللحظة مما اضطر (نيفيـــل) إلى أن يحمل إناء الحليب ليضعه أســـفل المنزل الذي يختبئ تحته ثم تركه في مكانه ورحل.

وفي الصباح وجد الإنـــاء خاليًا تمامًا، وهم (نيفيل) بإحضار المزيد من الطعام والماء إلا أنه فكر في أن الكلب بهذه الطريقة لن يبرح مكانه وســـيظل مختبئًا في الداخل، لذا وضع الصحـــن والإناء عند منزله كما هي العادة منذ أسابيع، وتوجه بالدعوات إلى الله أن يمنح الكلب القوة اللازمة كي يأتي بنفسه ليتناول الطعام، وهذه المرة لم يعقب على دعواته بأي تعليقٍ ســـاخرٍ كما فعل من قبل، ومر الوقت ثقيلًا ولم يأتِ الكلب حتى نهايـــة الظهيرة، فذهب إليه ووضع له إنـــاء الحليب وهو في حالةٍ

من اليأس والإحباط، فربما ستكون النهاية هنا في تلك الحفرة التي لن يغادرها بعد الآن.

عاد (نيفيل) إلى منزله الكئيب، وقضى الليلة دون نومٍ أو راحة، وفي الصباح انتظر الكلب لكن عبثًا، فأخذ الحليب والماء وتوجه إلى المكان الذي يختبئ بداخله إلا أنه أيضًا لم يظهر ولم يصدر عنه أي صوتٍ ولا حتى صوت أنفاسه اللاهثة:

- يا إلهي، لا بد أنه بعيد في أقصى الحفرة أو أنه......

لا، لا.

لقد خشي أن يكون قد مات، لذا وقف بيأسٍ للحظاتٍ قبل أن يعود إلى حافة الرصيف المقابل لمنزله ويجلس عليه بمنتهى الألم والوهن، ولم يتناول فطوره ولا حتى الغداء ولم يحرك ساكنًا لساعاتٍ طويلة، وقبل أن ينتهي النهار كاد أن يصرخ من الفرح عندما شاهد الكلب قادمًا من بين المنازل وهو يمشي بخطواتٍ ضعيفة وبها عرج معتاد، وهم بالركض ناحيته إلا أنه أجبر نفسه على السكون التام والتزام الصمت حتى وصل إلى الطعام وبدأ في تناوله، وفجأة حسم أمره ودون ترددٍ قفز ناحيته وأمسك به بقوةٍ بين ذراعيه، وعلى الفور أخذ الكلب يتلوى باذلًا كل جهده للخلاص من بين القبضتين المحكمتين وهو يحاول أن ينهش (نيفيل) ويعضه إلا أن الأخير أغلق الفم المفتوح سريعًا مما جعل الكلب يحاول إفلات جسده النحيل الخالي من الشعر بعد أن



تساقط بغزارةٍ خلال الفترة السابقة، ثم بدأ يرفع صوته الضعيف بالنباح والزمجرة، وأخذ (نيفيل) يتحدث معه:

- لا بأس يا صديقي

ستكون الأمور بخير.

وظل يكرر نفس الجملة ربما لألف مرة أو أكثر، ثم دخل به إلى غرفة النوم ووضعه على سـريرٍ صغير من الأغطية والشراشـف كان قد أعده له سـابقًا، وما أن أفلت يده عن الفم المتحفز حتى شعر بأسنان الكلب تخترق ذراعه، فسحبها على الفور بقوةٍ وبطريقةٍ تلقائية، وانتفض الكلب مغادرًا السرير الصغير وأخذ ينشب مخالبه في أرض الغرفة ممزقًا الغطاء البلاستيكي المفروش عليها، ثم وقف للحظةٍ يتأمل المكان وما أن لمح الباب حتى أسرع محاولًا الفرار إلا أن (نيفيل) قفز وأغلقه بسرعةٍ فائقة مما جعل الكلب ينزلق ويغير اتجاهه إلى أسـفل السرير واختفى هناك وسط الظلام، فانحنى (نيفيل) على ركبتيه وتفقد المكان الضيق المعتم ليجد عينين متوهجتين يملأهما الخوف والفزع والألم، فنادى عليه:

- تعال إلى هنا أيها الصغير الرائع

لا تخف، فلن أسبب لك أي أذى

أنت مريض ويجب أن تحصل على العلاج اللازم.

ولم يتزحزح الكلب مما جعل (نيفيـل) يقف ويغادر الغرفة ويغلق بابهـا من خلفه ليحضر مـن المطبخ إناءً مليئًا بالحليـب وآخر به قطع مـن اللحم ووضعهمـا بجوار السـرير الصغير الذي أعـده خصوصًا

للكلب، وجلس في منتصف المســـافة بين السريرين يستمع إلى اللهاث المتواصل، وقال بنبراتٍ حنون:

- هيا كي تتناول الطعام

لا تخف، لماذا لا يمكنك الوثوق بي؟

فقط تعال إلى هنا، ولن تندم.

* * *

دون أن يعرف أي شـــيءٍ عن التوقيت ســـوى أنه كان يتناول العشاء ســـمع (نيفيل) فجأة صوت نباحٍ واهن وزمجرةٍ تشي بالكثير من الألم، فشـــعر بقلبه ينقبض وغصة تشـــق حلقه، فقفز من على كرســـيه مزيحًا الطاولة وركض عبر غرفة المعيشـــة إلى غرفة النـــوم وفتح بابها وأضاء المصباح الخافت، وفـــي الزاوية الملاصقة للنافذة وجد الكلب يحاول أن يحفر حفرة في الأرض بمخالبه وأســـنانه بينما جســـده يرتجف من الخوف والفزع، وصوت حاد يخرج من حنجرته، فتوجه (نيفيل) ناحيته ببطءٍ وأخذ يحدثه:

- لا تخف يا صديقي

سيكون كل شيءٍ على ما يرام.

فانتفض الكلب وتحرك إلى زاويـــةٍ أخرى وبدأ يُخرج من فمه ومن بين أسنانه الصفراء سائلًا لزجًا واســـتمر في إصدار هذا الصوت الحاد الذي يشـــبه الأنين، وعلى الفور فهم (نيفيـــل) ما الذي يحاول أن يفعله الكلب، فهو يحاول أن يخفي جســـده تحت الأرض فرارًا من مصاصي

الدماء لأنه يعرف أن الليل قــد جاء وهو الموعد الذي يظهرون فيه، لذا يجب أن يجد حلًّا ســريعًا كي يتمكن من تهدئته والسيطرة على الوضع خاصة وأن الكلب قــد زادت حدة توتره وأصبحــت حركته أكثر عنفًا ويأسًــا، وأخيرًا جالت بخاطره فكرة، فأســرع بسحب الملاءة من فوق الســرير وغطى بها طاولــة الآلات، حيث انســدلت أطرافها من على جوانب الطاولة فبدت كملجأٍ مناســب يصلح للاختباء، وبالفعل أسرع إليه الكلب الذي كان يوشــك على أن ينســحق في الجــدار من الفزع والخوف والعجز عن الاختباء، وتكور الكلب على نفســه وهو يرتجف ويلهث بقوةٍ بينما جســده الضعيف ينتفض بقوةٍ بيــن الحين والآخر، ووقف (نيفيل) بحيرةٍ لا يعرف كيف يمكن أن يســاعد هذا المســكين، فمجرد الاقتراب ولو قليلًا سيزيد الأمر تعقيدًا وألمًا، وفكر أنه إن استمر علــى تلك الحالة المريعــة فقد يلجأ إلى تخديره كــي يهدأ ولو لبعض الوقت، وقد يمنحه هذا الأمر أيضًا فرصة كي يحاول علاجه بأي طريقةٍ ممكنة، وعاد إلى المطبخ بعد أن شــعر بالجوع فهو لم يتناول أي طعامٍ منذ فترةٍ ليست بالقصيرة إلا أنه لم يجد لديه أدنى رغبة في الأكل، فألقى بالصحن البلاستيكي وما به من طعامٍ في سلة القمامة، وأعد لنفسه كوبًا من القهــوة، ظل ينظر إليه حتى برد ولم يتناول منه ولو رشــفة، وأخيرًا توجه إلى غرفة المعيشــة وبدأ يفكر في الحصول على بعض الشراب، فذهب إلى البار وصب لنفسه كأسًا ممتلئة تجرعها على مرةٍ واحدة، فلم

يشـــعر لها بطعمٍ أو تأثير، ثم عاد إلى غرفـــة النوم ووجهه مليء بملامح الهم والحزن.

وكان الكلب قد لف جســـده بالكامل في واحدةٍ من الملاءات التي ألقاهـــا إليه قبـــل أن يغادر الغرفـــة، ولا يزال يرتجـــف ويئن بلا توقف وبصوتٍ يمزق القلب، شـــعر (نيفيل) باليأس الشديد والعجز عن فعل أي شـــيءٍ يمكن من خلاله أن يخفف عنه تلك المعاناة، لذا جلس على الســـرير بصمتٍ وهو يمرر يديه بين خصلات شعره قبل أن يدفن فيهما وجهه، وأخذ يتمتم:

- يجب أن أعالجه

يجب أن أعالجه

ولكن كيف؟

وعندما فشـــل في الحصول على إجابةٍ، أطفـــأ الأضواء وتمدد على الســـرير وهو يرتدي كامل ملابســـه، ثم نزع حذاءه وألقـــاه أرضًا وهو يســـتمع إلى صوت ســـقوطه المدوي، وبعد ذلك الصوت عم الصمت أرجـــاء الغرفة بينما ظل هو يحدق في الســـقف بلا هدفٍ محدد، وأخذ يفكر وهو يطرح نفس السؤال:

- كيف يمكن أن أعالجه؟

ثم تحول للنوم على جانبه وهو على يقينٍ من أنه ســـيبقى هذه الليلة بطولها مستيقظًا يســـتمع إلى بكاء الكلب الذي لا يهدأ، وهو عاجز عن الوصول إلى حلٍّ يحميه به من الموت.



- سيموت، نعم سيموت إن لم أتصرف سريعًا

ولكن في الحقيقة أنا لا أملك أي شيءٍ لأفعله.

قالها (نيفيل) في أعماقه دون أن ينطق بها لسـانه، وأدرك أن النهاية ستكون حتمية وقريبة، فقام من على السرير بعد أن شعر أنه لم يعد قادرًا على تحمل هذا الصوت، وأضاء (أباجورة) خافتة وأخذ يسـير مرتديًا جواربه، وهنا شعر بالكلب يتحرك بعشوائيةٍ في محاولةٍ لأن يتخلص من الملاءة التي التفت على جسده وتشـابكت من حوله وأخذ ينبح وكأنه يطلـب النجدة من أحدٍ ما بينما أطرافه تنتفـض عجزًا، فجلس (نيفيل) على الأرض ومد يده وتحسـس بها الجسد النحيل من فوق الملاءة إلا أن الكلب أخـذ يزمجر وينبح، وحاول أن يعض اليـد التي تربت عليه ونجح إلى حدٍّ ما في ذلك، وتحدث (نيفيل):

- اهدأ يا صديقي

حاول أن تتوقف قليلًا

يجب أن تثق بي.

إلا أن الكلب اسـتمر في الزمجرة والنباح ومحاولات العض لكن (نيفيل) لم يرفع يده واسـتمر فـي التربيت على الجسـد النحيل دون توقفٍ، وهو يتحدث معه بهدوءٍ وحب:

- نعم، الأمور بخيرٍ الآن

لا أحد سيقوم بإيذائك

لن أسمح لهم أبدًا

أنا صديقك الوحيد
خذ الأمور برويةٍ وحاول أن تتماسك
اهدأ
سوف أعتني بك
وسنجد علاجًا فعالًا
سوف تتحسن، وستصبح أقوى وأجمل وأسرع.

ولمدة ساعة وربما أكثر، استمر (نيفيل) في الحديث بصوتٍ خافتٍ وحنون مما جعل الكلب يقلل تدريجيًّا من حدة حركته وانتفاض جسده إلى أن هدأ تمامًا، فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي (نيفيل) وهو يكمل:

- سوف نصبح صديقين مقربين
وسنقضي الكثير من الأوقات سويًّا
سنلهو بسعادة.

وأخيرًا استكان الجسد المريض المنهك وكف عن الحركة كليًّا، وحتى حينها لم يتوقف (نيفيل) عن الحديث وهو يتمدد أرضًا بجواره:

- أنت كلب رائع
جيد جدًّا يا صديقي
كلب مطيع
كن مطمئنًا لن يمسك أحد بسوء
هل تفهم ما أقوله لك؟

أنا على يقينٍ من أنك تفعل ذلك.

وأصبحت نبرات صوته أكثر حنانًا ورقة بينما الكلب يستسلم تمامًا رافعًا رايته البيضاء، وبعد ساعةٍ أخرى حمله بين ذراعيه برفقٍ، وما أن حاول التملص حتى احتضنه بحبٍّ وأخذ يهمس في أذنه السليمة بكلماتٍ خافتة، فعاد إلى الهدوء مرة أخرى، وتوجه به إلى السرير واحتضنه كما لو كان طفله الصغير وأخذ (بطانية) وغطى بها جسده، وظل يربت عليه ويتحسس رأسه وظهره وبطنه ويهمس له لساعاتٍ طويلة متواصلة، لم يقم بحسابها، استكان الكلب أكثر وأكثر، وارتخت عضلاته الضعيفة، وصمت عن الزمجرة والنباح، في حوالي الحادية عشرة مساءً رفع (نيفيل) الغطاء عن الرأس الملقاة بلا حركة وأخذ يتأمل الكلب الذي أصدر صوتًا خافتًا، ثم تحسس عنقه الساخن المبلل بقطرات العرق وأخذ يدغدغه ويداعبه وهو يراقب حركة صدره البطيئة وحنجرته وأنفاسه التي تخفت شيئًا فشيئًا، ثم ابتسم وتمتم:

- ستكون في حالٍ أفضل

ستصبح على ما يرام

وستختفي كل تلك الآلام قريبًا جدًّا.

فنظر إليه الكلب بعينين مريضتين منهكتين وقد أخرج لسانه الداكن، وأخذ يلعق به كف (نيفيل) بمنتهى الضعف والوهن، وفجأة شعر بطعنةٍ في عنقه دون سببٍ منطقي، فالتزم الصمت للمرة الأولى منذ ساعاتٍ طويلة، وتمدد بجوار الجسد النحيل، لقد مات الكلب.

الفصل الرابع عشر

لم يكن يشـــعر برغبةٍ في الشراب، واكتشف أنه كلما شرب أقل كلما تغيرت الكثير من الأشــياء في داخله، ففي المرة الأخيرة التي أفرط بها في السكر، وضع نفسه في الحضيض في أسفل نقطةٍ داخل قاع الشعور بالإنسانية.

مرت عدة أســابيع منــذ أن بدأ في بنــاء أبراجٍ مشــيدة من الأماني والأحلام حــول الكلب، والآن أصبح يدرك بعد طــول عناءٍ وعنادٍ أن الحل لم ولن يكمن أبدًا في الآمــال المكثفة البعيدة عن أرض الواقع، فوسط هذا العالم الذي يحكمه ســيف الرعب الحاد الذي لا يهدأ، لن يختبئ الخلاص داخل مجموعة من الأحلام الوردية، أخيرًا أيقن ذلك، لكن تظل الرتابة هي المشــكلة العميقة، فالملل هو العائق الأكبر الذي يمنعه من التكيف، إنها الحقيقة التــي فهمها مؤخرًا، وهذا اليقين منحه الكثير من الهدوء والسلام الداخلي، فهو لن يعود إلى بعثرة كل المفاتيح التي يملكها داخل عقله بل سيســتغل أكثرها قدرة على مســاعدته كي يتجاوز الأزمة التي يواجهها في نفس اللحظة.

عندما ذهب كي يدفن الكلب لم يكــن الأمر بالصعوبة التي توقعها وكان يخشاها، فالأمر كان يشابه إلى حدٍّ كبير، دفن الآمال العريضة التي

وُلدت في قلبه ودفن ملايين اللحظات المليئة بالإثارة الزائفة، ومنذ هذا اليوم بالتحديد تعلم أن يتقبل بصدرٍ رحبٍ، السـجن الكبير الذي يعيش بداخله، وألا يلقي بنفسه في تحدٍّ آخر من أجل محاولة الهروب.

إنه لن يضرب رأسه بالحائط كي لا ينزف بغزارة، وكان ذلك الشعور هو إعلان واضح بالاستسـلام الغير مشـروط، والعودة من جديدٍ إلى العمل.

***

لقد مـر بنفس التجربة من قبل عندما وضـع (فيرجينيا) في مرقدها الثاني والأخير، فحينها شعر بالضياع الكامل ووجد أن العالم من حوله فارغًا وكئيبًا وخانقًا، وأخذ يسـير بلا هدفٍ في الشوارع دون أن يدرك أين هو؟ أو متى هو؟ ويداه تتدليان بجواره وكأنهما مشـلولتان، وأخذ يجر قدميه جـرًّا، ووقع خطواته مليء باليأس والضياع بينما ملامحه قد خلت من أي مشاعر أو أحاسـيس يمكن أن تدل على شيءٍ محدد، إنه ممزق بين أنياب الشـتات حتى آخر قطرة، واستمر يتجول بين الشوارع والطرقات والأزقة على غير هُدى لسـاعاتٍ لا يعرف عددها، لم يكن لديه هدف محدد سـيذهب إليه، فهو الآن بلا هـدف، وبلا غاية، وبلا اتجاه، والشيء الوحيد الذي كان يدركه هو أنه لن يعود أبدًا إلى المنزل، لن يعود إلى الغُرف الخالية من (كاثـي) ومن (فيرجينيا) ولن ينظر إلى الأشـياء التي قامتا بلمسـها في يومٍ من الأيام وعليها رائحة أصابعهما، لن يقترب من سـرير ابنته التي لا ترقد عليه ولا إلى ملابسـها المعلقة

في الخزانة، لن يقترب من الكرسي الذي كانت تفضله زوجته ولا من زجاجات طلاء أظافرها وحُليها وعطورها وأحذيتها، لا وألف لا، لن يقترب من المنزل، لذا كان يسير ويتجول غير مكترث بالزمان ولا المكان حتى فجأة أمسك رجل بذراعه بقوةٍ ورش على وجهه رذاذ الثوم، وما أن وجد أن رد فعله طبيعي أسرع يقول له بنبراتٍ حادة ومزعجة وهو يحرك رأسه بقوةٍ وبحركاتٍ مفاجئة تتحرك معها وجنتاه وجلد عنقه المترهل، فبدا وكأنه ديك رومي يصيح:

- تعال معي

أسرع يا شقيقي

هيا كي آخذك في التو إلى مكانٍ آمن.

فحدق فيه (روبرت نيفيل) دون أن يستوعب ما يقوله له، فدفعه الرجل في صدره بيده الأخرى بينما أحكم قبضته على ذراعه حتى أشعره بألمٍ، وهو يكمل بنفس الطريقة:

- لم يفت الوقت بعد يا شقيقي

يمكنك أن تحصل على الخلاص و......

وفجأة غاب صوت الرجل وسط الأصوات العالية التي غطت على كل شيءٍ ما أن دخلا إلى المعسكر، كانت الأصوات تشبه ما يصدر عن أمواج بحرٍ عنيفة، يستمع إليها رجل محبوس تحت شراعٍ يحاول الفرار دون جدوى، وحاول (روبرت نيفيل) تخليص ذراعه من القبضة القوية، وصاح بحدة:

- أنا لا أريد أن.....

ولم يسمعه الرجل من شدة الضوضاء وظل يسحب معه ذراع (نيفيل) وهما يتقدمان ناحية شلالٍ هادرٍ من الصيحات والصرخات والهمهمات، ولم يتركه الرجل يرحل.

شعر (روبرت نيفيل) وكأنه وسط موجةٍ عاليةٍ من المد والجزر تسحبه إلى الأمام قليلًا ثم تعود به إلى الخلف فجأة، وحاول أن يتحدث مع الرجل ويطلب منه أن يفلت ذراعه لكن صوته ضاع وسط بقية الأصوات، فحاول أن يصرخ به وأن ينهره ولكن أيضًا دون جدوى، لقد ابتلعه الزحام البشري الهائل وكأنه سمكة صغيرة وسط محيطٍ كبير من الأصوات المتداخلة، والصيحات المتألمة، والصرخات التي تدل على الفزع، فأصابته رجفة لا إرادية وشعر بدقات قلبه تتسارع بقوةٍ شديدة.

إنه الآن محاط بالمئات من الأشخاص الغرباء الذين لا يعرف منهم أحدًا، وكلهم يتحركون ويروحون ويجيئون ويتحدثون ويهمهمون ويصيحون من حوله كرياحٍ عاصفةٍ تحيط بشجرةٍ وحيدة، وظل في حالة الذهول تلك، لا يستطيع أن يفهم أي شيءٍ مما يدور حوله حتى فجأة هدأت الأصوات كلها عندما طغى عليها صوتٌ حادٌّ أجش عبر (ميكرفون) مما أجبرهم على الصمت وهو يصيح كسكينٍ يشق كل ما يقف في طريقه دون عناءٍ أو مقاومة:

- هل تريدون الشعور بالخوف من صليب الرب المقدس؟

هل تريدون النظر في المرآة، فلا ترون الوجه الذي منحه لكم الرب؟

هل تريدون الزحف من القبور كوحوشٍ خرجت للتو من الجحيم؟

كان الصوت حادًّا وهادرًا وأجشًّـــا، واســـتمر في الحديث بكلماتٍ تنبض بالحماس والإثارة:

- هل تريدون التحول إلى حيواناتٍ سوداء لعينة؟

هل تريدون ملء السماء بمخلفات أجنحة الخفافيش القذرة؟

أنا أسألكم الآن:

هل تريدون التحول إلى مخلوقاتٍ حلت عليها اللعنة فأصبح قدرها أن تتجول ليلًا بلا هدفٍ أبد الدهر؟

فصاح الجميع في نفسٍ واحدٍ وكأنهم حشد من الفئران المذعورة:

- لا، نحن نريد منك الخلاص، فأنقذنا.

فتراجع (روبرت نيفيل) مصدومًا وسط الأيادي الممدودة والعيون المحدقة، والأفـــواه التي تطلب العون من رب الســـماء بإيمانٍ خالصٍ وتضرع، وعاد الصوت ليقول:

- حسنًا، أنا أخبركم الآن أين طريق الحق

فاستمعوا إلى كلام الرب

الشياطين ســـوف تعلو من أمةٍ إلى أمة، والقتلى سيتراكمون في هذا اليوم من أحد أطـــراف الأرض إلى الطرف الآخر، فهل هذا كذب؟ هل هو كذب؟

ومن جديدٍ تعالت الأصوات بهياج:

- لا، لا.

واسترسل الصوت عبر الميكروفون:

- وأنا أقول لكـــم إن لم نكن كالأطفال الصغـــار يملؤنا النقاء حتى نتلألأ في أعين الرب

إن لم نقف ونصرخ مسبحين بعزته وقداسته

إن لم نسجد على الأرض متضرعين من أجل مغفرة خطايانا البشعة

فنحن نستحق اللعنة

سوف أقولها مرة ثانية، فأنصتوا جيدًا

نحن نستحق اللعنة

نحن نستحق اللعنة

نحن نستحق اللعنة

فليرحم الله أرواحنا؛ آمين.

ورددت الجموع الغفيرة من خلفه:

- آمين

أرجوك أنقذنا.

ثم بدأ الناس في التصرف بجنون، فمنهم من أخذ يلطم خديه، ومنهم من انفجر في البكاء، ومنهم من بدأ يضرب نفسه على رأسه، ومنهم من كبر وهلل بطريقةٍ هيستيرية، وشعر (روبرت نيفيل) حينها وكأنه يُجرف وسط الحشود، وســـط بكائهم وآمالهم وتضرعهم وطقوس صلواتهم، وأخذ يفكر بينه وبين نفسه وهو يتمتم في داخله:

- الرب يعاقبنا على خطايانا العظيمة

الرب أطلق العنان لقوى الرعب الغير محدودة
الرب يصب علينا الغم والحزن والموت
الرب يطلق مخلوقات ملعونة كي تدمرنا
لقد فتح القبور وحرر من بداخلها
لقد أيقظ الأموات من مدافنهم السوداء وحرضهم علينا
هل هذا هو ما تعنيه كلمة (رب)؟!
أن نعاقب بهذه الطريقة؟
أن يملأ الفزع قسمات وجوهنا؟
أن يموت كل من ماتوا؟

ثم أخذ يصفق بيديه بقوةٍ، فخرج الصوت وكأنه طلقات بندقية نارية ضاعت بين الأجساد المتمايلة كأحد أوراق شجرٍ تلهو بها الرياح، وأخذ (روبرت نيفيـــل) يزاحم الأكتاف المتلاحمة والوجــوه البيضاء الباهتة والأيادي الممدودة إلى الأمام، وكأنهم مجموعة من العميان يلتمسون الطريق، وأخيــرًا بعد معاناةٍ وتزاحمٍ تمكن من الفــرار بعيدًا عنهم وقد أخــذوا يصرخون بقوةٍ وألم، فالليل قد جاء ومعه الشـــياطين الملعونة، وأصبح مصيرهم المحتوم قاب قوسين أو أدنى.

* * *

كانت تلك الذكرى تقف أمام عينيه بجميع تفاصيلها بينما هو يجلس في غرفة المعيشة يمسك بكتابٍ ضخم يتحدث عن علم النفس، يقتبس منه الجُمل التي حركت قطار الأفكار وأرسلته إلى تلك الليلة منذ عشرة

شـــهور عندما أُجبر على حضور ذلك الاجتماع الوحشي ذي الصحوة الدينية المتأخرة، وتمتم الأسطر التي يقرأها بصوتٍ خافت:

- هذه الحالة تُعرف باسم (العمى الهيستيري) وهي قد تكون جزئية أو كلية، وقد تتضمن موضوعًا واحدًا فقط أو عدة مواضيع متداخلة.

وقد جعله هذا الاقتباس يبدأ في العمل من جديد، وأخذ يفكر في أنه من قبل كان يحاول بعنادٍ أن ينســـب كل تفاصيل ظاهرة مصاصي الدماء إلى الجراثيم الكروية الشكل، وأن جزءًا من هذه الظاهرة لم يتناسب مع تأثير الجراثيم فإنه يرده إلى الخُرافات وقصص الأساطير.

نعم في الحقيقة كان يُعتبر هذا التصرف خللًا نفســـيًّا لكنه لم يصدق أبدًا أن المشـــكلة قد تكمن بداخله هو، إلا أنه قد تخلى الآن عن تحيزه الشديد وعناده، وأصبح أكثر تفتحًا.

لـــم يكن هناك تفســـير منطقي يمكن أن يشـــرح له كيـــف أن بعض الظواهر لا تحدث فقط بســـبب أمرٍ جسدي بل ربما يكون السبب أيضًا نفسيًّا، وهو الآن يتقبل ذلك المنطق، ويبدو أن هذه التفسيرات قد تكون واضحة جدًّا، لكن الرجل الأعمى لن يراها، ثم تمتم (روبرت نيفيل):

- وأنا كنت كرجلٍ أعمى حتى وقت قريب.

وعاد للماضي

الصدمة التي ســـببها انتشـــار الوباء جعلت الصحف الصفراء تنشر فزعًا ســـرطانيًّا بين الناس من مصاصي الدمـــاء في جميع أرجاء العالم، وأخذ يذكر نفسه بمئات المقالات الزائفة التي كتبها مجهولون من أجل

إخافة الناس، من أجل أن يبيعــوا المزيد من أعداد الصحف، ولقد كان أمرًا في غاية الغرابة والتناقض أن تقوم حملة مسعورة للتربح من خلال بيع الصحف، والعالم بأكمله يذهب إلى الدمار، وللحقيقة فلم تقم كل الصحف بفعل هذا الأمر القذر، فالبعض التزم النزاهة والشــرف، وكلا النوعين مات في نفس اليوم.

تلك الصحف الصفراء كانت متفشــية ومنتشــرة بكثــرة في الأيام الأخيرة، وكذلك في نفــس التوقيت ظهرت نزعة دينية عالية حيث لجأ عدد كبير من الناس بيأسٍ إلــى الرب بعد أن ضاقت بهم الحياة ليبحثوا عنــده عن إجاباتٍ شــافية لما يجهلون، فهم قد وجــدوا الخلاص في طقــوس العبادة والصلاة والدعاء، وهذه الفئة لم تمت بســرعةٍ وهدوءٍ كما حــدث مع البقية بل عانــوا من فزعٍ قاتلٍ كان يســري في عروقهم ويقتلهم ببطء.

وفكــر (روبرت نيفيل) في أن هؤلاء الناس كانوا مجبرين على قبول الأمر، وهذا الشــيء ملأ قلوبهم بالخوف والرعــب بالرغم من أدائهم لطقوســهم الدينية، فهم كانوا يقفون أمام الصليب يرتجفون وينتظرون الموت بطريقةٍ بشعة وهم على يقينٍ من أن الموت لن يأتي ومعه الراحة بل ســيتحولون إلى ما هو أكثر بشــاعة مما يمكن لعقولهم أن تتصور، فاليــأس خلق في أعماقهم نوعًا رهيبًا مــن الفزع، وعندما قضوا نحبهم وتحولــوا إلى مصاصي دماءٍ، انتقل هذا الفزع والرعب من عقولهم إلى عقول تلك المخلوقات الغبية التي تحولت إلى كائناتٍ بلا روح أســيرة

لليل والظلام، تحـــذر الاقتراب من أي أحـــد، وأصبحت تخاف نفس الأشياء، كالصليب مثلًا، ولكن ماذا عن المياه؟

فهو لم يتقبل ما تقوله الخرافات التقليدية القديمة من أن الساحرات لم تكن لديهن القدرة على عبور المياه الجارية كما كتب (توم شانتر).

الســـاحرات ومصاصو الدماء هم في النهاية بطريقةٍ ما يمتون بصلةٍ لبعضهم البعـــض وكأن أصلهم واحد، فيمكـــن للخرافات أن تتداخل وتتشابك.

وماذا عن مصاصي الدماء الأحياء؟

لقد وجد لهم تفسيرًا بسيطًا أيضًا، ففي الحياة كان هؤلاء يعانون من خللٍ ما في عقولهم، ولهذا كان من الســـهل أن يتحولوا دون مقاومةٍ إلى مصاصي دماء، فهو كان على يقينٍ تام من أن هؤلاء الأحياء الذين يأتون إلى منزله كل ليلة، كانوا مجانين مـــن قبل، أو على أقل تقدير عانوا من خطبٍ ما في طريقة تفكيرهم، وهم الآن يظنون أنفســـهم مصاصي دماء حقيقيين، وهذا يفســـر مثلًا عدم إقدامهم أبدًا على إحراق منزله، فهم لا يمكنهم التفكير بطريقةٍ منطقيةٍ سليمة.

وعلـــى الفور تذكر الرجل الذي صعد فوق أحـــد أعمدة الإنارة منذ أســـابيع طويلة ثم ألقى بنفســـه من الأعلى وهو يرفرف بذراعيه بطريقةٍ محمومة في محاولةٍ منه للطيران، وحينها لم يتمكن (نيفيل) من تفســـير هذا التصرف ولكن الآن الأمر في غاية الوضوح، لقد ظن نفســـه خفاشًا يمكنه الطيران.

أخذ ينظر إلى كوب الشراب النصف ممتلئ، وتمتم ورائحة الكحول تفوح من فمه:

- قريبًا سأعرف الكثير عنهم، فهم ليسـوا أبدًا جنسًا لا يفنى بل هم جنس هالك لا محالة وستقضي عليه الطبيعة الصارمة وستمحوهم من الوجود.

وأبعد كأس الشراب ونحاها جانبًا، وأكمل:

- أنا لست بحاجةٍ إلى الخمر

مشاعري ليست بحاجةٍ لتغذيتها وشحنها

أنا لن أهرب ولن أحاول النسيان

فلم أعد أريد أن أفعل ذلك بعد الآن أبدًا.

وللمرة الأولى منذ أن مات الكلب وجد (نيفيل) ابتسـامة ثقةٍ ورضا ترتسـم على شـفتيه، وفكر أنه ما زال لديه الكثير ليعرفه ويتعلمه، لكن ليس كما في السـابق، والغريب فـي الأمر أنه قد بدأ يشـعر أن الحياة أصبحت محتملة.

إنه الآن يرتدي ثوب الناسـك لكن دون صراخٍ فـي الميكروفون، وجلس يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية الهادئة التي يعشقها بينما في الخارج كان مصاصو الدماء ينتظرون.

الجزء الثالث

يونيو 1978

الفصل الخامس عشر

إنــه في الخارج يخطــط لاصطياد (كورتمان) فقــد كانت هذه هي هوايته المفضلة في الآونة الأخيرة

نعم اصطياد (كورتمــان) أصبح أحد التغيرات الجذرية في مســار حياته، ففي الأيام التي لا يوجد ما يجبره على مغادرة الأحياء المجاورة إلى مــكانٍ آخر أبعد، وفي الأوقــات التي لا يتعين عليــه القيام بعملٍ أساسيٍّ في المنزل، كان يبحث بعنايةٍ وحرصٍ تحت السيارات

وخلف الشــجيرات، وفي زوايا المنازل المظلمــة، وفوق المدافئ المهجورة، وفي الخزائن الضخمة، وبجوار الأســرة والطاولات، وفي داخــل الثلاجات، باختصار في أي مكانٍ يمكن أن يتســع ولو بصعوبةٍ لرجلٍ ممتلئ الجسد، يميل إلى السمنة كي يختبئ به.

يمكــن لــ (بين كورتمان) أن يكون فــي أي واحدٍ من تلك الأماكن من وقتٍ إلى آخر، فهو يغير من مخابئه الســرية باســتمرار ولا يبقى في مكانٍ واحدٍ لفترةٍ طويلة، وكان (نيفيــل) يعرف أن (كورتمان) قد ودع حياة العزوبية ووقع في فخ الزواج حديثًا، وقبل فترةٍ قليلة من تحوله إلى ما أصبح عليه، وهذا الأمر لم يكن يســعده كثيرًا، وفكر بسخريةٍ في أن

الزواج ربما هو ما جعل منه مصاص دماءٍ وفتح شـــهيته على نمط الحياة الجديدة الذي يعيشه، فكثيرًا ما شعر (نيفيل) بيقينٍ داخله يؤكد له مدى سعادة (كورتمان) باللعنة التي حلت عليه.

وفي هذا النهار المشـــمس الغارق في الهدوء، أخذ يسير بتمهلٍ في الشـــارع الذي يوجد به منزل (بين) حتى تجـــاوزه إلى المنزل الذي يليه دون أن يعثر له على أثر بالرغم مـــن قناعته الأكيدة من أن الرجل يوجد في مكانٍ ما بالجوار، وليس بعيدًا بأي حالٍ من الأحوال.

نعم إنه كذلك، فهـــو دائمًا وفي كل ليلةٍ أول من يصل إلى منزله قبل أن يأتي البقية والذين في الغالب ما يكونوا غرباء ويتغيرون دائمًا من ليلةٍ إلى أخرى لأنه يقتل منهـــم الكثير في الصباح التالي عندما يبحث عنهم ويجدهم مختبئين في الجوار، كلهم فيما عدا (كورتمان).

وبينما هو كذلك تساءل (نيفيل):

- كيف سيتصرف في اللحظة التي سيجد فيها (كورتمان) أمامه؟

وفي الحقيقة كانت الخطة دائمًا واحـــدة، أن يقتله على الفور، لكن هذا ما يقوله لنفسه، فهل سيكون الأمر سهلًا في حينها؟

ليس لأنـــه يكن لـــ(كورتمان) أية مشـــاعر، وليس لأنه ربما يكون جزءًا من الماضي الـــذي يحن إليه، فالماضي ذهب بلا رجعة و(نيفيل) تقبل تلك الحقيقة مؤخرًا، نعم ليس لهذا السبب أو ذاك..

حسنًا لماذا؟

في الحقيقة لأن (نيفيل) لا يرغب في خســارة تلك المتعة الترفيهية الليلية، فبقيــة مصاصي الدماء كانوا أغبياء بــلا عقلٍ يتحركون وكأنهم آلات تعمــل بالبطارية على عكس (بين) الــذي على أقل تقدير يمتلك خيالًا واســعًا، فلســببٍ غير واضح لم يتأثر عقله كليــة كما الآخرين، وتمتم (نيفيل) دون أن يمنع شفتيه عن الابتسام بسخرية:

- هذا الرجل بلا جدال وُلد ليكون ميتًا

إنه لن يتردد ثانية واحدة في قتلي عندما تسنح له الفرصة.

بعد تلك الجُملة أكمل الســير لبعض الوقت ثم توقف وجلس على حافة أحد الأرصفة وهو يتنهد بعمــق، ثم أخرج من جيبه غليونه وأخذ يحشــوه بالتبغ، وما هــي إلا لحظاتٍ قليلة حتى بــدأت دوائر الدخان تتصاعد إلى الأعلى فوق رأســه، وهي تزداد اتساعًا بكسلٍ وسط نسائم الهواء الدافئة.

وأطلــق العنان لعينيه تتجولان بحريةٍ في الحقل الواســع الذي يقع على الجهة المقابلة للحي، وفكر في أنه بحقٍّ ذا مســاحةٍ مهولة مترامية الأطراف، وكانت الحياة المســتقيمة التي التزم بها مؤخرًا قد زادت من وزنــه حتى أصبح 230 رطلًا، وظهرت تلــك الزيادة على وجهه الذي اســتدار كما أن شكل جســده قد تحســن وبرزت عضلاته التي كانت نحيلة، وقد مرت عليه فترة طويلة منذ المرة الأخيرة التي قام فيها بحلاقة ذقنه، فنمت بطريقةٍ عشــوائية ومبعثرة، بينما ظلت عيناه بلونهما الأزرق كما هما تحملان بعض الهدوء والكثير من الملل.

حتى ظهره قليلًا ناحية الأسفل ونفخ سحابة من الدخان وهو يتذكر أن فــي هذا الحقل توجــد حفرة في الأرض حيث المــكان الذي دفن فيه (فيرجينيــا) وحتى هذه الذكرى لم تنجح فــي جعل ملامح الحزن والأســف تظهر على وجهه أو بيــن عينيه، فبغض النظر عــن المعاناة الشــديدة التي عاناها من قبل كلما تذكر هذا الأمر إلا أنه قد علَّم نفســه التخلي عن التصرف بســفه، فمع الوقت ضاعــت الكثير من الأحداث التي لا يريدها أن تحطمه، فالحاضر لا يوجد به ســوى (روبرت نيفيل) وهذا الحاضــر يعتمد على غريزة البقاء التي تتغير من يومٍ إلى آخر، ولا يجب أن يمتلئ بنوبات الفــرح المبالغ فيها ولا بحالات اليأس القاتلة، وفر من كل تلك الأفكار وأخذ يحدق بــلا مبالاة في نقطةٍ بيضاءٍ بعيدة عند الجانب الآخر مــن الحقل، ومرت دقائق وهو لا يفعل أي شــيءٍ سوى التحديق في تلك النقطة التي فجأة أدرك أنها تتحرك، نعم تتحرك، فرمش بعينيه بقوة، وتغيرت ملامــح وجهه، وصدر منه صوتٌ خافت، ثم قام واقفًا ورفع يده اليســرى ليبعد بها أشعة الشمس عن مجال نظره كي يتمكن من الرؤية جيدًا، وضغط بأســنانه بقــوةٍ على طرف الغليون الذي ســقط فجأة من فمه دون أن يحاول الإمساك به، وتجمد في مكانه على الرصيف يحدق بذهولٍ دون أدنى حركة دون حتى أن يتنفس، وبعد برهة هز رأسه وأغمض عينيه بقوةٍ ثم فتحهما مرة ثانية وهو يشعر بشيءٍ يضرب بقوةٍ داخل صدره بينما هو ينظر إلى تلك النقطة البيضاء البعيدة التي تبين أنها امرأة.



لم تكن قد رأته بعد، فمستوى رأسه بالنسبة لها أقل طولًا من مستوى الشـــجيرات والنباتات النامية بكثافة، في حين منح له موقعه مجال رؤيةٍ مثاليًّا، فشاهد شعرها الأحمر الكستنائي وهو يتطاير مع الرياح الخفيفة الهادئة، وذراعيها تتأرجحان بجوار جســـدها وهي تسير بغير اكتراث، فابتلع ريقه بصعوبةٍ بالغة.

إنه أمر لا يصدق، فكيف يمكن أن يحدث هذا بعد ثلاث سنواتٍ؟

حتـــى خياله لم يتحمل أن يكـــون ما يحدث حقيقة، فاســـتمر ينظر ويحـــدق ويغلق عينيه ويفتحهما بينما هي تســـير بنفـــس الطريقة ذات الوتيرة الواحدة.

امرأة!

امرأة حية!

امرأة حية في وضح النهار!

هذا مستحيل.

ظل واقفًا يراقبها وهو يفكر بجنون، وقد تركت الدهشـــة فمه نصف مفتوحًا.

إنهـــا صغيرة، نعم ظهر ذلك مـــن ملامحها التي تمكـــن من رؤيتها بصورةٍ أوضح وهي تقتـــرب منه، ربما هي في أواخر العشـــرينات من العمر، وترتدي ملابس بيضاء قذرة ومجعدة، وبشـــرتها أصبحت داكنة من تأثير أشعة الشمس، وتحت وطأة الصمت القاتل تمكن (نيفيل) من

الاستماع إلى أعواد العشب اليابســة وهي تتحطم تحت وقع خطواتها المنهكة، فتمتم بصوتٍ خافت:

- لا بد وأنني قد جننت!

ثم شــعر أن صدمته لم تكن بنفس الطريقة، كان يتصورها كما تخيل الأمر بل أقل بكثير، ربما لأنه حتى هــذه اللحظة لم يكن على يقينٍ من صدق ما يراه، فربمــا هو في نوبةٍ من الوهم أو ربما مــا تنظر إليه عيناه لا يتعدى كونه ســرابًا كالذي يراه رجل على وشــك الموت عطشًا في صحراءٍ قاحلة، فهو فــي نفس الحالة تقريبًا، وفجأة تظهر له امرأة تحت أشعة الشمس.

- لا؛ إنها حقيقة

فإن خدعتني عيناي، فكيف فعلت أذناي؟

فأنا أستمع إلى صوت خطواتها التي أصبحت قريبة

ولكن من هي؟

ومن أين أتت؟

وإلى أين تذهب؟

كانــت كل تلك الأفكار المحمومة تتوغــل داخل عقله وهو يراقب المرأة التي لم تنتبه إلى وجوده حتى الآن، والآن ما الذي يجب أن يفعله؟ وكيف سيتصرف؟

لكنه شعر بســذاجة هذا السؤال الأخير، ورفع ذراعه اليسرى ملوحًا بها وهو يقفز من مكانه ويصيح:

- مرحبًا.

وبعد مرور لحظاتٍ من الصدمة الغير متوقعة، خيم فيهن الصمت على المكان بعد أن التفت إلى الخلف ناحيته، وهو يتمتم بصوتٍ خافت:

- إنها حية

نعم بالتأكيد إنها حية.

وتمنى لو أنه يصرخ بتلك الجملة حتى يصل صوته إلى الطرف الآخر من العالم، إلا أنه شعر بحنجرته تختنق وبلسانه يصبح جافًّا وكأنه مصنوع من الخشب، وبعقله يرفض التفكير في أي شيءٍ سوى جملةٍ واحدةٍ فقط:

- إنها حية.

وأخذ يكررها في أعماقه بجنون حتى فجأة استدارت السيدة الشابة وأطلقت ساقيها للريح بسرعةٍ فائقة، وقد عادت أدراجها إلى الحقل مرة أخرى، وظل (نيفيل) في مكانه لجزءٍ من الثانية قبل أن يندفع عبر الرواق الخلفي للمنزل ليعبر الشارع ويلحق بها داخل الحقل، وهو يصرخ:

- انتظري.

وبالطبع لم تتوقف المرأة، وشاهد ساقيها البرونزيتين وهما تتحركان صعودًا وهبوطًا على أرض الحقل الغير مستوية، ثم فجأة أدرك أن الكلمات لن توقفها، وأدرك أنه هو من كان ساذجًا عندما تصرف بتلك

الطريقة، فما هو مدى الصدمة التي شــعرت بها تلك المســكينة عندما رأته؟

ألم تكن صدمته هو نفسه هائلة حين رآها؟! فكيف وهي التي كانت تسـير بهدوءٍ، وعلى حين غرة يظهر لها رجل يلوح ويصرخ بمثل تلك الطريقة التي فعلها؟

وزاد من سرعته وهو يركض خلفها بينما عقله لا يزال يفكر في تلك المفاجأة الغير متوقعة، وهو يردد نفس الجملة:

- إنها حية.

ولم تكن تركض بســرعةٍ تعادل ســرعته بل أبطأ بقليــل مما جعله يقترب منها بعض الشــيء، فالتفتت خلفها بســرعةٍ خاطفةٍ ونظر إليها بعينين يملأهما الرعب والفزع، فصاح بها:

- لا تخافي

أنا لن أقوم بإيذائك.

لكنها لم تتوقــف أبدًا، وأكملت فرارها بهيســتيريا، إلا أنها تعثرت فجأة وســقطت على إحدى ركبتيها، واســتدارت تنظر إليه مرة أخرى، فلمح الرعب على وجهها مما جعله يقول على الفور:

- أقسم لك أنني لن أتسبب في أي أذى.

إلا أنها اســتعادت توازنها سريعًا، وأكملت الركض وسط شجيرات الحقل، ولم يكن يصدر في المكان أي صوتٍ ســوى صوت خطواتهما وهما يدهسان الأعشاب ويحطمانها، وأخذ يزيد من سرعته إلى أقصى

حدٍّ لدرجة أنه كان يقفز ليقلص المسافة بينه وبينها، كما أنه كان حريصًا كي لا يختل توازنه ويسقط، ولم يبعد عينيه عنها وهو يطاردها بينما حاولت هي الفرار جاهدة غير عابئة بأفرع الشجيرات التي كانت تصدم وجهها بقوة وتعلق بتنورتها، ونادى عليها مرة أخرى:

- توقفي أرجوكِ.

إلا أنها أفرغت كل غريزة البقاء لديها في ساقيها وزادت من سرعتهما، وفعل هو نفس الشيء حتى أصبح على وشك أن يلامس أطراف شعرها الأحمر الذي تحمله الرياح خلفها، وبالفعل ها هو الآن قريب منها لدرجة أنه تمكن من سماع صوت أنفاسها المتلاحقة، ولم يكن يرغب في إثارة فزعها أكثر إلا أنه أيضًا لم يكن سيتوقف عن اللحاق بها أبدًا، وكأن العالم أصبح خاليًا إلا منها، وما عليه إلا أن يمسك بها، وقد ساعدته ساقاه الطويلتان القويتان اللتان كانتا تدفعانه إلى الأمام بقوةٍ وسرعة، فنظرت خلفها كي تقيم الوضع فوجدته أقرب مما توقعت وكان بالفعل مخيفًا جدًّا بنظراته المليئة بالذهول ولحيته الطويلة وجسده القوي وملامحه العنيدة.

وخطط (نيفيل) لأن يمسك بها بذراعه اليمنى ويجبرها على التوقف، ولكنها حاولت أن تنحرف بجسدها النحيل في اللحظة الأخيرة كي تفلت من قبضته إلا أنها سقطت أرضًا على حجرٍ ضخم بعد أن فقدت قدرتها على التحكم في حركة ساقيها، وبدت وكأنها تغوص في أعماق الأرض من شدة السقطة، فصرخت ألمًا وأسرعت تحاول أن تتمالك

نفســـها وتعيد الفرار مـــن جديد بينما نظرات الرعـــب لا تفارق عينيها، وبالفعـــل قامت في اللحظة الأخيرة وهو يمد يده ليمســـك بها، فدفعته بعيدًا وهي تصرخ بجنون وتركله بقدمها، ثم غرســـت أظافرها الطويلة الحـــادة في ذراعه وجبهتـــه دون رحمة مما جعلـــه يتراجع ويصيح من الألم، فأســـرعت هي دون ترددٍ بالفرار، وقفز (نيفيل) ناحيتها وأمسك بكتفيها، وقال لها:

- ما الذي تخافين منه؟

ولـــم يتمكن من إكمال كلامه حتى صفعته بقـــوةٍ على وجهه وفمه، فصمتـــت كل الأصـــوات إلا تلك التـــي صدرت عـــن الصفعة ثم عن خطواتها وهي تركض بعيدًا، فصاح بها:

- أرجوكِ توقفي.

إلا أنها لم تفعل بالطبع، وابتعدت عن مجال أصابعه فتحرك ليتبعها بعناد، وحاول أن يمسك يدها ففشـــل ولم يجد في قبضته إلا جزءًا من فســـتانها الذي ما أن حاول أن يســـحبه حتى تمزق، وهنا وجدت نفسها تتعثر كما حدث من قبل وتســـقط أرضًا وقد كشف الفستان الممزق عن جزءٍ من صدرها، وهنـــا غيرت خطتها وبدأت في مهاجمته بشراســـة، فنشبت أظافرها في جلده وهي تصرخ، وســـددت له عددًا لا نهائيًّا من الركلات المتتالية بقدمها في بطنه، فصرخ من الألـم:

- اللعنة.

وأخذ يزمجر بغضبٍ هائلٍ وسدد لها لكمة في وجهها، فاهتز رأسها بعنفٍ وشعرت بدوارٍ مفاجئٍ وكأن العالم يرقص من حولها، وبدأت في البكاء بيأسٍ وقلة حيلة، ثم دفنت وجههـا بين ركبتيها بعيدًا عن نظراته المخيفة، وظـل هو واقفًا أمامها يحاول أن يلتقط أنفاسـه بصعوبة، ثم استجمع رباطة جأشه وقال:

- هيا انهضي، فأنا لن أتسبب لكِ في أي أذى.

وكأنها لم تستمع إلى ما قال للتو، فأبقت رأسها مدفونة بين ذراعيها، ولم يعرف ما الذي يتعين عليه القيام به، فكرر نفس الجملة ولكن بطريقةٍ أكثر هدوءًا:

- أنا لن أتسبب لكِ في أي أذى.

وأخيرًا رفعت رأسها ونظرت إليه، فبدا لها أنه مخيف جدًّا، فارتعدت بفزعٍ، فقال:

- لماذا أنتِ خائفة؟

وكان صوته أجشًّا ومجوفًا وخاليًا من أية مشاعر، ولِمَ لا؟ فهو رجل فقد آخر قطرةٍ من إنسانيته منذ وقتٍ طويل.

اقتـرب منها قليلًا، فتراجعت هي بنفس القـدر الذي اقترب به منها وهي تتنهد، فمد لها يده، وقال:

- هيا انهضي.

وبالفعل قامت لكن دون مسـاعدته ودون أن تدعه يمسها، وعندما لاحظت الجزء الممزق من فسـتانها، شـدت طرفه السليم وغطت به

جســدها، وأصبحا فــي مواجهة بعضهمــا البعض يتبــادلان النظرات والأنفاس المتلاحقــة، والآن ولت الصدمة الأولــى وبقي (نيفيل) لا يعرف ما الــذي يجب أن يقوله بالرغم من أنه حلــم بمثل هذه اللحظة لسنواتٍ طويلة، وصنع في خياله الكثير من السيناريوهات، وها هو يقف عاجزًا عن تطبيق أحدهم، وأخيرًا قال بترددٍ وأحرفٍ مرتعشة:

- ما هو اسمكِ؟

ولــم تجبه بل ظلت تحدق في وجهه وهي ترتجف، فكرر الســؤال على مسمعها، وهذه المرة أجابت وهي تحاول التماسك:

- (روث).

وفي لحظةٍ ما شعر (نيفيل) أنه سيفقد الوعي، فقد كان صوتها بمثابة السحر الذي لم يترك له أية سيطرة على أطرافه وأفكاره، وبدأ قلبه ينبض بقوةٍ وهو يقاوم بشــدةٍ رغبة تجتاحه في الصــراخ بأعلى صوته والبكاء دون توقف، وتحركت يده لا إراديًّا ولامستها مما جعلها تنتفض فجأة، وقال بصوتٍ كأنه قادم من أعماق بئرٍ سحيقة:

- (روث)!

(روث)!

وظــلا لفترةٍ لا أحد منهمــا يعلم كم داما يتبادلان النظرات وســط الحقل الشاسع، وتحت الشمس الحارة.

الفصل السادس عشر

تعدت الســـاعة الرابعة عصرًا في حين ظلت المرأة نائمة على سرير (نيفيل) الذي اســـترق النظر إليها أكثر من عشرين مرة ليرى ما إن كانت قد استيقظت أم لا، وهو الآن يجلس في المطبخ ويحتسي بعض القهوة، وانتابه الكثير من القلق، فتساءل:

- ماذا لو أنها مصابة بالعدوى؟

وشـــعر بغضبٍ من نفســـه على إحضارها إلى هنا، ولم يبدأ كل هذا القلق إلا بعد أن غرقت في النوم، والآن هو لا يســـتطيع أن يتخلص منها ولا من مخاوفه العميقة، لكنها تسير في النهار ولم تتأثر بأشعة الشمس.

حســـنًا والكلب أيضًا كان يســـير في النهار ولم يتأثر بأشعة الشمس كذلك!

وأخذ ينقر بأطراف أصابعه على الطاولة بلا انقطاع، اختفت البساطة، تلاشـــت الأحلام بلا رجعة وتحولت إلى كابوسٍ مقلقٍ ومعقد، لم يكن هناك التواصل العجيب الذي تخيله، ولا الكلمات السحرية التي تدرب عليها لســـنواتٍ طويلة، فأكثر من اســـمها لم يتمكن من معرفة أي شيءٍ آخر، ذهابها إلـــى المنزل كان بمثابة معركـــةٍ لا توصف، ودخولها كان أســـوأ بكثير من كونه معركة، فقد أخذت تبكي وتنوح وهي تتوسل إليه

ألا يقتلهــا، كل ما قاله لها لم تفهمه ولم تصدقه بل لم تســمعه، وظلت مســتمرة في نوبة البكاء والتوســل، وكأن الأمر مشــهد من أحد أفلام هوليوود تبدل ببشــاعةٍ من النقيض إلى النقيــض، فبدلًا من تحديقٍ في العيــون، ودخول المنزل بابتســامة، وأذرع تحيــط بالخصرين، تحول الحال إلى سحبٍ وجرٍّ، توســل وبكاء، صراخ وتوبيخ وسباب، تراجع ودفع بقوة، نعم لم يكن المشهد كما تمناه أن يكون في خياله من قبل.

وما أن أصبحت في المنزل حتــى هدأت قليلًا، وتراجعت موجات الفزع التــي انتابتها بلا توقف، وحاول هو أن يتصرف بطريقةٍ عفويةٍ كي يطمئنها إلا أنها ظلت منزوية فــي إحدى الزوايا كما كان يفعل الكلب، ورفضت رفضًا قاطعًا أن تأكل أو تشرب أي شيءٍ مما قدمه لها، وأخيرًا وجد نفسه مجبرًا على أخذها عنوة إلى غرفة النوم وتركها هناك بمفردها بعد أن أحكم غلق باب الغرفة، وهي الآن غارقة في النوم.

وتنهد بعمقٍ وهو ينقر بأصابعه على الطاولة قبل أن ينقل يده ويمسك بها كوب القهوة وبدأ يفكر في السنوات التي قضاها يحلم برفقة شخصٍ ما، وها هو ما أن تحقق الحلم وجد نفسه يخسر ثقتها ويبكيها، ويركلها، ويعاملها بقســوةٍ وقلة صبر، لكن في الحقيقة لم يكن هناك ما يفعله غير ذلك، فلسنواتٍ طويلة أهل نفسه لفرضية أنه الشخص الوحيد في العالم الــذي ظل على حالته الطبيعية، نعم هذا ما كان على يقينٍ منه، ولا يعنيه الآن أنها هي الأخرى تبدو طبيعية، فقد رأى بأم عينيه المئات منهم وهم

يرقدون بهدوءٍ وسكينةٍ كما لو كانوا بشرًا عاديين، كما تبدو هي له الآن، ولكنهم لم يكونوا كذلك أبدًا وهو يعرف تلك الحقيقة جيدًا.

وأما عن كونها تمشـــي في النهار دون أن تؤثر فيها أشـــعة الشـــمس فهو أمر لا يمكنه ببســـاطة أن يرجح فرضيـــة أنها مختلفة وأنها يجب أن تحصل على ثقته، وأخذ الشـــك والتردد يتلاعبان به، ففكرة وجود حياةٍ اجتماعيةٍ أصبحت مقيدة بالحديد والنار، فقد كان وجود بشـــرٍ مثله من الأمور المستحيلة بالنسبة له، وفي هذه اللحظة وبعد أن تلاشت الصدمة واختفى تأثيرها المذهل عليه، وجد نفســـه يجلـــس ليتصارع مع كل ما آمن به خلال الســـنوات الماضية، وشعر بغصةٍ في صدره جعلت أنفاسه تتثاقل، فأخذ يجـــيء ويذهب من وإلى غرفة النـــوم، وفي كل مرةٍ كان يجدها على نفس الوضع، وبدأ يشـــك في أنها ربما عادت إلى الغيبوبة التي من المفترض أن تكون بها، وأقلقه هذا الافتراض.

وقف أمام السرير يتفحصها

(روث) لم يكن يعرف عنها سوى اسمها ولم يكن يرغب في معرفة أكثر من ذلك، وفكر أنه من الجيد ألا نعرف أي شيءٍ عن الشخص الذي سنقتله، فإن كانت مثلهم، فخياره الوحيد هو أن يقتلها دون تردد، وظل يحدق فيها بعينيه الزرقاوين، وهو يتساءل:

ماذا لو أنها كانت حقًّا مصاص دماء؟

ماذا لو أن مخاوفه تحققت؟

ماذا لو أنها قامت وأخذت تزمجر وتنبح وتسير بخطواتٍ متخبطة؟

كلها احتمالات ممكنة، وحتى يعرف الحقيقة سيظل ضوء النهار هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن للجرثومة أن تتغلب عليه.

لكن لماذا لا يمكنه الاقتناع بأنها مجرد امرأة طبيعية؟

حسنًا هناك طريقة واحدة فقط كي يكون على يقين، وقام بالانحناء ووضع يده على كتفها، وقال:

- هيا استيقظي.

لكنها لم تجبه، فزم شفتيه، وضغط على كتفها أكثر وهو يتأمل ملامحها الذهبية الداكنة بينما أصابعها تلامس بشرتها عند الجزء الممزق من فستانها، ولفت انتباهه قلادة من الذهب على شكل صليب وفي نفس اللحظة استيقظت وتراجعت إلى الخلف واندست في الوسادة بخوف، وأدرك حينها على الفور أنها لم تكن في غيبوبة من تلك التي يدخل فيها مصاصو الدماء.

ونهرته بشدةٍ ما أن شعرت بأصابعه على كتفها:

- ما الذي كنت تفعله؟

وكانت تتحدث بخوفٍ وريبةٍ وعدم ثقة، وبالرغم من ذلك إلا أن وقع صوتها عليه كان له تأثير قوي، فمنذ متى لم يستمع إلى شخصٍ يتحدث؟

وهز رأسه نافيًا أن يكون قد قام بفعل شيءٍ يتسبب لها بأذى، ثم سألها على الفور وهو يتراجع عدة خطوات إلى الخلف حتى أسند ظهره إلى الحائط:



- من أين أنتِ؟

فأخذت تحدق به دون أن ترد على سؤاله، فكرر عليها نفس السؤال وكررت هي نفس الإجابة؛ الصمت

فتقدم ناحيتها وعلى وجهه نظرة ضيقٍ ونفاد صبر، فأسـرعت لتقول بخوفٍ وتردد:

- (إنجلوود).

أنا من (إنجلوود).

فتحولت نظراته إلى البرود المغلف بالعناد، وقال سائلًا:

- هل تعيشين بمفردك؟

- لقد كنت متزوجة.

- وأين هو زوجكِ؟

فتألمت وهي تقول:

- لقد مات.

- منذ متى؟

- الأسبوع الماضي فقط.

- وماذا فعلتِ بعد موته؟

- هربت، وظللت أهرب.

- أتعنين أنكِ تتجولين بهذا الشكل منذ أسبوع؟

- نعم.

فنظر إليها وقد توقف عن الحديث تمامًا، ثم استدار وأخذ يسير بخطواتٍ حادة لها وقع مسموع، وتوجه إلى المطبخ وفتح باب الخزانة وأخرج الكثير من رؤوس الثوم ووضعها في طبقٍ وأخذ يفكها إلى فصوصٍ مفردة، ثم سحق تلك الفصوص حتى فاحت الرائحة النفاذة المميزة ووصلت إلى أنفه، وكانت تستند على مرفقها وهي ممددة على السرير حين عاد إليها، وبلا تردد وضع الطبق مقابل وجهها، فأدارت رأسها وهي تصيح بخوفٍ، وسألته وهي تسعل:

- ما الذي تفعله؟

- لماذا أدرتِ رأسكِ بعيدًا؟

- أرجوك.

- أجيبيني؛ لماذا أدرتِ رأسكِ بعيدًا؟

فتنهدت وهي تجيب:

- إنها الرائحة، تجعلني أشعر بالإعياء.

فقرب منها الطبق أكثر، وعلى الفور تراجعت وهي ترتعد وتغمغم حتى التصقت بالحائط وضمت ساقيها إلى صدرها، وقالت:

- توقف أرجوك.

فأبعد عنها الطبق وهو ينظر إلى جسدها الذي ينتفض مع تشنجات بطنها، وقال بحسمٍ وحدة:

- أنتِ واحدة منهم.



إلا أنها قامت فجأة من على السـرير وأسرعت لتتخطاه إلى الحمام، وأغلقت البـاب خلفها، وكان بإمكانه أن يسـتمع بوضوحٍ إلى صوتها وهي تتقيأ بطريقةٍ عنيفة، فابتلـع ريقه ووضع الطبق وما به من ثوم على طاولةٍ جانبية.

مصابة بالعدوى!

تلك إشـارة واضحة جدًّا، فهو عرف منذ عـامٍ تقريبًا بعد الكثير من التجـارب والأبحاث أن الثوم يسـبب الحساسـية لأي أجهزةٍ عضويةٍ مصابة بالجراثيم المسـببة للعنـة التحول إلى مصاص دمـاء، فعندما يتعرض الجسم إلى الثوم يتم تحفيز الأنسجة ضد الخلايا مسببة رد فعلٍ غيـر طبيعي لكل ما يحتوي على رحيق الثـوم، ولذلك كان هذا النبات سلاحًا فتاكًا لا يشق له غبار.

وجلس بتراخٍ على السـرير بينما كانت هي لا تزال في الحمام تعاني من تأثير الثوم، وبعد لحظاتٍ فكر (روبرت نيفيل) وهو عابس الوجه:

لو أن ما تقوله هو الحقيقة

لو أنها فعلًا ظلت تتجول على غير هُدى لمدة أسبوعٍ كامل

فهي ستكون في غاية التعب والمرض والإنهاك

وهذا قد يجعلها تتقيأ عندما تواجه رائحة نفاذة كرائحة الثوم.

وضم قبضته وأخذ يلكم بها الحائط، إنه لا يزال يجهل الحقيقة، ولا يجـب عليه أن يتخذ أي قرارٍ دون الحصـول على أدلةٍ كافية، فهو تعلم ذلك بعد مجموعة دروسٍ قاسية وآمن به واستوعبه.

وكان لا يزال جالسًا في مكانه حين فتحت باب الحمام وجاءت إليه وظلت لعدة لحظاتٍ تقف عن بعدٍ وهي تنظر إليه، ثم تراجعت وغادرت إلى غرفة المعيشة مما أصابه بالغضب، فتبعها إلى هناك وقد احمر وجهه ووجدها تجلس على الأريكة، وعلى الفور قالت له:

- هل أنت راضٍ الآن؟

- لا تكترثي لذلك، فأنتِ تحت الاختبار وليس أنا.

فنظرت إلى الأعلى بغضبٍ وكأنها كانت ستقول شيئًا ما وتراجعت عنه، ثم استرخى جسدها بهدوءٍ وهزت رأسها دون اكتراثٍ مما جعله يشعر ناحيتها ببعض التعاطف للحظة، فقد كانت نظراتها مليئة باليأس وفقدان الأمل، وأخذت تضم يديها وكأنها تحتضن نفسها، ويبدو أنها لم تعد تكترث لفستانها الممزق ولا للجزء المكشوف من جسدها الذي كان نحيلًا وخاليًا من التضاريس الأنثوية التي كثيرًا ما تخيلها في أحلامه، ولكنه لم يضع هذا الأمر في اعتباره، وجلس (نيفيل) على الكرسي المقابل لها واستمر ينظر إليها دون أن تبادله النظرات، ثم قال:

- استمعي لي

أنا أمتلك كل الأسباب التي تجعلني أشك في أن تكوني مصابة بالعدوى، وخاصة بعد ما حدث لكِ من تأثيرٍ مضاد حين تعرضتِ لرائحة الثوم.

وظلت على حالها تحدق إلى الأعلى بصمتٍ، فسألها:

- ألا تمتلكين شيئًا لتقوليه؟



- أنت تظن أنني واحدة منهم؟

أليس كذلك؟!

- أنا أقول ربما.

- وماذا عن هذا؟

قالت تلك الجُملة وهي تمسك بالصليب الذهبي المعلق في رقبتها.

- هذا لا يعني شيئًا.

- حسنًا؛ أنا مستيقظة ولست في غيبوبة.

والتزم الصمت فتلك النقطة لم يكن لها رد عنده، ولم يشأ أن يدخل في جدالٍ لا ينتصر فيه، لكنه قال أخيرًا:

- لقد ذهبت إلى (إنجلوود) مراتٍ كثيرة، فلماذا لم تسمعي صوت سيارتي؟

- (إنجلوود) منطقة كبيرة جدًّا.

فنظر إليها بتمعنٍ وهو ينقر بأصابعه على ذراع الكرسي، ثم قال:

- أنا أرغب في تصديقك.

- حقًّا؟

وفجأة شعرت بتقلصاتٍ جديدة في بطنها ومعدتها، فتأوهت بألمٍ وحنت جسدها النحيل بينما جلس هو يتعجب من شعوره الجاف وعدم قدرته على التأثر بما تعانيه من آلام، فالأحاسيس من الصعب جدًّا أن تُبعث مرة أخرى عندما تموت، وهو قضى الكثير من الوقت وروحه فارغة من أي شعورٍ أو إحساس.

وبعد أن هدأت عادت لتنظر إلى الأعلى بعينين قاسيتين، وتمتمت:

- طوال حياتي وأنا أعاني من مشاكل صحية بسبب معدتي الضعيفة، لقد رأيت زوجي يُقتل أمام عينيّ الأسبوع الماضي، رأيته يتمزق إلى أشلاءٍ صغيرة بمنتهى الوحشية، لقد فقدت طفلين خلال انتشار الوباء، ولمدة سبعة أيام وأنا أتجول هائمة على وجهي، أختبئ في الليل دون طعامٍ أو شرابٍ سوى القليل من الفتات، ولم أكن أستطيع النوم لأكثر من ساعتين في اليوم، وأخيرًا وجدت رجلًا مخيفًا يصرخ بي، ثم طاردتني عبر الحقل بجنونٍ وضربتني، وسحبتني عنوة إلى منزلك، ثم شعرت بتوعكٍ عندما وضعت أنت الثوم في وجهي، وبعد كل هذا تسألني؛ ما إن كنت مصابة بالعدوى؟

ثم ضمت نفسها أكثر بذراعيها، وسألته بغضب:

- ما الذي كنت تتوقعه مني؟

ثم أغمضت عينيها وعدلت من وضع فستانها وهي تستند بظهرها على جانب الأريكة وبداخلها رغبة عارمة في أن تتصرف بجنون، إلا أنها اكتفت بتنهيدة غضب.

وبدأ يشعر بالذنب، فحنى رأسه وهو يفكر، فبالرغم من الشكوك والظنون إلا أنه لا يعرف كيف يمكنه مساعدتها، فدموع النساء كثيرًا ما كانت تربكه من قبل والآن، فرفع يده إلى لحيته النامية وهو يشعر بتوترٍ واستمر في النظر إليها، ثم سألها:

- هل تمانعين إن أخذت عينة من دمكِ؟

وعلى الفور وقفت وتوجهت إلى باب الشقة، فأسرع ناحيتها وهو يقول:

- ما الذي تفعلينه؟

لم تجبه، وحاولت فتح الباب بارتباكٍ، فنهرها قائلًا:

- لا يمكنكِ الذهاب إلى الخارج الآن، فالشوارع سوف تكون ممتلئة بهم، وسيقتلونكِ.

فدفعته بعيدًا عنها وصرخت به:

- دعني وشأني، فأنا لم أطلب منك المجيء إلى هنا، وأنت من سحبتني دون إرادتي، فلماذا لا تتركني وشأني؟

ووجد نفسه في حالة ارتباكٍ شديد، ولم يجد ما يقوله سوى:

- لا يمكنكِ الذهاب إلى الخارج.

ثم سحبها برفقٍ إلى الأريكة حيث كانت تجلس، وأحضر لها كأسًا صغيرة من الشراب، ولم يعد يبالي ما إن كانت مصابة بالعدوى أم لا، وربت على كتفها وهو يقول:

- اشربي هذا، فسوف يجعلكِ تشعرين بتحسن.

فنظرت إليه بغضبٍ وقالت:

- نعم، كي تتمكن من وضع المزيد من الثوم في وجهي.

فهز رأسه نافيًا، وقال:

- هيا اشربيه الآن.

فتناولته بعد ترددٍ وأخذت رشــفة واحدة جعلتها تســعل، فوضعت الكأس على الطاولة وتنفست بعمقٍ، ثم سألته بحزن:

- لماذا تريدني أن أبقى هنا؟

فنظر إليها نظرة تعني أنه لا يمتلك إجابة واضحة، ثم قال:

- حتى وإن كنــتِ مصابة بالعدوى، لا يمكــن أن أدعكِ تغادرين، فأنتِ لا تعرفين ما الذي سيفعلونه بكِ في الخارج.

فأغمضت عينيها، وقالت بيأس:

- ومن قال لك أنني أهتم؟

الفصل السابع عشر

قال لها وهما يتناولان العشاء:

- أنا لا أستطيع أن أفهم الأمر، فقد مر قرابة ثلاث سنوات، ولا يزال البعض على قيد الحياة! موارد الغذاء قاربت على النفاد، وهؤلاء الأوغاد يدخلون في غيبوبةٍ نهارًا، ولكنهم بعد كل تلك السنوات الثلاث لا يموتون، فما الذي يبقيهم أحياء؟

وهز رأسه بتعجبٍ ودهشة بينما كانت هي ترتدي ثوب الحمام الخاص به، فعند الساعة الخامسة كانت قد هدأت تمامًا، ورضخت لفكرة البقاء معه في المنزل، تحممت وبدلت ملابسها، بدا جسدها النحيل بلا ملامح أو تضاريس وهي ترتدي ذلك الرداء الواسع الفضفاض كما أنها اقترضت فرشاة الشعر الخاصة به واستخدمتها في تمشيط شعرها ببساطة حيث جمعته إلى الخلف على هيئة ذيل حصان وربطته بمجرد خيطٍ عادي.

أمسكت (روث) بفنجان القهوة الساخنة، وقالت:

- لقد اعتدنا على رؤيتهم في كثيرٍ من الأحيان، وكنا نخشى الاقتراب منهم تمامًا، ولم نفكر أبدًا في محاولة لمسهم.

- ألم تعلما أنهم يدخلون في غيبوبةٍ بعد أن يموتوا؟



فهزت رأسها نفيًا، وقالت:

- لا.

فسألها:

- ألم تتساءلا عن هؤلاء الذين كانوا يقومون بمهاجمة منزلكما ليلًا؟

- لم نفكر أبدًا أنه من الممكن أن يكونوا......

ثم هزت رأسها ببطءٍ وأكملت:

- فمن الصعب تصديق أمرٍ كهذا.

نظر إليها يتأملها وهما يجلسان أمام طاولة الطعام بعد أن غمرهما الصمت لبعض الوقت، فما زال من الصعب عليه جدًّا أن يتقبل فكرة وجود امرأةٍ طبيعية على قيد الحياة، إنه حقًّا أمر في غاية الصعوبة بعد سنواتٍ طويلة من الوحدة أن يحصل على صحبةٍ مع شخصٍ ما، فالقصة لا تتمحور حول الشك بها بل هو الشك في أن شيئًا جيدًا يمكن أن يحدث له في هذا العالم الكئيب.

وقالت له (روث):

- أخبرني المزيد عنهم.

فنهض من على كرسيه وأحضر إناء القهوة وصب لها وله المزيد، ثم عاد إلى كرسيه وسألها:

- كيف تشعرين الآن؟

- أنا في حالةٍ أفضل بكثير، أشكرك.

فأومأ إليها ووضع ملعقة من السكر في قهوته، وشعر بها تنظر إليه، وتساءل عن الشيء الذي يمكن أنها تفكر به في هذه اللحظة! وشعر

بضيقٍ شديد في صدره وأنفاســه وتعجب من ذلك، فللحظةٍ ظن أنه قد تمكن من إقناع نفسه بالثقة فيها، ولكن الآن هو ليس على يقينٍ من هذا، فسألته وكأنها تقرأ أفكاره:

- هل ما زلت تشك في أمري؟

فنظر إليها سريعًا، وقال وهو يهز كتفيه بعدم اكتراث:

- لا، ليس كما تظنين.

فقاطعته بعصبية:

- نعــم؛ نعم يمكنني رؤية ذلك في عينيك، على أي حالٍ إن كنت لا تزال تريد أن تفحص دمي، فهيا تفضل افعل ذلك.

فنظر إليها بريبةٍ وتوجسٍ، وتساءل سريعًا في داخله؛ هل هذه خدعة ما؟

ثم ابتلع رشــفة من القهوة وهو ينعت نفسه بالغباء على تفكيره بهذه الطريقة المليئة بالشك وعدم الثقة، وقال:

- هذا رائع؛ رائع جدًّا.

فإن كنتِ مصابة بالعدوى فســوف أفعل كل ما بوســعي وأكثر كي أجعلكِ تتعافين من المرض.

والتقت عيناهما، فتوقف الحوار للحظةٍ قبل أن تسأله:

- وإن لم تتمكن، فما الذي ستفعله بي حينها؟

وشــعر بارتباكٍ وضاعت منه الكلمات، فلجأ إلى الصمت حتى قال بنبراتٍ خافتة:

- دعينا لا نستبق الأحداث، فلننتظر ونرى.

ثم ارتشفا القليل من القهوة قبل أن يقول لها بثقة:

- دعينا نقوم بالأمر الآن.

فتوسلت إليه:

- أرجـوك؛ من الأفضل أن نؤجله إلى الصباح، فأنا ما زلت أشـعر بتوعك.

فهز رأسه بالموافقة، وقال بود:

- حسنًا؛ إلى الصباح إذًا.

وأكملا طعامهما حتى آخره، وشـعر (نيفيل) بالقليل من الرضا في أعماقه من كونها ستسـمح له بتفحص دمائها، ولكـن هذا الرضا كان مصحوبًا بخوفٍ شـديد من أن تكون مصابة بالعدوى كما يتوقع، وفي غضون ذلك وحتى يأتي الصباح عليه أن يقضي المساء معها وكل الليل، فربما خلال تلك الأثناء ينجـذب إليها ولا يكون مضطرًا لأن يخضعها لفحص الدم، إنه هراء هذا الذي يفكر به.

ومر الوقـت بطيئًا وهمـا في غرفة المعيشـة ينظران إلـى اللوحة الجدارية التي عليها صورة ميناء صغير بينما موسيقى السيمفونية الرابعة لـ (شوبرت) تملأ المكان، فتمتمت:

- لم أكن أصدق أبدًا أنني سأتمكن من الاستماع إلى الموسيقى مرة أخرى، وأحتسي النبيذ بهدوءٍ وسكينةٍ ودون خوف، إنه شيء رائع.

وأخذت تتطلع في الغرفة باستحسانٍ، وأكملت:

- لقد قمت بعملٍ عظيمٍ هنا.

- وماذا عن منزلكِ؟

- لم يكن جيدًا أبدًا، ولا يمكن مقارنته بهذا المنزل.

فأسرع ليقاطعها:

- كيف كنتم تقومون بحماية المنزل؟

فصدمها السؤال وترددت للحظةٍ قبل أن تجيب:

- لقد قمنا بعزله بالطبع، كما نستخدم الصلبان.

فقاطعها ثانية بحدةٍ، وهو يحدق بها:

- الصلبان ليست ذات نفعٍ طوال الوقت، ولا مع الجميع، فلماذا يخاف يهودي من الصليب؟

كيف لمصاص دماءٍ كان يهوديًّا أثناء حياته، أن يهاب الصليب؟

فأغلب من ظلوا على قيد الحياة في المعسكر يتلون الصلوات بخوفٍ في تلك الليلة، هم من تحولوا إلى مصاصي دماء، وكلهم كانوا مصابون بخوفٍ هستيريٍّ من غضب الرب ومن الصليب، ولا يمكن ليهودي ولا هندوسي ولا مسلم، أن يخاف من الصليب، ولهذا السبب فالصلبان ليست مؤثرة طوال الوقت.

وظلت تنظر إليه نظراتٍ باردة بلا معنى، ثم قالت وهي تمسك بكأس النبيذ:

- أنت لم تسمح لي أن أكمل كلامي، فقد كنا نستخدم الثوم أيضًا.

- بالرغم من المشاكل التي يسببها لمعدتكِ؟

- نعم، فلم يكن هناك بديل وقد خسرت الكثير من الوزن، فمن 120 رطل، أصبحت أزن 90 رطلًا فقط.

فأومأ برأســه، وتوجه إلى المطبخ ليحضر زجاجة أخرى من النبيذ، وهو يتساءل:

بعد ثلاث سنوات لم تعرف تلك الحقائق إلا الآن؟!

ولكنه نهر نفسه

ما هي مشكلتك؟

ألم تقل أنها ستدعك تفحص دماءها؟!

ماذا يمكنها أن تفعل أكثر من ذلك؟

لا يعنيني، فهذا أنا، لن أصدق أي شــيءٍ حتى أرى بنفسي الشريحة والخلايا تحت الميكروسكوب، نعم أنا كأبي اللعين، لا كلمة تعلو على الانتصارات العلمية.

وبينمــا هو في المطبخ المظلم يحاول إزالــة الغطاء المحكم الغلق من على زجاجــة النبيذ، نظر إلى (روث) وأخذ يتفحص جســدها من تحت الثوب الذي ترتديه ويكشف عن ساقين برونزيتين وبشرةٍ ملساء، وكانت تفاصيل جســدها تظهرها وكأنها فتاة صغيرة في العمر، وليست أمًّا لطفلين أبدًا.

وكل ما كان يخشــاه في هذه اللحظة هو أن يترك نفسه فريسة لرغباته المكبوتة تجاهها كي تتلاعب به، وفكر في لو أنه التقى بها منذ عامين أو أكثر بقليل، فربما كان رد فعله معها خارج السيطرة والتحكم، ففي تلك الأيام كان في حالةٍ نفسيةٍ ســيئة جدًّا حيث تتحكم فيه انفعالات تقوده إلى الجنون وهو يبحث عن حلٍّ لما وجد نفســه مضطرًّا للحياة فيه من شقاءٍ لا يُحتمل.

ولكن التجارب بدأت

والتدخين أصبح محدودًا

وتناول الخمر في أضيق الحدود

وتعمد النجاح فيما يقوم به

وأخيرًا إغراق نفسه في البحث والتعلم

كل هذا جعل غرائزه ورغباته تقل بشدةٍ وتضمحل بل أنها أصبحت معدومة، وهــذا بالضبط ما يحدث مع الرهبــان الذين يعتزلون ملذات الحياة، فليس من السهل على أي شخصٍ عادي أن يختار الطريق الذي يُسير فيه أفكاره وشهواته، ولهذا شعر بسعادةٍ ربما لأنه تمكن من النجاح ولــو بصعوبةٍ بالغةٍ في تحجيم رغباته والبقاء بعيدًا عن فخ الجنون، كما أن (روث) لــم تكن هي المرأة التي تخيلها لشــهورٍ عــدة، وظل ينتظر وصولهــا بالإضافة إلى أنه ربما لا ينجح في جعلها تفكر في الغد بنفس طريقته.

- هل سأتمكن من شفائها؟

لا أظن ذلك.

وعاد إلى غرفة المعيشة وفي يده زجاجة النبيذ المفتوحة وصب في كأسها المزيد، فابتسمت له شاكره، ثم قالت:

- لقد أحببت تلك اللوحة الجدارية

فهي تجعلك تصدق أنك حقًّا وسط غابةٍ قرب البحر والميناء، يبدو أنك بذلت الكثير من الجهد والوقت في جعل منزلك يظهر بهذه الطريقة الجميلة!

- بالطبع فعلت، ويجب أن تكوني علـــى يقينٍ من هذا، فقد مررتِ بما مررت أنا به.

- لم نكن نملك شيئًا في واقع الأمر، فمنزلنا كان صغيرًا جدًّا، وحتى خزانة الطعام لدينا لم تكن بنفس تلك التي تملكها أنت.

فتأمل ملامحها جيدًا، وهو يقول:

- نعم، يجب أن يســتمر الشــخص في البحث عــن الطعام طوال الوقت.

فقالت بتلقائية:

- لقد كنا نعيش على المثلجات والطعام المعلب.

فأومأ لها وهو يشــعر بشــيءٍ ما في أعماقه يرفض تصديق ما تقوله، ولكنه لم يرغب في التشكيك بكلامها علانية كي لا تغضب وتثور، فهو على يقينٍ من أن حدسه لا يخدعه، فسألها:

- وماذا عن الماء؟

فنظرت إليه بصمتٍ للحظاتٍ قبل أن تقول بحدة:

- أنت لا تصدق حرفًا مما أقوله لك.

- لا، ليــس كما تظنين، وكل مــا في الأمر هو أنني أشــعر بفضولٍ لمعرفة الطريقة التي كنتِ تعيشين بها.

لكنها قالت مقاطعة:

- لا تكذب وكـــن صادقًا كما هي نبرات صوتك، فكونك عشـــت طويلًا بمفردك دون الحديث مع أي شـــخصٍ، فلقد فقدت القدرة على التحايل بالطريقة التي تتحدث بها، وأصبحت نبرات صوتك تفضحك.

فأصدر صوتًا بفمه يدل على عدم الراحة، وفكر أنها تتلاعب به:

هذا أمر شديد السخافة

إنها مجرد امرأة

وربما تكون على حقٍّ فيما تقوله، والضغط الذي يشعر به جعله يسيء التصرف معها، فسألها محاولًا تغيير دفة الحديث:

- حدثيني عن زوجك؛ ماذا عنه؟

فأزاحت كأس النبيذ عن شفتيها بعد أن كانت على وشك أن ترتشف البعض منها ووضعتها على الطاولة، وظهر على ملامحها الحزن والأسى، وقالت:

- ليس الآن؛ أرجوك لا تضغط عليَّ.

فتراجع إلى الخلف في الأريكة حيث يجلس وأخذ يحاول تحليل إحساس عدم الارتياح الغريب الذي يجتاحه بالرغم من أن كل ما تقوله وتفعله قد يكون بسبب المواقف التي مرت بها وجعلتها تعاني، فهو أيضًا ربما يبدو من وجهة نظرها كاذبًا، فلماذا ستكذب عليه؟

على أي حالٍ في الصباح سيفحص دمها، وإن كانت تكذب فالمسألة لن تستغرق أكثر من عدة ساعاتٍ حتى تتضح الحقيقة، فنظر إليها وقال:

- أتعلمين أنني كنت أفكر أنه لو تمكن ثلاثة أشخاص من النجاة من الوباء، فربما يوجد هناك المزيد!

فعقبت:

- هل تظن أن هذا الأمر ممكن؟

- لمَ لا؟ فقد يكون هناك المزيد ممن يمتلكون مناعة تحصنهم ضد العدوى لسببٍ أو لآخر.

فقالت:

- أخبرني أكثر عن تلك الجراثيم.

فتردد للحظةٍ ثم وضع كأس النبيذ على الطاولة، وتساءل:

ماذا لو أنه أخبرها بكل شيء؟

ماذا لو هربت منه ثم عادت مـــرة أخرى بعد أن تموت وتتحول إلى مصاص دماءٍ، وحينها ســتكون على دراية بالمعرفــة التي جعلته يتميز طوال تلك السنين؟

وأخيرًا أجابها بطريقته:

- إنهم أشياء رهيبة في غاية السوء دون الخوض في تفاصيل الآن.

فقالت مستفسرة:

- لقـــد قلت شـــيئًا عن الصليب منـــذ قليل، فكيف تأكـــدت من أنه صحيح؟

- هل تذكرين ما أخبرتكِ به عن (بين كورتمان)؟

لقد تعمد أن يتحدث عن موضـــوعٍ طرحه بالفعل دون الخوض في تفاصيل جديدة أو منحها معلوماتٍ أخرى، فقالت:

- هل تقصد هذا الرجل الذي.....

فقاطعها وهو يقف ويهز رأسه بالموافقة:

- نعم؛ الذي يأتي إلى هنا كل ليلة

سوف أُريكِ إياه.

وجعلها تنظر من ثقب المراقبة بينما ظل هو خلفها، وهنا شم رائحة شعرها وبشرتها وهو بالقرب منها وجعلته تلك الرائحة يتراجع خطوة إلى الخلف لا إراديًّا، وتساءل:

أليست تلك الرائحة مميزة بالنسبة له؟

إنها ليست جيدة أبدًا، لم ترق لي، وكأنني (جوليفر) بعد أن عاد من رحلاته العجيبة وسط الخيول، فوجد أن رائحة البشر قد أصبحت كريهة بالنسبة له.

وقال متمتمًا:

- إنه الرجل الذي يقف بجوار عمود الإضاءة.

فأطلقت صفيرًا يدل على أنها تعرفت عليه، ثم سألت:

- إن عددهم قليل جدًّا الليلة، فأين البقية؟

- لقد قتلت أعدادًا كثيرة منهم، إلا أن البقية تتمكن من البقاء مختفية بطريقةٍ ما.

فسألته مجددًا:

- كيف لهذا الضوء في الشارع أن يعمل؟

ألم يقوموا بتدمير كل محطات الطاقة والكهرباء؟!

- لقد قمت بتوصيله مع المولد الخاص بي الذي ينير منزلي كي أتمكن من مراقبتهم وسط الظلام ليلًا.

- ألا يقومون بكسر المصباح؟

- لقد قمت بتركيب شبكةٍ قويةٍ ومتينة كي تحمي المصباح.

- ولماذا لا يتسلقون العمود ويكسرونه؟

- لقد وضعت الثوم حوله بعنايةٍ وحرص.

فأمسكت رأسها بيدها وكأنها تستغرب، ثم قالت:

- تبًّا، لقد فكرت ونسقت لكل شيءٍ بتخطيطٍ محكم.

وتراجعت خطوة إلى الخلف، فحدق بها بدهشـــةٍ وهو يتســـاءل في أعماقه:

كيف يمكن لها أن تنظر إليهم بمثل هذا الهدوء؟

كيف تنظر إليهم بطريقةٍ عادية كتلك وتتناقش معه وتلقي بالتعليقات أيضًا؟ ومن المفترض أن هؤلاء وأمثالهم قد مزقوا جسد زوجها الحبيب إلى قطعٍ صغيرةٍ بوحشيةٍ تامة، وأمام عينيها ومنذ أيامٍ قليلة فقط!

إنه الشك من جديد

ألن يتوقف هذا الشعور بعدم الثقة؟

بالطبع لا

فقط عندما يتأكد بنفسه من أمرها.

فالتفتت إليه وقالت:

- هل يمكن أن أســـتميحك عـــذرًا، فأنا أريد اســـتخدام الحمام إن أمكنني ذلك؟

وذهبت بالفعـــل دون أن تنتظر رده بينما ظل هو فـــي مكانه يراقبها حتى اختفت وسمع صوت إغلاق الباب خلفها، ثم عاد إلى مكانه على الأريكة بعد أن أغلق ثقب المراقبة وبدت على شـــفتيه ابتسامة ساخرة، ونظر إلى كأس النبيذ، وفكر في الجملة التي قالتها:

"هل يمكن أن أستميحك عذرًا؟"

ولســـببٍ أو لآخر وجد أن تلك الجُملة تبدو غريبة وليست متناسقة مع الزمن الذي يعيشان فيه، وكأنها قادمة من زمنٍ آخر قديم، وزاد ذلك من شكوكه حتى أن ابتسامته اختفت، وتساءل:

- وماذا الآن؟

ما الذي يخبئه له المستقبل؟

ففي خلال أيامٍ قليلة سيتضح ما إن كانت ستبقى معه في المنزل أو أن مصيرها سيكون في قاع حفرة النار إلى الجحيم الذي لن يخمد؟

فهو على يقينٍ من أنها إن كانت مصابة بالعدوى، فســـيتعين عليه أن يحاول مساعدتها والبحث عن علاجٍ لها سواء كان سينجح أو سيفشل، لكن ماذا لو كانت دماؤها خالية من الجراثيم؟!

على أي حالٍ هذه افتراضية ليســـت مؤكدة حتى الآن، ولهذا فهو لن يتصرف كما في الســـابق ويكسر القواعد والقوانين التي وضعها لنفسه، لكن إن اختارت البقاء ونشـــأت بينهما علاقـــة وأصبحا كزوجٍ وزوجة وحصلا على أطفال، يا إلهي سيكون هذا أمرًا مرعبًا جدًّا ومخيفًا.

وأدرك فجـــأة أنه قد أصبح في مزاجٍ ســـيئٍ بعـــد أن اعتاد على حياة العزوبيـــة منذ فترةٍ طويلة حتى أنه لم يعـــد يفكر بزوجته وطفلته وكل ما أحبه في الماضي، فالحاضر الذي يعيشـــه بطريقتـــه الخاصة دون إلقاء المزيد من الأعباء علـــى عاتقه وبغير تقبل للقيـــود التي قد تفرضها أية علاقة، هذا الحاضر رغم قســـوته قد أصبح كافيًا بالنسبة له، فهو يخشى وبشدة أن يســـلم لها مفاتيح الأقفال التي أحاط بها قلبه بحرص، إنه في حقيقة الأمر يخشى الوقوع في الحب من جديد.

وما أن عادت من الحمام حتى وجدته غارقًا في أفكاره لدرجة أنه لم يلحظ توقف جهاز تشـغيل الأسطوانات عن العمل بالرغم من إصداره صوتًا أجشًّـا يجب أن يكون مسـموعًا، فتوجهت إلى الجهاز وأعادت تشغيله ليصدح صوت الموسيقى عاليًا، وجلست في مواجهته وسألته:

- حسنًا؛ ماذا عن (كورتمان)؟

فحول نظره ببطءٍ ناحيتها:

- (كورتمان)؟

- نعم لقد كنت ستخبرني شيئًا ما عنه وعن الصليب.

- حقًّا؛ ففي إحدى الليالي أدخلته إلى هنا وأريته الصليب.

- وما الذي حدث؟

عاد إلى أفكاره سريعًا:

هل يجب أن أقتلها الآن؟

هل أفعل الأمر عل الفور ودون أن أنتظر كي أفحص دمها؟

يا إلهي، كيف أصبح القتل سـهلًا بالنسبة له بمثل هذه الطريقة، فهو يخطط لقتلها وحرقها في ثانيةٍ واحدة، وعاد لحواره معها:

- لم يخف منه، وصاح بي قائلًا؛ أنا رجل ولست مدمرًا.

فسألته بعصبية:

- ما خطبك؟

- ماذا؟

- أنت تحدق بي.

فقال ببرود:

- أنا آسف، فقد كنت أفكر.

ولم تنطق ببنت شفة بل أخذت تحتسي النبيذ بتوترٍ في حين لاحظ (نيفيل) رعشة يديها وهي تمسك بالكأس الزجاجية الممتلئة، وبالطبع لم يجعلها تعرف ما شعر به بعد أن شاهد تلك الرعشة، وأكمل:

- عندما أريته الصليب، ضحك في وجهي.

فأومأت برفقٍ بينما أكمل هو:

- وعندما رفعت التوراة في وجهه، حصلت على رد الفعل الذي كنت أنتظره.

فسألت بتعجب:

- رفعت ماذا في وجهه؟

- (التوراة).. إنها كتاب سماوي من عند الله.

- حسنًا، وماذا كان رد الفعل ذلك الذي تحدثت عنه؟

- فقد سيطرته واتزانه وقام بمهاجمتي بعنفٍ، ضربني على رأسي بعنفٍ بشيءٍ لا أذكر ما هو الآن، لقد كان قويًا ولم أتمكن من مقاومته، فهزيمتي كانت مؤكدة، إلا أنني رفعت التوراة على الفور مرة أخرى، وجعلته يتراجع إلى الباب حتى تخلصت منه في الخارج، وما أعنيه هو أن الصليب كما قلت لكِ لا يحتوي على القوة المطلقة التي تتحدث عنها الأسطورة، فالنظرية التي توصلت إليها تتلخص في أن تلك القصص والأساطير، جاءت لنا من العصور القديمة في أوروبا عندما كانت تلك القارة لا يسكنها إلا المسيحيون الكاثوليك كأغلبيةٍ مطلقة،

فأصبح الصليب بالنسبة لهم رمزًا قويًّا لدحر الشر والتخلص من الأشرار ومحاربة قوى الظلام.

فسألته:

- هل أطلقت عليه النار من بندقيتك؟

- وكيف تعرفين أنني أمتلك بندقية؟

- لقد افترضت ذلك بديهيًّا، فنحن كنا نمتلك واحدة.

- إذًا يجب حينها أن تعرفـي أن الرصاصات لا تؤثر على مصاصي الدماء.

- لم نكن أبدًا على يقينٍ من النتائج عندما كنا نطلق النار.

ثم أردفت بسرعةٍ كي تشتت انتباهه:

- هل تعرف السبب؟

أقصد لماذا لا تؤثر فيهم الرصاصات؟

فهز رأسه يمينًا ويسارًا نافيًا، وقال بصوتٍ خافت:

- أنا لا أعلم لماذا.

وعم الصمت الغرفة إلا من الموسيقى التي استمعا إليها، وبدأ يغرق في الشك من جديدٍ ولم يرغب في مصارحتها بالأمر، بل لم يرغب أصلًا في جعلها تلاحظ ذلك، فمن خلال تجاربه على مصاصي الدماء الموتى، اكتشف أن الخلايا الجرثومية تمنح أجسادهم القدرة على التعامل مع الفتحات التي يسببها الرصاص فتغلقها في نفس اللحظة، ولهذا لا تتمكن الرصاصات من التسبب لهم في أي أذى، فما أن يتم تحفيز الجسم بواسطة البكتيريا، يصبح محصنًا ضد إطلاق النار.

وفي الحقيقة تتحمل أجسـادهم العدد النهائي من الطلقات، فقدرة أنسجتهم على الالتئام، وخاصية التصمغ لديهم تمنع اختراق الرصاص لأكثر من سـنتيمتر واحد تحـت الجلد، ويصبح الأمـر وكأنك تلقي بالحصى على طريقٍ معبد بالإسفلت.

وبينما هـو ينظر إليها، أخذت تعدل من وضـع الثوب الذي ترتديه حول جسدها مما أظهر له للحظةٍ خاطفة مساحة أكبر من ساقيها، وبدلًا من أن يشـعر بانجذابٍ إليها، أصابه الأمر بالمزيد من التوتر والانزعاج بعـد أن صدر منها دون وعيٍ إيماءة ليسـت أبـدًا بالتي تصدر عن أنثى تتصرف بتلقائية، بل كانت بلا شك مصطنعة بكل المقاييس.

ومع مرور الدقائق ببطءٍ كان يجد شـيئًا ما في داخله يدفعه للابتعاد عنها أكثر وأكثر بل لوهلةٍ شعر بالندم الشديد لأنه أحضرها إلى منزله أو حتى لأنه عثر عليها من الأسـاس، فمع مرور الشهور والسنوات تمكن من الوصول مع نفسـه إلى درجةٍ عاليةٍ من السـلام والهدوء والسكينة، وتقبل الحياة وحيـدًا بكل رضا، ولـم يجد أنها سـيئة بالقدر الذي كان يظن، وها هو ظهورها ينهي كل تلك الأشياء.

وكي يقتـل الملل ويملأ الفـراغ الثقيل حتى يأتـي الصباح، تناول غليونه وملأه بالتبغ، وقبل أن يبدأ في التدخين، فكر في أن يسـألها؛ ما إن كانت سترغب في مشاركته أم لا، وهل من الأصل يليق أن يسأل عن مثل هذا الأمر؟!

وأخيرًا لـم يسألها.

وبعد قليلٍ توقفت الموسيقى، فقامت إلى جهاز تشغيل الأسطوانات بينمــا أخذ هو يتأملها، أو على وجه التحديد يتأمل جســدها، فوجد أنه نحيل جدًّا بطريقةٍ تجعلها تظهر وكأنها فتاة غير ناضجة..

من هي؟

من هي في الحقيقة؟

وسألته بتردد:

- هل يمكن أن أقوم بتشغيل هذه الأسطوانة؟

فأجابها دون أن يعرف حتى أي أسطوانةٍ تقصد:

- افعلي إن كانت تروق لكِ.

وعادت الموسيقى تصدح، وعادت هي لتسأله:

- حدثني عن نفسك

من أنت؟

وبعد أن سمع سؤالها فكر:

إنها تتصرف بطريقةٍ أقرب ما تكون للعادية؛ فلماذا كل هذا القدر من عدم الثقة والشك؟

وأجابها باقتضاب:

- لا شيء مميز كي أخبركِ عنه.

فضحكت بسخريةٍ وهي تقول:

- لقد أفزعتنــي بجنونٍ في الظهيــرة أنت ولحيتــك الكثة وعيناك الوحشيتان.

فنزع غليونه وتساءل في داخله:

عيون وحشية؟!

ما الذي تحاول القيام به؟

هل تقوم بكسر حواجز التحفظ التي أبنيها؟

وأكملت قائلة:

- أنت لا تعرف كيف يبدو مظهرك تحت كل هذه السوالف الكثيفة.

وحاول أن يبتسم لدعابتها إلا أنه لم يفعل، وقال:

- لا شيء، مجرد وجه رجلٍ عادي.

- كم عمرك يا (روبرت)؟

فتعجب لدرجة أنه وجــد صعوبة في ابتلاع ريقــه، فهذه هي المرة الأولى التي تناديه فيها باسمه مباشرة مما منحه شعورًا غريبًا من الدهشة وعدم الراحة، فبعــد الكثير من الوقت أصبح مجــرد أن تنطق امرأةٌ ما اسمه شيئًا غير مألوف، وغرق كعادته في أفكاره:

لا أريدها أن تفعل ذلك

لا أريد تناديني باسمي مرة أخرى

لا أريد أن أفقد المسافة الفاصلة بينها وبيني

فــإن كانت مصابة بالعدوى ولم أتمكن من علاجها ســيُصعب هذا الأمور جدًّا

أنا أريدها أن تبقي غريبة.

وأخرجته من أفكاره المتلاطمة كالموج:

- حســنًا، أنت لســت مجبرًا على الحديث معي، إن لم ترغب في ذلك، فأنا لا أريد أن أزعجك، وعلى كل حالٍ ففي الغد سوف أغادر.

فشعر بانقباضةٍ في صدره، وقال:

- ولكن....

فقاطعته:

- أنا لا أريد أن أخرب طريقة حياتك، ولا أريد منك أي شعورٍ بالمسؤولية تجاهي لمجرد أننا أصبحنا الوحيدين الباقيين على قيد الحياة.

فظلَ ينظر إليها دون أن يرمش سوى رمشة واحدة سريعة، حدثت عندما شعر بالقليل من تأنيب الضمير بسبب كلماتها، فسأل نفسه:

لماذا يجب أن أشك بها؟

فإن كانت مصابة بالعدوى، فلن أسمح لها نهائيًّا بمغادرة المكان حية

فلمَ كل هذا الخوف؟

وعلى الفور قال:

- أنا آسف.

يجب أن تعذريني، فأنا قد تعودت منذ سنواتٍ على البقاء وحيدًا.

إلا أنها لم تنظر إليه، فاستطرد:

- ولو أنكِ تريدين الحديث عن أي موضوعٍ ترغبين فيه، فسيجعلني الأمر سعيدًا، فقط أخبريني عن أي شيء.

وهنا رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين شعر أنهما في غاية الغرابة ولا يمتلكان القدرة على قول الحقيقة، وسألته:

- أنا أريد أن أعرف المزيد عن المرض، فأنا فقدت ابنتيّ بسببه، وأيضًا شاهدت مقتل زوجي لنفس السبب.



فقال وهو مستمر في النظر إليها:

- هناك بكتيريا تتسبب فيه، بكتيريا كروية أو أسطوانية الشكل، وتلك الجراثيم تحول الدم إلى سائلٍ أحادي الجذب وتصبح سرعة حركته في الجهاز الدوري والأوعية الدموية أقل من السرعة الطبيعية، وتقوم أيضًا بتحفيز كل وظائف الجسد وأجهزته الحيوية، كما أن تلك البكتيريا لا تعيش إلا في الدماء الطازجة التي توفر لها الطاقة والغذاء، وفي حالة الظروف المعيشية الصعبة تتحول تلك البكتيريا إلى ما يشبه البذرة كي تحافظ على حياتها.

وبدأ يظهر الاستغراب على ملامح (روث) مما جعله يدرك عدم قدرتها على فهم بعض المصطلحات التي اعتاد هو عليها، في حين لم تسمع هي عنها من قبل، فأردف:

- حسنًا؛ أغلب تلك التفاصيل ليست بذات الشأن، فالمهم هو معنى التحور إلى بذرة، وهذا بأن تتحول البكتيريا إلى جسمٍ بيضاويٍّ لا يحتوي إلا على ما هو ضروري فقط لبث الحياة داخل الجرثومة عندما تتحسن الظروف، ويحدث هذا عندما لا تتوفر لها الدماء الطازجة، وعندما يتحلل جسد مصاص الدماء تتناثر تلك البذور في الهواء حتى تصل إلى جسد شخصٍ آخر سليم فتستوطنه وتصيبه بالعدوى ويتحول إلى تلك الصورة البشعة.

فهزت رأسها بخوفٍ وارتيابٍ بينما أكمل (نيفيل):

- وفي بعض الظروف تظهر خلايا تعرف باسم (آكلات البكتيريا) وتفرز نوعًا من البروتين عندما يتعرض الجسم للهجوم أو لنقص الدماء

الطازجة، وعلــى خلاف الخلايا البذرية، تتصــرف (آكلات البكتيريا) بطريقةٍ غير طبيعية ويؤدي هذا الخلل إلى دمار الخلايا.

ثم أخذ يشرح لها سريعًا مســألة الجهاز الليمفاوي وطريقة تخلصه من فضلات الجســم الناتجة عن تدمير الخلايا، وكيــف أن تأثير الثوم الفعال يتلخص في أنه يســبب هياجًا وحساســية مفرطة للجراثيم مما يقضي عليها.

فسألته بلهفة:

- حسنًا، لماذا نحن منيعان من تلك العدوى؟

فأخذ ينظر إليها مطولًا بدون إجابة، ثم قال بلا اكتراث:

- أنا لا أعلم الســر وراء ذلك، لكنني أذكــر أنه خلال تمركزي أثناء الحــرب العالمية في بنما، أنني تعرضـــت حينها لعضة خفاش مصاص دماء.

وعلى هـــذه الحادثة تقوم نظريتـــي التي لا أســتطيع أن أثبت مدى صحتها بالطبع، وهي تتلخص في أن هذا الخفاش في الســابق قد واجه مصاص دماءٍ حقيقي واكتسب منه الجرثومة الأصلية المسببة للعدوى، وهذه الجرثومة جعلت الخفاش يمرض ولكن ليس بنفس طريقة البشر، وقد انتقلت الجرثومة إلى جســدي بعد أن أصبحت ضعيفة بواســطة دماء الخفاش الذي عاشــت فيها من قبل وقد سببت لي مرضًا رهيبًا في وقتها لكنهــا لم تقتلني، ونتيجة لكل هذا، إن دمائي كونت مناعة خاصة تجاه ذلك النوع من العدوى، وتلك هي نظريتي وعلى أي حالٍ هذا هو

التفسير الوحيد العلمي والمنطقي الذي حصلت عليه بعد عناء سنواتٍ من الأبحاث.

- ولكن أليس من المحتمل أن يكون نفس الأمر قد حدث بطريقةٍ أو أخرى مع البعض منهم؟

فأسرع بالرد عليها:

- لا أعلم، فقد قتلت الخفاش، فبالتأكيد أنا ضحيته الأخيرة، وربما كنت الأولى أيضًا.

فظلت تنظر إليه بصمتٍ تام، وجعلته تلك النظرات يشعر بالارتباك والتوتر، وفكر في أنه تحدث عن موضوعٍ لم يكن يرغب أبدًا في مناقشته معها، فهو بهذا منحها معلومات في غاية الأهمية بخصوص دراسته عن مصاصي الدماء والعقبات التي واجهها والنجاحات التي حققها.

إلا أنه أكمل:

- في البداية ظننت أن الأوتاد تقتلهم لأنها تصيب القلب، فقد كنت أتبع الأسطورة وقصص الخيال، لكنني اكتشفت خطأ ذلك الاعتقاد بعد أن غرست الأوتاد في كل مكانٍ بأجسادهم، وحصلت في كل مرةٍ على النتيجة ذاتها.. يموتون.

فذهبت إلى فرضيةٍ أخرى وفكرت في أن النزيف هو السبب، حتى جاء يوم....

وأخبرها عن قصة المرأة التي تحللت في غمضة عين تحت نظره، وأكمل:

- وحينها أيقنت أن النزيف ليس السبب.

وشعر بالكثير من الفخر بداخله على نجاحه في حل شفرة هذا الجزء المعقد من اللغز، وأكمل:

- ولم أعرف كيف أتصرف حتى حدث أمرٌ ما في أحد الأيام.

فسألته بفضول:

- ما هو؟

فأجاب:

- لقد أحضرت أحد مصاصي الدماء، ووضعت ذراعه داخل مكنسة شفط كهربائية، فتدفقت الدماء إلى الخارج، وهذا كل ما في الأمر.

فتمتمت:

- ألم تتمكن من رؤيته؟

فهز رأسه معترفًا:

- لا، فعندما أخرجت الهواء من المكنسة، وجدت الذراع قد تفسخت.

وظلت تحدق به وهو يكمل:

- واكتشفت أن البكتيريا (رمية) في طريقة حياتها، وهذا يعني أنه يمكنها العيش في وجود أو عدم وجود الأكسجين ولكن مع الفارق، ففي داخل الجسم هي لا هوائية وتتعامل بطريقةٍ تكافلية مع الظروف المحيطة بها، فمصاصو الدماء يتغذون على الدماء الطازجة، وهذا يوفر الطاقة للبكتيريا فتمنحها القدرة على الحصول على المزيد من الدماء، وكذلك تسبب البكتيريا بروز الأنياب الطويلة في الفم.

فقالت باستنكار:

- حقًّا!

قال:

- فعندما يدخل الهواء تتبدل الأوضاع على الفور، وتتحول البكتيريا إلى هوائية وهذا يزيد من شراهتها ووحشيتها، فتتغذى على جسد الكائن المضيف لها وتفنيه.

تمتمت:

- والوتد يجعل....

فأكمل مقاطعًا:

- نعم، الوتد يجعل الهواء يتسرب إلى داخل الجسد ويجعل أيضًا الأنسجة تفشل في عملية التصمغ، ويجد القلب نفسه عاجزًا عن مواجهة هذا الموقف، وما أفعله الآن هو قطع شرايين المعصمين بعمقٍ كي لا تستطيع أجسادهم إفراز الصمغ اللاصق للأنسجة.

ثم ابتسم وقال بسخرية:

- وشعرت بندمٍ شديدٍ على الوقت والجهد اللذين أهدرتهما على صنع الأوتاد الخشبية.

فأومأت برأسها، وما أن لاحظت أنها ما زالت تمسك في يدها بكأس النبيذ الخالية منذ وقتٍ طويل حتى وضعتها على الطاولة، في حين استطرد هو:

- وهذا يفسر ما حدث للمرأة التي تحللت بسرعة، فقد كانت ميتة منذ فترة، وكان جسدها خاليًا من الهواء الذي ما أن تسرب بطريقةٍ فجائية إلى داخلها حتى حدث لها ما أخبرتكِ به.

فأصدرت صوتًا وكأنها شعرت بتقززٍ، وقالت بخوف:

- إنه أمر مرعب.

فأصيب بدهشةٍ من تعليقها:

مرعب!

هذه الكلمة تلاشـــت تمامًا منذ زمن، ولم يكن هناك ما هو قادر على إثـــارة الرعب بعد كل هذا الخوف والفزع الذي مر به، وأصبح ما يمكن أن يشعر به هو الإثارة وليس الرعب.

وهنا سألته مرة أخرى:

- وماذا عن الآخرين منهم الذين بقوا أحياءً؟

فقال:

- حســنًا؛ عندمـــا تقومين بقطع الشـــرايين فـــي معاصمهم تتحول الجراثيـــم بصورةٍ طبيعية إلـــى طفيليات، ولكنهم يموتـــون في الغالب بسبب النزيف وفقدان الدم ببساطة.

فأدارت وجهها على الفور وعضت شفتيها بقوة، فسألها مستغربًا:

- ماذا بكِ؟

فقالت وهي تحاول أن تتمالك أعصابها:

- لا شيء.

- ما أن تتعودي على فعل ذلك حتى يصبح الأمر....

ارتجفت وأصدرت أنينًا خافتًا وهـــي تزفر الهواء من صدرها، فقال لها:



- قوانين (روبرت) ليســـت ملزمة لكِ في هذه الغابة التي نحيا بها، ولكن صدقيني تلك هـــي الطريقة الوحيدة التـــي جربتها ونجحت من خلالها في البقاء حيًّا، وقد كان بإمكاني أن أدعهم يموتون بطريقةٍ عادية ثـــم يصابون بالعدوى من جديـــد، فيعودون أكثر فظاعـــة من ذي قبل، فلماذا؟

فضمت يديها إلى بعضهما البعض، وقالت بعصبية:

- لكنك قلت أن الكثيرين منهم كانوا على قيد الحياة، فكيف تعرف أنهم لم يكونوا في طريقهم ليكونوا بخير؟

فقال:

- أعرف!

أعرف ماذا؟

أنا أعرف عن الجراثيم التي تتكاثر والتي لن تتمكن أجســـادهم من مقاومتهـــا، ففي النهاية ســـوف تنتصر الجراثيم، لقد صنعت أجســـامًا مضـــادة وحقنتها في أعدادٍ كثيرة منهم، ولكنها لم تعمل، لم يســـتفيدوا مـــن ذلك، فلا يمكن أن تجعلي اللقاح يعمل بينما هم غارقون بعمقٍ في المرض، فأجسادهم لم تتمكن أبدًا من محاربة البكتيريا ولا تكوين تلك الأجسام المضادة بطريقةٍ طبيعية

هذا لم يحدث أبدًا

صدقيني

إنه فخ، فإن لم أقـــم بقتلهم بهذه الطريقة التـــي وصفتيها بالمرعبة، فآجلًا أو عاجلًا سيموتون، وعندما يعودون سيأتون لمطاردتي وقتلي

أنا أسطورة

لم أكن أملك أية خيارات

لا خيارات على الإطلاق.

وعند هذا الحد عم الصمت داخل الغرفة

هو قد صمت

وهي قد صمتت

حتى الموسيقى صمتت

ولم يعد هناك سوى صوت إبرة مشغل الأسطوانات وهي تصدر ذلك الاحتكاك الذي يشبه صوت الخدش. لم تنظر ناحيته بل طأطأت رأسها وأخذت تنظر إلى الأرض بعينين يملأهما الحزن والبرود.

وفكر هو على الفور أنه من الغريب جدًّا، أن يجد نفسه مدفوعًا إلى تبرير تصرفاته التي كان يراها بالأمس من ضروريات البقاء على قيد الحياة، وعلى مدار سنواتٍ لم يتخيل أبدًا أو يساوره الشك بأنها تصرفات خاطئة، لكن وجود (روث) في هذه اللحظة جعله يشعر بارتباكٍ شديد وكأنه شخص آخر غير نفسه، فسألها مستفسرًا:

- هل تظنين أنني كنت مخطئًا فيما قمت به طوال هذا الوقت؟

فعضت شفتها السفلى بقوةٍ، وظلت صامتة، فنادى عليها:

- (روث) أنا أتحدث معكِ.

فقالت بكلماتٍ مقتضبة:

- الأمر لا يعنيني كي أعلق عليه.



الفصل الثامن عشر

- (فيرجينيا).

الظــلام الناتج عن الارتداد العنيف من الاصطــدام بالحائط، جعل (روبرت نيفيــل) يبكي بحرقة وبصوتٍ أجش يمزق الصمت الأســود الذي يغشى المكان، فرفع جســده بصعوبةٍ من على الأريكة، ثم حدق بعينين يملأهما النوم عبر الغرفة، وصدره ينبض الأنفاس بحدة كقبضاتٍ مجنونــة تضرب جدارًا قويًّا بعنف، وأخذ يتمايل وهو يســير بينما عقله مليء بالضباب الذي يشوش عليه معرفة الزمان أو المكان الذي يتواجد فيه، ومن جديد أخذ ينادي على زوجته:

- (فيرجينيا).

ثم عاد ليكرر النداء عندما لم يصله الرد:

- (فيرجينيا).

واستطرد قائلًا عبر الظلام بصوتٍ خالٍ من المشاعر:

- إنه أنا.

ثم تقدم خطوة إلى الأمام بدهشةٍ ناحية شعاع الضوء الخافت والقادم مــن ثقب المراقبة، وأخــذ يرمش بعينيه، وفجأة وضــع يده على كتفها وأمسك بها فشهقت من الفزع، وقالت بسرعة:



- أنا (روث).. ألا تذكرني؟

(روث).

وتوقف (نيفيل) مذهولًا وسط الظلام محاولًا تمالك نفسه بينما عيناه تحدقان فيها دون معانٍ معبرة، وقالت مرة أخرى بصوتٍ أعلى:

- أنا (روث).

استيقظ فجأة وكأن شلالًا من المياه الباردة قد غمره دون مقدمات، وشعر برجفةٍ غريبة داخل صدره ومعدته، فأخذ يهز رأسه بقوةٍ ويفرك عينيه ويفكر في أنها ليست (فيرجينيا) بل هي (روث) ثم تمتم بوهن:

- يا إلهي، ما الذي حدث؟

وتذكر على الفور إحساسه بأن جسده يتهاوى ببطءٍ في بئرٍ من الظلام وغشاوة تغمر كل حواسه، لكنه الآن يستعيد السيطرة على نفسه، ونظر إلى ثقب المراقبة المفتوح ثم حول نظره إليها، وسألها بحدة:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

- لا شيء؛ لم أتمكن من النوم.

- ولماذا ترتدين ملابسكِ؟

- لقد كنت أنظر إلى ما يفعلونه في الخارج.

فنفث الهواء من صدره بعصبيةٍ، وقال بغضب:

- حسنًا؛ لكن لماذا ترتدين ملابسكِ؟

- لم أتمكن من النوم.

واســتمر في النظر إليها وهو يشــعر بالقليل من الدوار بينما صدره يضيق بما فيــه من هواء، ومن خــلال ثقب المراقبــة المفتوح، تمكن من ســماع صوت زمجرتهم ونباحهم بوضــوح، وكذلك صوت (بين كورتمان) وهو يصرخ ويدعوه للخــروج إليه، وكانت هي تقف بتحفزٍ وقد وضعت قبضتيها بجانب جسدها النحيل، فسألها بحدة:

- لماذا ترتدين ملابسكِ؟

فبادلته النظرات وقالت بعناد:

- لا شيء، كما أخبرتك كنت أتفقد المكان في الخارج.

- لكن لم أفهم لماذا ترتدين ملابسكِ؟

- بلا سببٍ محدد.

- هل كنتِ تخططين للهروب بينما أنا نائم؟

فنفت ذلك على الفور:

- بالطبع لا.

- بل كنتِ ستفعلين ذلك.

ثم سحبها بقوةٍ من معصمها مما جعلها تشهق من المفاجأة، وتصرخ قائلة:

- لا، لا، وكيف سأفعل ذلك وهم موجودون بالخارج؟!

وبدأ يتنفــس بصعوبةٍ وهو ينظر إلى وجهها الخائف، وعاد لمحاولة تهدئة نفسه، فترك ذراعها، وصب لنفسه كأسًا من الخمر وتجرعها على دفعةٍ واحدة دون أن تتفوه هي بحرفٍ واحدٍ حتى سألته:

- ماذا كان اسمها؟

فتشنجت عضلات جسده بأكملها للحظةٍ قبل أن ترتخي، ويقول لها:

- كل شيءٍ على ما يرام

هيا اذهبي إلى النوم.

فتراجعت خطوة إلى الوراء وقالت:

- أنا آسفة، لم أقصد ذلك.

وفجأة أدرك أنه لا يريدها أن تنام بل يرغب في بقائها معه، ولم يعرف لماذا، فكل ما عرفه هو أنه لم يكن يريد أن يكون وحيدًا، ثم تمتم:

- لقد ظننتكِ زوجتي عندما استيقظت فجأة.

ثم صب كأسًا أخرى وفعل بها نفس ما فعل بالأولى ولكن هذه المرة كان سيختنق وأخذ يسعل عندما تسربت بعض القطرات إلى قصبته الهوائية، وما أن هدأ حتى أكمل بينما ظلت هي بعيدًا تصغي إليه:

- لقد عادت مرة أخرى

لقد دفنتها، ولكن في إحدى الليالي عادت من جديد

وكانت تبدو

تبدو

تبدو مثلك كخيالٍ مليءٍ بالريبة والشك

كانت ميتة ولكنها عادت

فحاولت أن أبقيها هنا معي



حاولت جاهدًا، ولكنهـا لم تكن هي نفس الشـخص الذي عرفته لسنواتٍ طويلة

فكل ما كانت تريده هو....

وشعر برغبةٍ ملحة في البكاء، وأكمل بصوتٍ مرتعش:

- زوجتي الحبيبة عادت إلى هنا كي تشرب دمي.

وألقى بعنفٍ الكأس على البار الخشبي، وأشاح بوجهه وتقدم ليغلق ثقب المراقبة، وعـاد بعد ذلك إلى حيث كان يقف أمام البار، وكما هي ظلت، (روث) في حالة صمتٍ ومراقبة عن بُعدٍ حتى أكمل:

- وأخذتها بعيدًا

وكان يتعين عليَّ أن أفعل بها ما فعلته بالآخرين

زوجتي الحبيبة

وتد خشبي لعين

وضعت في قلبها وتدًا خشبيًّا لعينًا

لقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي أعرف أنه يعمل جيدًا وبفاعلية.

وفجـأة توقف عن الحديث غير قادر على قـول المزيد، وظل على حاله يحدق في لا شيء لفترةٍ طويلة وهو يرتعش بحدة.

وبعد الكثير من الوقت قال:

- لقد حدث هذا منذ ثلاث سنواتٍ تقريبًا

ولكنني ما زلت أذكر تفاصيله بدقة

إنه حدث لا يريد أن يفارقني أبدًا

كيف يمكنني التخلص من ذلك؟

ثم أخذ يضرب البار بقبضته بقوةٍ وكأنه يوجه لكماته لذاكرته اللعينة، واستطرد بيأس:

- لا جدوى مهما حاولت

لم أتمكن من النسيان ولا من تقبل الأمر.

وعدل من وضع شعره بأصابعه المرتجفة، وقال:

- أنا أعرف ما تشعرين به

لقد مررت به

أنا لم أتمكن أيضًا من الثقة بكِ

لقد كنت أحيا في أمانٍ وهدوءٍ داخل قوقعتي الصغيرة

والآن في ثانيةٍ واحدة

تبخر كل شيء

التنظيم

التخطيط

السلام

السكينة

الأمن.

وهنا كان لا بد أن تتحدث، فنادت باسمه:

- (روبرت)

لماذا يجب أن نعاقب بمثل هذه الطريقة القاسية؟

فأخذ نفسًا عميقًا، وقال بمرارة:

- لا أعلم

حقًّا لا أعلم

فلا توجد أي إجابةٍ أو سببٍ مقنع

الأمر فقط وكأنه....

كانــت هي قد أصبحت قريبة منه جدًّا، وفجأة دون لحظةٍ واحدةٍ من التردد لفت ذراعيها حوله وعانقته، وكانا شــخصين يتمسكان ببعضهما البعض في ليلةٍ فُقد فيها كل شيء.

وضعت يداها على ظهره وتمسكت به بينما ضمها هو إليه بقوةٍ ودفن وجهه وعينيه في شعرها الناعم، ولم يشعرا بنفسيهما إلا وهما يتبادلان قُبلة لا يمكن وصفها.

لكن (نيفيل) تراجع فجأة وهو يقول:

- أنا آسف يا (روث).

- آسف!

- نعم أنا آسف لقسوتي عليكِ، ولشكي بكِ.

وظلت هي صامته تمسك بيده بقوةٍ، إلا أنها قالت بعد لحظات:

- هذا ليس عدلًا

لماذا بقينا أحياءً؟

لماذا لم نلحق بهم؟

لماذا لم نمت؟

لقد كان من الأفضل أن نموت جميعًا مع بعضنا البعض.

ولكنه عاد ليضمها إليه بحنانٍ، وقد تأثر بفيض المشاعر الذي أظهرته بحزنٍ وألمٍ، وقال:

- لا تقلقي، ستكون كل الأمور على ما يرام.

فوضعت رأسها على كتفه، فتمتم:

- نعم، ستكون كذلك.

إلا أنها قالت بشك:

- وكيف سيحدث هذا؟

ومن داخلـه كان يجهل الإجابة ويحمل نفس الشـك الذي تحمله هي، إلا أنه قال بثقة:

- سنكون بخير.

- لا لن يحدث.

- بلى سوف يحدث، صدقيني يا (روث).

ولم يتمكن أبدًا من حسـاب المدة التي قضاها على هذا الوضع بلا حركة مسـتكينًا بجوارها على الأريكة، وأصبح (روبرت نيفيل) خارج سـيطرة الزمان والمكان، وتحولا إلى شخصين يحتاج كل واحدٍ منهما

إلى الآخر بجنون، فبالإضافة إلى أنهما الوحيدان اللذان حظيا بالنجاة من الموت الأسود، تحول وجودهما بجوار بعضهما البعض إلى نوعٍ آخر من النجاة.

وفجأة شعر برغبةٍ في فعل أمرٍ ما يمكنه أن يساعدها به، فقال وهو يمسك بيدها:

- هيا بنا سوف نقوم بعمل القليل من الفحوصات لكِ.

إلا أنها شدت على يده أكثر وهي تقول بسرعةٍ وتوتر:

- لا، ليس الآن.

فربت على كتفها، وقال:

- لا تخافي

أنا على يقينٍ من أننا لن نجد شيئًا

وحتى إن وجدنا فسوف أجد لكِ علاجًا

أقسم أنني سأفعل مهما كلفني الأمر يا (روث).

وظلت هي تقف في الظلام تحدق به دون أن تنطق أي كلمة، فاقترب منها وسحبها معه وهو يشعر برجفةٍ من شدة الإثارة، فهو يرغب جدًّا في مساعدتها وشفائها.

وقال متوسلًا:

- دعيني أحاول ولن أسبب لكِ أي أذى

أُقسم لكِ

دعينا نعرف الحقيقة كي نتصرف على أساسها، وسوف أجد لكِ علاجًا أو سأموت وأنا أحاول

أعدكِ بذلك يا (روث).

وكانت لا تزال على نفس حالة التوتــر والحذر، فعاد ليقول بنبراتٍ حنون:

- تعالي معي أرجوكِ.

وفي تلك اللحظة اختفت كل المشـاعر وأصبح جســده كإناءٍ خاوٍ يتخبط هو بداخله وهو ينتفض كرجلٍ فقد السيطرة على أطرافه، وأخذها معه إلى غرفة النوم وما أن لاحظ خوفها عندما أشعل الضوء حتى ضمها برفقٍ، وقال مطمئنًا:

- كل الأمور على ما يرام، لا تقلقي

مهما كان الشيء الذي سنكتشفه، سنجد له حلًّا سويًّا

هل تفهمين ما أقوله؟

وأجلسها بهدوءٍ على كرسيٍّ كبير في طرف الغرفة وهو يتأمل ملامح وجهها الخالية من أي تعبير وجســدها النحيل الذي كانت تسـري فيه قشـعريرة، وأخذ يســخن إبرة معدنية على اللهب كي يعقمها، وما أن انتهى حتى انحنى عليها وقبل رأسها وقال بثقة:

- ستكونين بخير

فقط ثقي بي وستكونين بخير.

فأغلقــت عينيها وهو يدخل طرف الإبرة في أحــد أوردتها، وانتقل الألم الذي تشعر به في يدها إلى يده هو مع الدم الذي سحبه منها.

ثم أسرع بوضع قطعة قطنٍ صغيرة كي يوقف قطرات الدم التي تخرج منها، وقال وهو يعد الشريحة:

- لقد شارفنا على النهاية.

وكانت نبراتــه تحمل الكثير من القلق بالرغم من أنه حاول ألا يظهر ذلــك لها حتى أنه لم يحكــم التعامل مع الشــريحة وإعدادها من فرط التوتر الذي يشعر به، وابتسم لها عندما وجد أن توتره يزيد من شعورها بالتوتر.

ثم قال:

- لا تخافي، ســوف أعالجكِ إن كنتِ مصابة بالعدوى، ســأفعل يا (روث).. أنا على ثقةٍ من ذلك.

وبدأ يعمل على عينة الدم التي ســحبها منهــا بينما ظلت هي تراقبه بصمتٍ تام وهي تضغط بأسنانها على شــفتيها حتى أنها آلمت نفسها، وبعد فترةٍ خرجت كلماتها مرتجفة خائفة تسأله:

- ماذا ستفعل بي إن اكتشفت أنني....

فقاطعها:

- لا أعرف حتى الآن لســت على يقين، ولكن هناك الكثير كي نقوم به من أجلكِ.

- مثل ماذا؟

- سنجرب اللقاح على سبيل المثال.

- ولكنك أخبرتني أن التطعيمات واللقاحات لا تعمل.

قالت تلك الجُملة بيأسٍ، فأجابها:

- نعم، ولكن...

وفجأة تغيرت ملامحه وهو يضع الشـــريحة تحت الميكروسكوب، فكررت عليه نفس السؤال وهي تعتدل في جلستها:

- (روبرت).. ما الذي ستفعله لي؟

ثم تحولت نبرات صوتها إلى التوسل وهي ترجوه بألم:

- (روبرت).. أرجوك لا تنظر إلى ما يوجد على تلك الشريحة أرجوك.

ولكنه لم يصغِ إليها وواصل ما يقوم به وقد حبس أنفاسه، ثم همس باســمها وصوته يدل على الصدمة التي تجتاحه ممــا رآه، ليس تحت الميكروسكوب ولكن من الخلف:

- (روث).

وسقطت مطرقة خشبية ضخمة على رأســه بمنتهى القوة، واعتصر الألم (روبرت نيفيل) مكان الضربة العنيفة، وشــعر أن إحدى ســاقيه ترتخــي ولا تقدر على حمــل ثقل جســده، وبالفعل ســقط وارتطم بالميكروســكوب وهو يتهاوى أرضًا، وكانت ركبتــه اليمنى هي أول جزءٍ منه يلمس الأرض، فشعر بوجعٍ رهيبٍ بها، وارتسمت على وجهه ملامح الحيرة وكأنه يســألها عن الســبب الذي جعلها تقوم بمثل هذا التصرف، وتلقى الضربة الثانية بالمطرقة على نفس المكان مرة أخرى، فصــرخ بصوتٍ مرتفع وارتكز بركبتيه علــى الأرض وهو لا يزال ينظر إليها وهي تتنهد، غير مصدق لما تفعله به.



فأمسك بســاقيها يرجوها أن تتوقف إلا أن الضربة الثالثة كانت هي الأقــوى والأكثر عنفًا وتلقاهــا على مؤخرة رأســه دون رحمة، فتمتم بحروف اسمها وهو يجاهد كي لا يفقد الوعي:

- (روث).

ودون مقدمات تراخت قبضتيه وانزلق بجسده وتمدد أرضًا، وغرق في ظلامٍ دامس وكأن الليل قد خيم عليه بمفرده بينما بقية العالم ينعمون بشمس النهار.

الفصل التاسع عشر

عندما فتح عينيه لــم يكن قد عاد إلى الوعي كليًّـا، ولم يتمكن من سـماع أي صوتٍ بالبيت الغارق في السكون، فظل فــي مكانه على الأرض للحظاتٍ كي يستجمع قواه الخائرة ويتغلب على الارتباك الذي يتلاعب به، وأخيـرًا قرر أن يحاول النهوض وأصـدر أنينًا عميقًا وهو يفعل إلا أنه شـعر بقنبلةٍ من الدبابيس الحادة تنفجر داخل رأسه وعلى الفور انهار، وفشلت محاولته.

وقبل المحاولة الثانية أخذ يتحسس رأسه عندما شعر بأنها محطمة من أثر الضربات التي تلقاها، ثم اسـتند بيديه على حافة الكرسي وأخذ يدفع نفسـه إلى الأعلى كي ينهض وبدأت الأرض تتأرجح تحت قدميه بغير ثباتٍ، فأغلق عينيه وأخذ نفسًـا عميقًا، وبعـد دقيقةٍ بدأت الأمور تتحسن فسـار بخطواتٍ ليسـت متزنة إلى الحمام، وهناك استند بيديه على المغسلة ورش الماء البارد على وجهه عدة مرات، ثم بلل قطعة من ملابسه وأخذ يمسح بها رأسه من الخلف وجبينه.

وتساءل وهو يحدق في لا شيءٍ محدد؛

- ما الذي حدث؟



وبذل المزيد من الجهد حتى وصل إلى غرفة المعيشة حيث وجدها خالية كما أن باب المنزل كان نصف مفتوح وضوء النهار الخافت يتسلل منه

لقد رحلت

ثم تذكر شــيئًا ما جعله يســتند على الحائط كي يعود أدراجه سريعًا إلى غرفة النوم، وهناك بجوار الميكروســكوب وجد ورقة بيضاء عليها رســالة مقتضبة، فالتقطها بأصابع مرتجفة وجلس على السرير، وما أن حاول القراءة حتى وجد الجُمل تهتز والكلمات غير واضحة

لقد كانت الدموع

إنه يبكي

فهز رأســه وهو يحكم السيطرة على أنفاسه ومســح وجهه وعينيه بكفيه، وبدأ يعيد النظر إلى الرسالة مرة أخرى:

(روبرت)

الآن أنت تعرف

تعرف أنني كنت أتجســس عليك، وأن أغلب ما قلته لك لا يتعدى كونه مجموعة من الأكاذيب

أنا أكتب لك هذه الرســالة في محاولــةٍ مني لإنقاذك إن تمكنت من ذلك، فعندما أوكلت إليَّ مهمة التجسس عليك، لم أكن أشعر بأية إثارة ناحية الحياة التي تعيشها لأنني لم يكن لي زوج

أتدري لماذا؟

لأنك قتلته؛ نعم أنت قتلت زوجي يا (روبرت).. ولكن الآن تغيرت الكثير من الأمور، فقد أيقنت أنك كنــت مجبرًا على هذا الوضع وهذه الحياة وتلك الأفعــال كما كنا نحن أيضًا مجبريــن على حياتنا، فنحن مصابون بالعدوى وأنت الآن تعرف هذه الحقيقة، ولكن ما لا تفهمه هو أننا نتمكن من البقاء على قيد الحياة، ولقد وجدنا طريقة تجعلنا قادرين على ذلك، وقادرين على تأسيس مجتمعٍ جديدٍ وحياةٍ جديدة، وسنفعل ذلك بتأنٍ ولكن بإصرار، وســنتعامل مع هؤلاء المخلوقات الميتة التي تســبب الضرر، وضمن ما نخطط له أن نقتلك، فأنت لا تروق لهم بأي حالٍ من الأحوال، ولكنني سأحاول إنقاذك، سوف أخبرهم أنك مسلح جيدًا وعلى أتم استعداد كي تنتصر علينا إن قمنا بمهاجمتك الآن

(روبرت).. اســتخدم الوقــت الذي أحاول أن أمنحــك إياه، غادر منزلك علــى الفور، واهرب إلــى الجبال واختبئ هنــاك وقم بحماية نفســك، فربما تكــون أعدادنا قليلة الآن ولكن مع الوقت ســنزداد في العدد والقوة والتنظيم، ولن يوقفهم أي شيءٍ عن قتلك مهما فعلت أنت ومهما حاولت أنا كي أمنعهم

من أجل الرب يا (روبرت).. ارحل الآن دون تردد

أعرف أنك لن تصدقني

لن تصدق أن بإمكاننا الحياة تحت أشعة الشمس لبعض الوقت

لن تصدق أن اللون البرونزي الذي كان يغطي بشرتي ليس إلا بعض مساحيق التجميل

لن تصدق أنه قد أصبح بإمكاننا التعايش مع الجراثيم

ولهذا تركت لك واحدة من أدويتي

تلـــك الأدوية التي يجب أن أتناولها طوال الوقت وأحتفظ بها مخبأة في حزامٍ حول خصري

فقد اكتشـــفنا أن هناك خليطًـــا يمكن تناوله من الدمـــاء الخالية من (الفيبروجـــن) مع هذا الـــدواء ولا أعرف بالتفصيـــل طريقة عمل هذا الخليـــط إلا أن الدم يغذي الجراثيم والـــدواء يمنع تكاثرها، وقد تمكنا بواسطة هذا العلاج من البقاء على قيد الحياة، والتجمع لإنشاء مجتمعٍ جديد.

صدقني تلك هي الحقيقة كاملة.

اهرب بأقصى ســـرعة، وأرجوك ســـامحني فلم أكن أرغب أبدًا في ضربك وإيذائك، لقد كنت أفضل المـــوت على أن أقوم بذلك، لكنني كنـــت في غاية الخوف والرعب مما ســـتفعله بي عندما تكتشـــف أنني مصابة بالعدوى

ســـامحني على كل الأكاذيب التي أخبرتك بهـــا، وأرجو أن تكون على يقينٍ من أنني عندما كنـــت أحتضنك في الظلام لم يكن هذا بدافع التجسس عليك أبدًا، بل بدافع الحب الخالص، فأنا أحبك يا (روبرت).

(روث)

قرأ الرســـالة مرة ثانية، ثم جلس يحدق في الأرض بعينين خاويتين، إنه لا يصدق أي شيءٍ مما قرأه، وهز رأسه برفقٍ وكأنه يطرد منها الصداع اللعين، وبدأ يحاول ترتيـــب أفكاره وفهم القصـــة بتفاصيلها الجديدة ولكنه لم يكن قادرًا علـــى تقبلها، فقام وتحرك بعدم ثباتٍ إلى الأريكة،

ووضع في راحة يده حبة الدواء الكهرمانية اللون الصغيرة وأخذ يشمها، ثم تذوق طعمها بطرف لسـانه، وشعر أنه يقف أمام جميع أسرار العالم الحصينة وأن الإطار الخارجي لحياته ينهـار، وهو في الداخل لا يجد سبيلًا للخلاص، والآن كيف له أن يرفض الأدلة ويتجاهلها؟

حبة الدواء

الطلاء الذي كان يُظهر لون جسدها برونزيًّا

قدرتها على التجول نهارًا

رد فعل جسدها تجاه الثوم

اعتدل في جلسـته على الأريكة بتثاقلٍ وبطءٍ، ولفت نظره المطرقة الخشبية وهي ملقاة على الأرض، وأخذ يحاول ترتيب الأحداث داخل عقله المنهك

في اللحظة الأولى التي رآهـا بها أخذت تركض وتحاول الهروب، فهل كانت تقوم بخداعه؟!

لا؛ فقـد كانت فـي غايـة الرعب بحـق، وقد صدمتهـا صيحاته وأدهشتها، وربما تكون قد وضعت خطتها الجديدة بعد ذلك، ثم ما أن هدأت جعلته يظن أن تحسسها من الثوم وتأثيره عليها يرجع إلى مشاكل أصابت معدتهـا، وبدأت تتصـرف بدهاءٍ وخبـث، فأخذت تضحك وتناور وتختلق الأكاذيب كي تحصل على المعلومات التي أُرسلت من أجلهـا، وعندما أرادت الهروب بينما كان هـو نائمًا، لم تتمكن لوجود (كورتمان) والآخرين في الخارج حول منزله، وقد فاجأها أن اسـتيقظ في تلك اللحظة بالتحديد

لقد تعانقا

لقد....

ثم ضرب بقبضته حافة الأريكة بقوةٍ، وقال ساخرًا بغضب:

- أنا أحبك يا (روبرت).. كاذبة، كاذبة.

ثم كور الرسالة بيده وألقى بها بعيدًا وهو يشعر بمرارةٍ شديدة، وأجج الغضب من حجم الألم الذي يشعر به في رأسه مما جعله يضغط بكفيه على جانبي وجهه بقوةٍ ويغمض عينيه وهو يتأوه من الصداع الخانق، ثم رفع رأسه ببطءٍ وأعاد الميكروسكوب الذي سقط إلى مكانه، وفكر في أن بقية الرسالة ليســـت بالأكاذيب، إنه على يقينٍ من ذلك بدون وجود حبة الدواء تلك، وبدون أية أدلة، إنه يعلم بل ويعلم ما لا تعلمه (روث) وقومها حتى الآن.

ثم نظر عبر الميكروســكوب لفترةٍ طويلة، واعترف من داخله أن ما رآه قد غير كل عالمه بأكمله، كيف كان بمثل ذلك الغباء والحماقة حيث لم يتوقع هذا الأمر ويتنبأ بحدوثه؟

خاصة بعد أن قرأ تلك العبارة مئات بل آلاف المرات، فهو لم يأخذها أبدًا بالاهتمام المناسب ولم يتمكن من معرفة أهميتها، فقد كانت عبارة قصيرة جدًّا ولكنها تعني الكثير والكثير

"يمكن للبكتيريا أن تتغير تحت تأثير الطفرات".

الفصل العشرون

لقد جاءوا في الليل

جاءوا يستقلون سيارتهم الداكنة، ويحملون مصابيحهم القوية وأسلحتهم المذخرة والفؤوس والعصي والرماح

جاءوا من الظلام وسط جلبةٍ شديدة مصدرها موتورات السيارات الهادرة التي تشق سكون الليل بينما أضواء المصابيح التي يحملونها في أيديهم شكلت طوقًا من النور يحيط بالمنطقة التي يوجد فيها شارع (سيمارون).

وكان (روبرت نيفيل) في هذه اللحظة يجلس خلف ثقب المراقبة، فوضع الكتاب الذي في يده جانبًا ووقف دونما اكتراث مكتوف الأيدي بينما أشعة الضوء تنعكس على الوجوه البيضاء لمصاصي الدماء الذين أخذوا يحومون بشراسةٍ وعيونهم الحيوانية الداكنة تحدق في الأضواء الساطعة.

وفجأة قفز (نيفيل) إلى الخلف وهو يشعر بخفقانٍ عنيفٍ داخل قلبه، ووقف للحظةٍ في الظلام كي يتمالك نفسه وهو غير قادر على تحديد ما يجب عليه أن يفعله في هذا الوضع، وانتفض جسده في اللحظة التي سمع فيها صوت هدير المحركات العالي بالرغم من جدران



منزلــه العازلة للصوت، وحــاول أن يبتلع ريقه وأن يأخذ نفسًــا عميقًا إلا أنه فشــل عندما انقبضت حنجرته لا إراديًّــا، وفكر في أن يلجأ إلى أســلحته النارية التي يحتفظ بها في الخزانة من أجل الدفاع عن بيته ضد هجماتهم الوشيكة، وظل يضغط بظفره على باطن كفه حتى جرح نفسه، لقد توصل إلى قرارٍ نهائيٍّ، قد عمل عليه بجد خلال الشهور الماضية:

لن يحارب.

ووسط العديد من المشاعر العميقة التي غرق بها، تحرك ببطءٍ ناحية ثقب المراقبة، ونظر من خلاله، وشــاهد أن الشــارع قد أصبح مسرحًا للعنف والضــرب والتدافع تحــت النور المتوهج والــذي يصدر من كشافات الإضاءة

رجال يندفعون ناحية رجال آخرين

صوت وقع خطواتٍ عنيفة فوق الرصيف

طلقات نارية متواصلة

صدى تلك الطلقات

ثم المزيد من الطلقات.

وشــاهد اثنين من مصاصي الدماء يسقطون أرضًا بينما أربعة رجال يجرونهما بعنفٍ وقوةٍ ناحية بعض زملائهم الذين يحملون رماحًا حادة لامعة، قاموا بغــرس طرفها المدبب في صدر مصاصي الدماء، وملأت صرخاتهما الكون المعتم حتى أن ملامح (نيفيل) قد تأثرت وشعر بوخزٍ في صدره وضيقٍ في أنفاسه وهو يشاهد ما يحدث.

الرجال ذوو الملابس الداكنة يعرفون ما يقومون به جيدًا، فقد أحاطوا بسبعة من مصاصي الدماء؛ ستة ذكور وأنثى، ودون هوادة أخذوا يغرزون أسنة رماحهم الحادة الطويلة في أجسادهم بقوةٍ وعنفٍ حتى بدأت الدماء تنفجر وتغطي الرصيف بأكمله وتساقط مصاصو الدماء بأجسادٍ ممزقة واحدًا تلو الآخر، وأخذ (نيفيل) يرتجف بشدةٍ وفزع:

- هل هذا هو المجتمع الجديد؟

خرجت الكلمات من فمه عن غير قصد، وحاول أن يقنع نفسه أن هؤلاء الرجال مجبرون على القيام بما يفعلونه الآن، إلا أنه لم يتمكن من ذلك أبدًا، وتساءل:

هل حقًّا هم مجبرون على ذلك؟

على الذبح والقتل بمثل تلك القسوة والعنف والوحشية؟

ولماذا يتلذذون بفعل ذلك ليلًا بينما يمكنهم القيام بالأمر نهارًا، ومصاصو الدماء نائمون في سلام؟

ووضع يديه في خصره وتراجع قليلًا، فهو لم يعد يرغب في مشاهدة المزيد، لم يعد يحتمل القتل على طريقة الجزار عديمة الرحمة، فهم بدوا بالنسبة له كعصابةٍ مجرمة أكثر من كونهم رجالًا مجبرين على القيام بأمرٍ ما، وحملت وجوههم نظرات الفرح والشماتة والخبث، نعم لقد أظهرت المصابيح وجوههم خالية من أي مشاعر سوى القسوة والعنف والوحشية، وفجأة شعر (نيفيل) بقشعريرةٍ غريبة وهو يتذكر أمرًا في غاية الأهمية:



أين يوجد (بين كورتمان)؟

وأسـرع ناحية ثقب المراقبـة وأخذ يتفقد المـكان بأكمله بحرصٍ وعنايةٍ لكنه لم يتمكن مـن رؤية (كورتمان) وكرر المحاولة مرة أخرى يمينًا ويسارًا إلى الأعلى والأسـفل، وأيضًا لم يتمكن من العثور عليه، فهـو لا يرغب في أن يتمكنوا من (كورتمـان) نعم لا يرغب أبدًا في أن يقضوا عليه بمثل هذه الطريقة الخالية من الرحمة، وشعر بصدمةٍ غريبة عندما وجد نفسه يتعاطف بكل أحاسيسه مع مصاصي الدماء ضد هؤلاء الجلادين الجدد.

وأصبـح الآن مصاصو الدماء السـبعة مكومين فـي بركةٍ كثيفة من دمائهم التي نزفوها بغزارة، بينما مصابيح الإضاءة تتحرك عبر الشـارع وتشـق سـواد الليل، فحول (نيفيل) نظره بعيدًا عنه وهجها حتى ابتعد الضـوء عن مرمى بصره فعاد لينظر من جديد، وفي هذه اللحظة شـهق بحدةٍ عندما شاهد (كورتمان) فوق سطح أحد المنازل المجاورة يخرج من المدخنة، وعلى الفور أدرك الحقيقة، لقد كان (كورتمان) يختبئ في تلك المدخنة القريبة منه طوال الوقت وشـعر بألم اليأس من تأخره في إدراك ذلك وبدأ مرحلـة التأنيب في كونه لم يبذل الجهد الكافي خلال بحثه، فضغط على شفتيه بقوةٍ كنوعٍ من العقاب، وبدا عليه أنه لن يتحمل أبدًا رؤية (كورتمان) وهو يلقى مصيره الدموي المحتوم على يد هؤلاء الغرباء المتوحشين، لكنه كان عاجزًا عن تقديم المساعدة إلا أن هذا لن يمنع تلك المشـاعر التي تجتاحه، وأخذ يشـاهد الأضواء وهي تتسلط

على جســد (كورتمان) بينما هو يحاول بجهــدٍ التملص والخروج من فوهة المدفأة ببطءٍ ملحــوظ، وكأنه يمتلك كل الوقت الذي في العالم، فصاح (نيفيل):

- هيا أسرع.

وشعر أنه يجاهد معه في حركته البطيئة المؤلمة.

الرجال الآخرون لم يصدروا أي صوت، ولم يصيحوا، ولم يتشاوروا فيما بينهم بل قاموا جميعًا في حركةٍ واحدة بتوجيه فوهات بنادقهم إلى الأعلى صوب الهدف المحدد، ومن جديدٍ تحــول الليل إلى نهارٍ بعد أن فتحوا النيران بغزارة، وكأن الرصاصات أصابت جســد (نيفيل) فقد تألم بالفعل، وأخذ ينتفض مع كل انتفاضة تصدر عن (كورتمان) نتيجة إحدى الرصاصات التي تخترقه بينمــا هو يزحف دون توقف، ووجهه الأبيض الشــاحب يظهر بوضوح، إنها نهاية (أوليفر هاردي) السمين، المأســاوية بكل ما كان يحمله من ضحكٍ وكوميديا، ولم يعد يســتمع إلى صوت طلقات الرصاص المســتمر، ولم يشعر بدموعه الدافئة التي تســقط على وجهه، وظلت عيناه تراقبان النســخة المشوهة من صديقه القديم وهو يتقدم ببطءٍ وصعوبةٍ على حافة سطح المنزل، والآن ها هو (كورتمان) يجلس على ركبتيه، ويستند على طرف المدفأة ويمسك بها بأصابعه المتشــنجة بينما جســده ينتفض تحت تأثير طلقات الرصاص وعينــاه الداكنتان تفــران من وهج المصابيح المســلطة عليه، وصوت زمجرة غير مســموعة يصدر من حنجرته، وتمكــن أخيرًا من الوقوف

على أحد جانبي المدفأة و(نيفيل) يراقبه بحزنٍ وأسى، وشاهد دفقة رصاصٍ من أحد المدافع الرشاشة تخترق جسده وتمزقه دون رحمة، وظل (كورتمان) منتصبًا لدقيقة مادًّا ذراعيه إلى الأعلى ونظرة رهيبة تطل من عينيه، وبدا وجهه الأبيض الباهت في غاية الرعب الحقيقي.

وتمتم (نيفيل) بنبراتٍ حزينة:

- (بين) على روحك السلام.

وهنا تكوم جسد (بين كورتمان) وانطوى على بعضه البعض وسقط من الأعلى زاحفًا على السقف المائل للمنزل ليطير في الهواء قبل أن يرتطم بالأرض كجثةٍ هامدة، وسمع (نيفيل) صوت جسده وهو يعانق الأرض بقوة، وعلى الفور اندفع الرجال إلى الجسد الملقى دون حراك، وأخذوا ينشبون سيوفهم ورماحهم في صدره، فأغلق (نيفيل) عينيه ومرة أخرى غرس ظفره في باطن يده بقوةٍ مفرطة.

وعلى إثر وقع الخطوات الثقيلة، تراجع (نيفيل) إلى الخلف في وسط الغرفة المظلمة وأخذ ينتظر أن ينادوا عليه ويدعونه إلى الخروج إليهم، وتماسك بقوةٍ وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال بصلابةٍ مذكرًا نفسه:

- أنا لن أدخل معهم في حرب.

بالرغم من أنه يرغب بشدةٍ في قتالهم، وبالرغم من أنه يكرههم بملابسهم الداكنة وأسلحتهم النارية ورماحهم التي تقطر دمًا، إلا أنه لن يدخل معهم في حرب، فقد اتخذ هذا القرار بعد طول تفكيرٍ عميق وبعنايةٍ تامة ورويةٍ وهدوء، فهم يفعلون ما يظنون أنه ضروري بالنسبة

لبقائهم وحتى إن كانوا يفعلونـــه مصحوبًا بعنفٍ غير مبرر ومع قدرٍ من الاســـتمتاع، فهو أيضًا قتل الكثيرين منهـــم، وكان لا بد للأمر أن ينتهي بهذه الطريقة، أن يتمكنوا من القبض عليه كي ينقذوا أنفسهم.

إنه لن يقاتل بل ســـيلقي بنفســـه بين يدي عدالـــة مجتمعهم الجديد بشـــجاعة، وما أن يبدأوا في المناداة عليه سيخرج بهدوءٍ ويستسلم لهم تمامًا، ولكنهم لم يفعلوا، لم ينادوا عليه، وفجأة انتفض جسده على إثر صوتٍ قوي لارتطام فأسٍ على باب منزله الأمامي، وظل واقفًا وســـط الظلام في غرفة المعيشة يتساءل:

ما الذي يفعلونه؟

لماذا لم يطلبوا منه ببساطة أن يستسلم؟

إنه ليس مصاص دماء كي لا يفهم ما يريدونه منه

إنه مجرد رجل مثلهم، فما الذي يفعلونه؟

وأخذ يتلفت حوله بحيرة، ثـــم توجه إلى المطبخ فقد كانوا يدمرون الباب الخلفـــي أيضًا، وأخذ يســـير بعصبيةٍ في الممـــر وعيناه تنتقلان بحيرةٍ بين البابين؛ الأمامي والخلفي، وشـــعر بقلبه ينبض بقوةٍ وبصوتٍ مســـموع، ولم يتمكن من فهم ما يقومون به الآن ولا من معرفة ســـببه، وقفز فجأة بعيدًا بعدما ســـمع صوت إطلاق نار، فقـــد كان الرجال في الخارج يطلقـــون الرصاصات على الباب الأمامـــي، وفي هذه اللحظة أدرك أنهم لن يأخـــذوه معهم إلى منطقتهم ليحاكموه هناك بل ســـوف يعدمونه ببشاعةٍ هنا، وسرى الخوف في أوصاله، فأسرع إلى غرفة النوم،

وفتح الخزانة وأخرج أسـلحته ثم وقف على قدميه مستعدًّا للمواجهة، ولكن ماذا لو أنهم يخططون لأسره بالقوة كي لا يقاوم؟

فهو يحكم عليهم لأنهم لم ينادوا مطالبين باستسلامه!

كما أنه لم يكن يشعل أضواء المنزل، فربما ظنوا أنه قد رحل.

وظل على حاله في غرفة النوم وسط الظلام لا يعرف كيف يجب أن يتصرف وهو يشهق بخوفٍ وتوتر، ويؤنب نفسه

لماذا لم يرحل؟

لماذا لم يستمع إلى نصيحتها؟

إنه أحمق.

وفي اللحظة التي سـمع فيها صوت تحطم الباب الأمامي للمنزل، سقط أحد المسدسات من يده لا شعوريًّا، وبدأ صدى خطواتهم يصدح في الداخل بينما تراجع (نيفيل) إلى الخلف، وهو يقبض على مسدسه الوحيد بأصابع من فولاذ.

إنهم لن يقوموا بقتله دون عراك، وأكمل تراجعه حتى صدم الطاولة الخشبية، فتنهد من الخوف، وتجمد في مكانه بتحفزٍ عندما شاهد رجلًا يمر من أمام مدخل الغرفة وهو يقول شـيئًا ما لـم يتمكن من فهمه، ثم لمح شـعاع أحد الأضواء في الردهة، فحبس أنفاسه وهو يشعر بالغرفة تدور به، وكل ما فكر فيه هو شيءٌ واحد فقط أخذ يردده في أعماقه كثيرًا ولكن بصمت:

- حسنًا، هذه إذًا هي النهاية.

وتصاعد صـــوت الخطوات في الردهة، وتشـــنجت أصابع (نيفيل) على المسدس الذي يحكم قبضته عليه وهو يحدق في باب الغرفة ليجد رجلين يدخلان منه وضوء مصباحيهمـــا يتجول في الغرفة حتى وصل إلى وجهه، وحينها تراجعا بشكلٍ مفاجئٍ وهما يصرخان:

- لقد حصل على سلاح.

وأطلق أحدهما النار، وســـمع (نيفيل) صوت الرصاصة وهي تعبر بجوار رأسه ثم تصطدم بالجدار من خلفه، وكان رد فعله أن اعتصر زناد مسدســـه بقوةٍ ودون أن يصوب، استمر في إطلاق النار بشكلٍ عشوائيٍّ ليســـمع صوت أحد الرجلين وهو يصرخ بألم، وفـــي هذه اللحظة كان صدره ينبض بقوةٍ على وقع دقات قلبه العنيفة من شـــدة التوتر والإثارة التي يشعر بهما، ولم يســـتوعب ما هو السبب الحقيقي لنبضات صدره القوية، وفجأة وجد نفســـه يترنح بشـــدةٍ وهو ينتفض من الألم، وأطلق النار مرة أخرى قبل أن يســـقط على قدميه وهو يستمع إلى صوت رجلٍ يقول:

- رائع؛ لقد أصبته.

وحاول أن يتماســـك إلا أنـــه انهار أرضًا، فمد يده ليلتقط مسدســـه من جديد، إلا أن حذاءً أســـودًا سحق يده بعنفٍ وحطم عظامها، فحدق (نيفيـــل) في يده المصابة وهو يلهث قبل أن يضع رأســـه على الأرض، وأمسكت به أيادٍ قوية وسحبته إلى الأعلى، وأخذ يتساءل:

متى سيقتلونه؟ وكيف؟

ثم تمتم:

- (فيرجينيا)

(فيرجينيا).. أنا قادمٌ إليكِ الآن.

وكان الألم في صدره وكأنه سيخ من الفولاذ سقط عليه من علوٍّ شاهق، وسمع صوت طرف حذائه الأمامي وهو يحتك بأرض الغرفة.

الموت قادم، لكنني أريد أن أموت في منزلي، وحاول المقاومة على قدر ما يمتلك من قوى خائرة ولكنهم لم يتوقفوا، وبدأت الآلام الني يشعر بها في صدره تصبح رهيبة وفوق قدرته على التحمل وهم يسحبونه معهم بعنفٍ وقسوةٍ، وأخذ يتمتم بغير وعي:

- لا؛ لا؛ لا.

وانتقل الألم فورًا من صدره إلى عقله، فبدأ كل ما حوله يدور ويغرق وسط الظلام، وهو لا يزال يتمتم ولكن بصوتٍ أشد خفوتًا:

- (فيرجينيا).

وسحب الرجال ذوو الملابس الداكنة جسده الخالي من الحياة من المنزل إلى قلب الليل حيث العالم الذي لم يطأه منذ سنواتٍ طويلة.



الفصل الحادي والعشرون

صوت حفيف وغمغمة في الهواء

وسـعل (روبرت نيفيل) بضعفٍ، ثم تلوى من الألم الذي شـعر به في صدره، وأصدر أنينًا خافتًا من بين شـفتيه في حين حرك رأسه قليلًا فوق الوسادة المسـطحة، وبدأ الصوت يعلو ويصبح أقوى حتى تحول إلـى خليطٍ من الأصوات التي أصبحت ضوضاء صاخبة، وحرك ذراعه بصعوبةٍ، وتساءل:

لماذا لم يخمدوا النار التي في صدره؟

فهو يشعر وكأن فحمًا مشـتعلًا يسقط في أعماقه خلال فتحةٍ كبيرة، فتنهد مرة ثانية بألمٍ مع رعشـةٍ خفيفة على شـفتيه وهو يحاول أن يفتح عينيه، وأخذ يحدق في السـقف المصنوع من الجبس الخشـن لدقيقةٍ كاملة، وشـعر أن الألم ينحصر في منطقة الصدر مع انتفاضاتٍ لا نهائية فـي أعصابه الطرفية، وظـل وجهه خاليًا من التعابير والمشـاعر، وفي البداية أخذ يكافـح كي يتغلب على كل ما بداخلـه من أوجاعٍ ووخز، ولكن بعد قليل بدأ عقله يعمل ببطءٍ وكأنه آلة ذات تروسٍ عالقةٍ.

أين أنا؟

كان هذا هو تساؤله الأول.



لقد كان الألم لا يطاق، فنظر إلى صـــدره، ووجده مربوطًا بالضماد الذي يوجد به بقعة حمراء كبيرة داكنة في المنتصف، فأغلق عينيه وابتلع ريقه:

أنا مصاب في الصدر، مصاب بشدة، وإصابتي سيئة.

وشعر بجفافٍ في حلقه وهو يتساءل:

أين أنا؟ وما هذا المكان؟

ثم فجأة تمكن من أن يتذكر أمر الرجال ذوي الملابس الداكنة الذين اقتحموا منزله، وأدرك أين هو حتى قبل أن يدير رأســه ببطءٍ وألمٍ لينظر إلى النوافذ المخططــة والزوايا الضيقة، وأخذ ينظر إلــى النوافذ لفترةٍ طويلة وهو عابــس الوجه بينما الأصوات في الخـــارج تعلو وتتداخل بطريقةٍ عشوائية، ثم عدل من وضع رأســه على الوسادة، وأخذ يحدق في السقف مرة أخرى.

لقد كان من الصعب أن يفهم الأمر على حسب وجهة نظره هو، صعب جدًّا أن يستوعب أن ما يحدث ليس مجرد كابوس، فبعد ثلاث سنواتٍ من البقاء وحيدًا في منزله، ها هو يجد نفسه هنا.

لكنه لم يشــك أبدًا في مدى قســوة الألم الذي يشعر به في صدره، ولم يشك في البقعة الحمراء الرطبة التي يزداد حجمها اتساعًا، ثم أغلق عينيه وتمتم:

- أنا سأموت.

وحاول أن يســتوعب الأمر إلا أنه لم ينجح في ذلك، نعم لم ينجح فــي تقبل فكــرة الموت بالرغم من أنــه عاش ملاصقًا لــه طيلة ثلاث

سـنوات، وبالرغم من أنه تعين عليه السـير بحرصٍ على الحبل الرفيع المشدود الذي يعبر إلى مواجهة لا نهائية مع الموت، وبالرغم من ذلك لم يسـتوعب مسألة موته هو شـخصيًّا، فظل الأمر خارج نطاق الشرح والتعبير والفهم.

وبينما هو لا يزال مستلقيًا على ظهره، سمع صوت الباب الذي خلفه يُفتح، ولم يسـتطع أن يعدل من وضع جسـده فقد كانت أبسط حركة تسـبب ألمًا لا يحتمل، فلم يكرر المحاولة وأخذ يسـتمع إلى صوت الخطوات التي تقترب من السـرير الذي يتمدد عليه، فنظر إلى الأعلى لكن الشخص لم يكن بعد في مجال نظره، وفكر..

إنه جلادي

إنها العدالة الزائفة للمجتمع الجديد

ثم أغلق عينيه، واستسـلم للانتظار، واقتربت الأصوات حتى أدرك أن الشـخص قد أصبح ملاصقًا له، فابتلع ريقه بصعوبةٍ إلا أن حلقه كان جافًّا جدًّا، فحاول أن يبلل شفتيه بلسانه عندما سمع صوتًا يسأله:

- هل تشعر بالعطش؟

ففتح عينيـه الخاليتين من المشـاعر، ونظر إليهـا، فوجد فجأة أن قلبه يخفق بشـدةٍ مما جعل الألم يزداد مـع كل خفقة، ولم يتمكن من السيطرة على أنينه ولهاث أنفاسه، فدفن رأسه في الوسادة وعض شفتيه، وتمسك بقوةٍ في الملاءة التي تغطي السرير، إنه مصاب بالحمى، ومما زاد الوضع سـوءًا أن بقعة الدم على صدره أخـذت تزداد دون توقف،

وجلست (روث) على ركبتيها بجواره لتمسح العرق من على جبينه برفق، وتمرر على شفتيه قطعة قطنٍ مبللة بالماء البارد، وكان الألم يأتي على شكل موجاتٍ تعلو ثم تنحصر قليلًا، وأخذ (نيفيل) ينظر إليها بعينين شبه ميتتين بينما ملامح وجهها لا تشي بأي انطباع.

وقال أخيرًا بعد عناء المحاولة:

- حسنًا؛ ماذا بعد؟

إلا أنها لم تجبه، ونهضت لتقف بجانب السرير، ثم مسحت جبينه مرة أخرى بعد أن لمحت بعض حبات العرق التي نبتت للتو، ورفعت رأسه قليلًا وهو يسمعها تصب له بعض الماء، وشعر بالألم يمزقه كسكينٍ يخترق أحشاءه وهي ترفع رأسه كي يتمكن من شرب الماء، وفكر..

لا بد وأن هذا هو شعور الرمح عندما يخترق صدر شخصٍ ما..

شيءٌ يمزقك ويخترقك ويسحب منك الحياة ويجعل دماءك تسيل.

وأعادت رأسه إلى الوسادة، فقال همسًا:

- أشكركِ.

وظلت هي تتأمله بشعورٍ غريب، من القرب الشديد حد الذوبان والانفصال حد التنافر، وكان شعرها الأحمر قد صُفف إلى الوراء، إنها تبدو له في غاية الجمال والثقة في النفس، وقالت:

- أنت لم تصدقني؛ أليس كذلك؟



فسعل فجأة وفتح فمه ليتنفس القليل من هواء الصباح العليل، ثم قال:

- بلى، لقد صدقتكِ.

- إذًا لماذا لم ترحل؟

حاول أن يتكلم لكنه شعر بلعثمةٍ بين الهواء الذي يريد أن يدخل صدره، والكلمات التي تحاول أن تخرج من حنجرته، وأخيرًا تمتم:

- لم أتمكن من ذلك، وفي الحقيقة لقد حاولت عدة مرات حتى أنني في إحداهن حزمت أغراضي وغادرت بالفعل، لكنني لم أستطع، لقد كنت مرتبطًا بشدةٍ بالمنزل، ولم أتمكن من مغادرته، لقد أصبح بالنسبة لي عالمي الخاص.

وأخذت تتأمل قطرات العرق على جبينه، وزمت شفتيها بقلقٍ وهي تمسحها، وقالت:

- لقد تأخر الوقت الآن، وأنت تدرك ذلك.

- نعم أنا أعرف.

فحاول أن يبتسم إلا أنه لم يتمكن من ذلك حتى سألته:

- لماذا قاومتهم وأطلقت عليهم النار؟

لقد كانت أوامرهم تقتضي بأن يحضروك إلى هنا دون أن يلحقوا بك الأذى، إن لم تقاوم.

فهمس لاهثًا:

- وما الفرق؟



وعاد ليشعر بنوبة ألمٍ شديدة، فعض شفتيه بقوةٍ، وأغلق عينيه، وعندما فتحهمـــا مرة أخرى وجدها أمامه لكن أقرب بقليلٍ دون أن تتغير ملامح وجهها، وهذه المرة نجح في أن يبتسم لكن بضعفٍ ووهن، وقال:

- مجتمعكِ يبدو رائعًا جدًّا، فمن هم هؤلاء الجلادون القساة الذين جاءوا كي يأخذونني؟

هل هم مستشارون العدالة؟

وتغيرت ملامحه فجأة وبدت محبطة، وأجابته:

- إنه مجتمع جديد ولا يزال بدائيًّا، ويجب أن تعي ذلك، فنحن إلى حدٍّ ما نشبه مجموعة من الثوار تحاول إخضاع البلاد بالقوة والعنف، ثم أنك لست بغريبٍ عن العنف، لقد قمت بقتل المئات.

- نعم فعلت ذلك، لكن من أجل أن أعيش وأحمي نفسي.

فقالت بهدوء:

- وهـــذا أيضًا هو ما نقوم به، فمن أجل النجاة، لا يمكن أن نســمح للأمـــوات أن يبقـــوا بجوار من هم علـــى قيد الحيـــاة، فعقولهم تافهة، ويعتبرون ســبب وجودهم الوحيد هو أن يدمروا كل شـــيء، ولذا كان يجب أن نتخلص منهم، وأنت تعرف ذلك جيدًا.

وتســـبب النفس العميق الذي أدخله إلى صدره في زيادة إحساســه بالألم وظهر ذلك جليًّا فـــي نظرة عينيه وهو يئن، مما جعله يفكر في أن النهاية قد أصبحت قريبة جدًّا، بل أقرب مما يتصور هو:

لـــن يمكنني البقاء أكثر من ذلك في تلـــك المعاناة، فالموت لم يعد يخيفني على الإطلاق.

نعم فبطريقةٍ ما تغيرت وجهة نظـــره في مغادرة الحياة، وأصبح قلبه خاليًا من الخوف تمامًا، وتحت وطأة الأوجاع المتزايدة ظل عاجزًا عن المقاومة بينما سحابة مشوشة تمر من أمام عينيه، فرفع بصره إلى وجهها الهادئ، وقال:

- أنا آمل في ذلك، ولكن هل رأيتِ ملامحهم وهم يمارسون القتل بمنتهى الوحشية؟

لقد كانوا يستمتعون، نعم غارقون في متعةٍ خالصة.

ولمح ابتســامتها العذبة، وأيقن أن شــيئًا ما في أعماقها قد تغير، ثم سألته على الفور:

- وهل رأيت ملامح وجهك، وأنت تقتل؟

وربتت على جبينه برفقٍ، وأكملت:

- أنا رأيتها؛ أتذكر؟

لقد كانت مرعبة جدًّا بالرغم من أنـــك لم تكن تقتل حينها بل كنت فقط تطاردني.

فأشاح ببصره عنها، وأغلق عينيه وتساءل:

لماذا حتى أستمع إلى ما تقوله؟!

فقد أصبحت مثلهم بلا عقلٍ وتؤمن كليًّــا بالعنف الذي يبنون على أساسه مجتمعهم الجديد، وأكملت هي قائلة:



- نعم، قد تكون شاهدتهم يستمتعون بالقتل، ربما، وهذا الأمر لا يشعرني بالصدمة أبدًا، إنهم صغار في العمر، إنهم قتلة، وليسوا فقط مجرد قتلة بل هم قتلة محترفون، والأهم من ذلك كله هم قتلة شرعيون، فهم يحترمون ما يقومون به من قتلٍ ويقدسونه، فهو طريقهم الوحيد إلى الخلاص، والآن أخبرني ماذا كنت تتوقع منهم؟

إنهم مجرد حفنة من الشباب الغير معصومين، والرجال يتعلمون سريعًا، كيف يستمتعون بكل شيءٍ حتى بالقتل ذاته، إنها قصة قديمة يا (نيفيل) وأنت تعرف ذلك.

فعاد للنظر إليها، فوجد ابتسامتها قد أصبحت حادة، فهي ابتسامة امرأة تحاول التخلي عن أنوثتها من أجل معتقداتها التي تؤمن بها، وسمعها تتمتم:

- (روبرت نيفيل) الباقي الأخير من الجنس القديم.

فتغيرت ملامحه وملأها الضيق، وقال وهو يعاني ربما من الألم أو ربما من كل الشعور بالوحدة الذي عانى منه لسنواتٍ طويلة:

- الأخير.

فعادت لتقول دون اكتراث:

- أو ربما يكون هذا على حد علمنا فقط، فأنت فريد من نوعك جدًّا، أتعلم هذا؟

عندما تغادر، لن يكون هناك أحد آخر مثلك داخل مجتمعنا الوليد.

فحول نظره إلى النافذة، وقال:



- تقصدين هؤلاء الناس في الخارج!

فأومأت برأسها، وقالت:

- نعم، إنهم ينتظرون.

- ينتظرون موتي؟

- بل ينتظرون إعدامك.

فشعر بتوترٍ وهو ينظر إليها، إلا أنه قال بثقةٍ وبدون خوفٍ، وبصوتٍ أجش:

- إذًا، من الأفضل أن تسرعوا.

وتبادلا النظرات لبعض الوقت حتى أصبح وجهها باردًا بلا مشاعر، ثم قالت:

- أنا أعلم ذلك، أعلم جيدًا أنك لم تعد تشعر بالخوف.

وبتلقائيةٍ أمسكت بيده برفقٍ، وقالت:

- عندما سمعت بالأوامر التي تقضي بذهابهم إلى منزلك، قررت على الفور أن أذهب إليك كي أحذرك، لكنني فكرت في أنك إن كنت لا تزال هناك، فهذا يعني أنني سأفشل في إقناعك بالرحيل، ثم فكرت في أن أسهل عملية هروبك من هنا بعد أن أحضروك، ولكنهم أخبروني أنك قد أصبت إصابة خطيرة، أي أن الهروب لن يجدي نفعًا وستكون النجاة معه مستحيلة.

وعادت لتبتسم ببرودٍ، وأكملت:



- أنا فخورة بك لأنك تمكنت مـــن التغلب على الخوف وهزيمته، فأنت في غاية الشجاعة.

ثم أصبحت نبرات صوتها أكثر حنانًا، وشـــدت على يده وهي تنطق حروف اسمه:

- (روبرت).

وعاد الصمت ليسيطر على المكان لبعض الوقت قبل أن يسألها:

- كيف يمكنك المجيء إلى هنا؟

فأجابته:

- أنا ضابط ذات رتبةٍ عالية في هذا المجتمع الجديد.

وترك يده حـــرة بين أصابعها، ثم فجأة تناثـــرت الدماء من فمه وهو يسعل بقوةٍ، وقال بصلابة:

- لا تجعلي الأمر يحدث بوحشيةٍ وقسوة
لا تجعلي الأمر خاليًا من المشاعر.

فابتسمت له، وقالت:

- سأحاول.

ولم يتمكن من مبادلتها الابتسام، فالألم كان يتزايد بطريقةٍ لا يمكن تحملها، فثنى جســـده وكأنه حيوان يحك بطنه بنفســـه، فمالت (روث) عليه، وقالت:

- (روبرت) اســـتمع لي، إنهم ســـيقومون بإعدامك حتى وإن كنت جريحًـــا تحتضر ســـيفعلون ذلك، فالناس ينتظرون فـــي الخارج طوال

الليل، إنهم مرعوبـــون منك، ويكرهونك جـــدًّا، ويريدون موتك على الفور.

واعتدلت في وقفتها سريعًا، وفكت أزرار قميصها، ثم أخرجت من داخله كيسًا صغيرًا جدًّا، ووضعته في كف يده وهي تهمس:

- هـــذا كل ما يمكنني فعلـــه يا (روبرت).. فقـــد حذرتك من قبل، وطلبت منك أن ترحل بعيدًا.

ثم تغيرت نبرات صوتها:

- لا يمكنك القتال إلى الأبد يا (روبرت).

فتلعثم وهو يقول:

- نعم، أنا أعرف ذلك.

وظلت واقفة أمام ســـريره لبعض الوقت، تنظر إليه بشفقةٍ وتعاطف، وفكر في أنها هنا بجواره الآن في مهمةٍ رسمية، وأنها تخشى أن تتعامل معه على طبيعتها وتظهر مشاعرها الحقيقية، وقال لنفسه برضًا:

- نعم، أنا أفهم ذلك.

وهنا انحنت (روث) وطبعت بشـــفتيها الباردتين، قُبلة خاطفة على شفتيه، وتمتمت بحزن:

- ستكون معها سريعًا.

ثم اعتدلـــت في وقفتها، وأغلقـــت أزرار قميصها وأغمضت عينيها للحظةٍ قبل أن تلقي عليه نظـــرة ذات مغزى ثم تحول نظرها إلى قبضته اليمنى.

وقالت له:

- تناولهم بأسرع وقت.

ثم استدارت وغادرت بخطواتٍ سريعة، واستمع إلى صوت خطواتها القوية على الأرض، ثم إلى صوت الباب وهو يغلق من خلفها وصوت المفتاح وهو يدور ليحكم الغلق، فشعر بقشعريرةٍ تجتاحه وبقطراتٍ من الدموع الدافئة تسيل من عينيه، وقال بصوتٍ يملأه الوجع:

- الوداع يا (روث)

الوداع يا كل شيء

الوداع أيها العالم.

ثم فجأة أخذ نفسًا عميقًا، واستند على مرفقيه، ودفع نفسه إلى الأعلى في وضع الجلوس، فهو يرفض أن يبدو كالمنهار أمام الآلام الحادة التي تنفجر من صدره، وأخذت أسنانه تصطك ببعضها البعض، وأخيرًا تمكن من الوقوف على قدميه، وللحظةٍ كان سيسقط بعنفٍ إلا أنه استعاد توازنه سريعًا، وظل واقفًا على الأرض بينما قدماه ترتعشان، وتوجه ناحية النافذة ونظر من خلالها، فوجد الشارع مليئًا بالناس الذين يثيرون جلبة عالية في هذا النهار الكئيب، وبدا له أصواتهم كأزيز ملايين الحشرات، وأخذ يتأمل تلك الوجوه وهو يستند بقوةٍ على يده اليسرى التي نضبت عروقها من الدماء، وفي هذه اللحظة لمحه شخصٌ ما، وعلى الفور زاد صوت الجلبة والضوضاء والثرثرة، لكن فجأة عم الصمت بين الجموع الحاشدة وكأن غطاءً ثقيلًا سقط عليهم وحجب عنه أصواتهم،

ووقفــوا جميعًا ينظرون إلى الأعلى في اتجاهه حيث يقف، فتراجع إلى الخلف ما أن شاهد وجوههم البيضاء الباهتة، وجال بخاطره أمرٌ صادم:

- لقد أصبحت أنا الشخص الغير طبيعي بينهم

أنا الآن الرجل الغريب، فقد أصبح الشيء الطبيعي هو الشيء الغالب المسيطر الكثير العدد، وما عاداه فهو غير طبيعي.

وعلى الفــور تأكد من صحة الأمر الذي فكر فيــه عندما عاد ليتأمل ملامح وجوههم بتجردٍ وهم ينظرون إليه بخوفٍ وفزع، فبالنســبة لهم هو ليس ســوى كارثة محدقة وخطر رهيب، إنه بالنسبة لهم مصيبة أكبر من المرض نفســه الذي تمكنوا أخيرًا من التعايــش معه والتأقلم على أعراضه، إنه بالنسبة لهم شبح خفي قام بقتل أحبائهم وأقاربهم.

ولقد تمكــن أخيرًا من فهم وجهة نظرهم، فلم يعد يشــعر تجاههم بكراهيةٍ بعد الآن، وضغط بقوةٍ على الدواء الموجود في الكيس الصغير داخل قبضة يده اليمنى، وفكر:

ولأن النهاية لن تكون عنيفة، نعم لن يتحول الأمر إلى مجزرةٍ تحدث أمام أعينهم.

ونظر (روبــرت نيفيل) إلى وجــوه أفراد المجتمــع الجديد الذين ســيرثون الأرض، وأصبح على يقينٍ من أنه لا ينتمي إليهم بأي شــكلٍ من الأشكال، كمصاصي الدماء بالنســبة له، هو حاليًّا بالنسبة لهم لعنة ورعب أسود يجب أن ينتهي ويدمر بلا رحمة، وفجأة أصبح هذا اليقين شيئًا مســليًا جعله يتناسى الألم ولو قليلًا، وســعل بقوةٍ وهو يضحك

ضحكة مكتومة جعلته يشعر باختناق، واستدار بعيدًا عن النافذة وانحنى مســتندًا إلى الحائط، وابتلع حبوب الدواء، وفكر للمرة الأخيرة بعقله الذي بدأ الخمول يتسلل إليه وكأنه على وشك الدخول في سباتٍ عميقٍ بعد أن فقد السيطرة على أطرافه:

- إنها دورة كاملة، نعم دورة حياتية كاملة

فها هو رعب جديد يولد من الموت

وها هي خرافة أخرى تقتحم قلعة الأبدية

أنا أسطورة.

تأليف

ريتشارد ماثيسون

1954

**

ترجمة

د. شريف صبري

2018-11-11

أعمال أخرى للمترجم

الحواديت	ديوان شعر
الحب الأزرق	ديوان شعر
توت	ديوان شعر
أبناء الشيطان	رواية
رائحة الخوف	رواية
سيلفي مع جثة أبي	رواية
20 سبتمبر أرواح غائبة	رواية
حارس جهنم	سلسلة بوليسية شهرية
عالم الفزع	سلسلة رعب شهرية
أنا أسطورة	رواية مترجمة عن الإنجليزية

طرق التواصل مع المؤلف

instagram: Blue_w0rld
Facebook: sherif.blue.world@gmail.com

أنا أسطورة

إن كنت تبحث عن (ويل سميث) داخل هذه الرواية، وإن كنت تظن أنك ستجد تفاصيل الفيلم الشهير بين السطور والأحداث المتلاحقة، فاسمح لي أن أصيبك بصدمةٍ كبيرة.

فالفيلم لا يمت بأي صلةٍ إلى هذا العمل العبقري الرائع الذي أذهل به (ريتشارد ماثيسون) العالم كله، وهو يتحدث بطريقةٍ غير مسبوقة عن الزومبي ومصاصي الدماء وفكرة نهاية العالم.

والشيء الوحيد الذي يمكنني أن أؤكده لك، هو أن هذه الرواية لن تجعلك أبدًا تعود كما أنت الآن، فلن تعود بأي حالٍ من الأحوال نفس الشخص الذي يمسك بين يديه رزمة أوراق بترددٍ، لا يعرف هل يقرأها أم يتركها على الرف.

سما للنشر والتوزيع

المجموعة الدولية للنشر والتوزيع



تصميم الغلاف

